جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاى البارود
قسم البلاغة والنقد

قصيدة سيدنا حسان بن ثابت رضى الله عنه في التبشير بفتح مكة

دراســـة بلاغـــية

إعداد
سلامة جمعة على داود
مدرس فى قسم البلاغة والنقد

لا أسرِقُ الشُّعَراءَ ما نطَقُوا ،
إذْ لا يُخالِطُ شِعْرُهُمْ شِعْرى
إنى أبَى لى ذلِكُـم حَسَبى ،
ومَقَالةٌ كمقــاطِـعِ الصّــخْرِ

حسان بن ثابت

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى ربط بيننا وبين العلم بسبب ، وجعلنا من طلابه ، وأقامنا فى رحابه ، ولم يشغلنا عنه بشاغل ، ولم يعقنا عنه بعائق . نسأله – سبحانه – أن يُدِيمَ علينا هذه النعم ، حتى نَفِدَ عليه بِيضَ الوجوه ، غُرًّا مُحَجَّلِين ، وفدا مُتَقَبَّلِين ، بفضله ورحمته ، وكرمه ورضاه . ونضرع إليه بالصلاة والسلام على سيد الخلق ، وإمام المتقين ، ورحمة الله للعالمين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد

. فإن حسان بن ثابت الأنصارى ، شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم ، من الشعراء المخضرمين ، الذين عاشوا فى الجاهلية وأدركوا الإسلام ، وله فى كل من العصرين شعر محكم جَزْل ، ولما هداه الله للإسلام سخر موهبته للدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته ، ، فأبدع فى ذلك وأجاد ، وشَفَى واشْتَفَى .

وهذه دراسة بلاغية لإحدى روائعه التى تجمع بين شعره فى الجاهلية وشعره فى الإسلام ؛ فإنه أنشأ مقدمتها فى الجاهلية ثم بنى عليها فى الإسلام حتى أتمها وأكملها ، وهى " قصيدته فى التبشير بفتح مكة " ، أولى قصائد ديوانه .

والتحليل البلاغى للشعر أَقْدَرُ أداة تُبِينُ عنه ، وتنشر ذخائره المخبوءة وراء ألفاظه وتراكيبه وصوره ومعانيه ، وهو الوسيلة إلى تذوق الشعر والإحساس به والحكم عليه . وإن بَقِيَ فى الشعر وسائر البيان العالى الرفيع – بعد طول النظر والتأمل والاجتهاد فى البحث والدرس – مَعانٍ لم تَحُمْ حولَها العقول ، ولم تَقْطِفْ ثِمارَها أيدى الدارسين ، ومَعانٍ أخرى تستعصى على البيانِ ، نجد لها فى نفوسنا حَسِيساً (أى حَرَكةً وصوتا يُحَسُّ) دون أن نجد لها فى بياننا همسا يشى بها أو يومئ إليها ؛ (فإن اللغة ، هى قمةُ البراعات الإنسانية وأشرفها ، وهى أبعدُ مَنَالا مما يتصوره المرءُ بأول خاطر ، فما ظنك إذا كانت اللغةُ عندئذٍ لُغةَ " شعر " أو " كلام مبين " ! عندئذ تعيى الألسنةُ عن الإبانة عن مكنون أسرارها ، وتَقْصُرُ هِمَمُ ألفاظِ النقادِ أحيانا كثيرة عن بُلوغ ذُرَاها المُشْمَخِرَّة) [1] .

---

(1) نمط صعب ، ونمط مخيف للأستاذ / محمود محمد شاكر – رحمة الله – : ص ١٦٩ مطبعة المدنى ط أولى ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦ .

والدراسة البلاغية لقصيدة من أشَقِّ الدراسات وأصعبِها ؛ لأنها تتطلب بَصَرا بالمقام الذى أُنشئتْ فيه ، وملابساته ، للكشف عن مدى وفائها بحق هذا المقام ، كما تتطلب بَصَرا بلُغَةِ الشاعر : ألفاظه ، وأساليبه ، وصوره ، ومعانيه ، فضلا عن الصبر على فقه المعنى وبيان مساربه فى نفس الشاعر ، والكشف عن أنساب المعانى فى القصيدة ونمط بنائها ، وكيف يُولَد بعضُها من رحم بعض ، وكيف وفّت اللغةُ بحَاقِّ هذه المعانى ، وأظهرتها للعَيَانِ كما هى فى الجَنَان ؟ إلى طَلِبَاتٍ أُخَرَ يطول وصفُها ، ويَصْعُبُ حَصْرُها .

وقد اجتهدت فى تطبيق تلك الأصول على قدر الطاقة ، وقلة البضاعة فى فن الشعر ، مع الثقة بأن الاعتراف بالعجز مِرْقَاةٌ إلى المزيد من بذل الجهد ، وأن طول النظر والمراجعة يُحيى العملَ ويبعثُ فيه الحياة والنماء .

وزاد هذه القصيدةَ صُعُوبةً على دارسها أُمورٌ أخرى من أهمها : اختلاف ترتيب أبياتها فى الروايات ومصادرِ الأدب ، وكان ذلك من أشق شئ وأصعبه ، ولكننى - بعون الله - أقمت لها ترتيبا أطمئن إليه ، من خلال مراجعات كثيرة ومقابلات بين روايات الديوان والمصادر الأصول التى روت القصيدةَ كُلَّها أو أبياتا منها من كتب السيرة النبوية والتفسير والحديث وكتب الأدب ومعاجم اللغة ، فعارضت بعضها ببعض ، واخترت ما وَطَّأته الرواية ، وأَيَّدَه المعنى والمقام ، واستصفاه الذوق ، وأشرت عند دراسة كل قسم من أقسام القصيدة إلى ذلك . وأرجو أن أكون قد وُفِّقت ؛ لأن ترتيب أبيات القصيدة ، وترجيح بعض رواياتها على بعض ، من المعضلات الصعبة التى اجتنب القدماء أمر الفصل فيها ، مع نبوغهم وسَعَةِ علمهم وإحاطتهم ، مما دعانى إلى تَمَثُّل القصيدةِ كُلِّها بمعانيها وظلالها ومناهجِها حتى أَصِلَ فى ذلك الأمر الموغل فى العُسْرِ إلى صورة هى - فيما أرى - أقرب صور القصيدة إلى الصحة والسَّدَاد [1] .

وآثرت أن أُورِدَ بعد هذه المقدمة تعريفا موجزا بسيدنا حسان بن ثابت ، وأن أقدم بين يدى القصيدة توطئةً تبين مناسبتها واختلاف النقاد فى كونها جاهلية أو إسلامية ، ومنزلتها فى شعر حسان .

وفى الدراسة التحليلية قسمت القصيدة من حيث النظر إلى أصول معانيها أربعة أقسام ، استوفى كل قسم منها معنى من تلك المعانى : فشمل القسمان الأول والثانى " مقدمة القصيدة "

---

(1) ينظر المصدر السابق : ص ١٢٩ - ١٣٢ .

" (الأبيات ١ – ١١) ، ولم أجعل المقدمة كلها قسما واحدا ؛ لأن الشاعر تغنى فيـها بمعنيين ، جدد فى الثانى منهما الغناء بصاحبته ، بعدما وصف فى الأول الديار ، وبينت الروابط اللفظية والمعنوية بين القسمين .

<u>وفى القسم الثالث</u> : (الأبيات ١٢ – ٢٢) انتقل الشاعر إلى الحديث عن المقصد الأهم من القصيدة الذى تخدمه كل مقاصدها ، وهو " التبشير بفتح مكة " ، ووصف حال المسلمين عندما منعوا زيارة البيت الحرام ، قبيل صلح الحديبية ، مع تهديد كفار قريش بقوة المسلمين وشجاعتهم .

<u>وفى القسم الرابع</u> : (الأبيات ٢٣ – ٣٣) انصرف حسان إلى الرد على هجاء أبى سُفْيانَ بنِ الحارِث ، وجعل من ذلك مظهرا من مظاهر قدرة شعراء المسلمين على هجاء من هجاهم وإلجامه ، وكشف عن اجتماع القوتين فى الأمة الإسلامية : قوة السلاح وقوة اللسان ، وبراعتها فى الحربين : الحرب بالسيف ، والحرب بالكلمة .

وبعد . فهذه محاولة للتذوق البلاغى لقصيدة من روائع شعر حسان ؛ فإن أكن قد وفقت فمن فضل الله ونعمته ، وإن كان من تقصير ، فمن العاجز الذليل ، وأسأل الله أن يجعل لكاتبه وقارئه ولوالدينا وللمسلمين أجمعين حظا من قول الرسول صلى الله عليه وسلم لحسان = حين أنشده من هذه القصيدة قوله مخاطبا أبا سفيان بن الحارث :

هَجَوْتَ مُحمدًا ، فَأَجَبْتُ عَنهُ ، وعِندَ اللهِ فى ذاكَ الجَزاءُ

فقال صلى الله عليه وسلم : (جزاؤك على الله الجنة يا حسان) = ومن قوله صلى الله عليه وسلم له حين أنشده :

فَإِنَّ أبى ووَالِدَهُ وعِرْضِى لعِرْضِ مُحمَّدٍ مِنْكُمْ وقَاءُ

فقال صلى الله عليه وسلم : (وَقَاكَ اللهُ – يا حسَّان – النَّارَ) .

وصلى الله تعالى وسلم وبارك على الحبيب الشفيع ، والسراج المنير ، سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

وكتبه

سلامه جمعه على داود

دسوق

فى يوم الأربعاء ١٩ من شوال ١٤٢٠ هـ

٢٦ يناير ٢٠٠٠ م .

حسان بن ثابت الأنصارى

(ت ٥٠ هـ / ٦٧٠ م)

أجمعت المصادر التى ترجمت له على أنه (هو حَسَّانُ بنُ ثابتِ بنِ المُنْذِرِ الأنصـارىُّ) ، ويُكنَى أبا الوليد ، وأبا الحُسَامِ . وأُمُّه الفُرَيْعَةُ من الخزرج . وهو جاهلىٌّ إسلامىٌّ متقدِّمُ الإسلام ... وكانت له ناصيةٌ يُسْدِلُها بين عينيه ، وكان يَضرِبُ بلسانه رَوْثَةَ أنفِه [١] من طُوله ويقـول : ما يَسُرُّنِى به مِقْوَلُ أحدٍ من العرب ، واللهِ لو وضعتُه على شَعَرٍ لحَلَقَه ، أو على صخرٍ لفَلَقَـه . وعاش فى الجاهلية ستين سنة ، وفى الإسلام ستين سنةً ، ومات فى خلافة معاويـةَ ، وعمـىَ فى آخر عمره) [٢]

قال ابنُ سَلاَّم (ت ٢٣١ هـ) : (وكان أبوه ثَابِتُ بنُ المُنْذِرِ بنِ حَرَام ، من سـادة قومه وأشرافهم) [٣] .

وعَدَّه ابنُ سَلاَّم أشعرَ شُعَراءِ القبائل ، قال : (أشعرهُمْ حَسَّانُ بنُ ثابتٍ. وهو كثـيرُ الشِّعْرِ جَيِّدُه ، وقد حُمِلَ عليه ما لم يُحْمَلْ على أَحَدٍ . لما تَعاضَهتْ و اسْتَبَّتْ قريش ، وضعـوا عليه أشعاراً كثيرةً لا تُنَقَّى) [٤] .

وجاء فى مجالس ثعلب (ت ٢٩١ هـ) : (قال زُبيرٌ : قال أبو غَزِيَّة : لحسَّان بـن ثابت مواضعُ : هو شاعرُ الأنصار ، وشاعرُ اليمن ، وشاعرُ أهل القُرى ، وأفضلُ ذلك كلّه هـو أنه شاعرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم غيرَ مُدَافَع) [٥] .

وفى صحيح الإمام مسلم عن عائشة رضى الله عنها (أن رسول الله صلـى الله عليـه وسلم قال : " اهجوا قريشاً ؛ فإنه أشدُّ عليها من رَشْقٍ بالنَّبْلِ " فأَرْسَلَ إلى ابن رَوَاحَةَ فقـال : " اهجهمْ " فهجاهم فلم يرضِ . فأَرسَلَ إلى كعبِ بن مَالكٍ . ثم أَرسَلَ إلى حسَّانَ بنِ ثَابتٍ فلمـا دخل عليه ، قال حسَّانُ : قد آنَ لكم أن تُرْسِلُوا إلى هذا الأسدِ الضَّارب بذَنَبِهِ ، ثم أَدْلَعَ لسـانه

---

(١) روثة أنفه طرفه .

(٢) الشعر والشعراء بن قتيبة ت أحمد محمد شاكر : جـ ١ ص ٣٠٥ ط دار المعارف . وينظر الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى : ٧ / ٨ ، ٩ ط دار الكتب العلمية .

(٣) طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى ت محمود شاكر : جـ ١ ص ٢١٥ مطبعة المدنى .

(٤) المصدر السابق وتعاضهت قريش : رمى بعضهم بعضا بالإفك والبهتان (عن هامش المحقق) .

(٥) مجالس ثعلب ت / عبد السلام هارون : جـ ٢ ص ٣٦١ ط دار المعارف ط رابعة .

فجعل يحركه ، فقال : والذى بعثك بالحق لأفْرِيَنَّهُم بلسانى فَرْىَ الأديم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تَعْجَلْ ، فإنَّ أبا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيشٍ بأنسابها ، وإنَّ لى فيهم نَسَبا ، حتى يُلَخِّص لك نَسَبى " . فأتاه حسان ثم رَجَع فقال : يا رسول الله ، قد لَخَّصَ لى نَسَبَك . والذى بعثك بالحق ؛ لأَسُلَّنَّكَ منهم كما تُسَلُّ الشَّعْرَةُ من العَجين . قالت عائشةُ : فسمعْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان :" إنَّ رُوحَ القُدُسِ لا يَزالُ يُؤيِّدُكَ ،ما نافَحْتَ عن الله ورسوله " . وقالت : سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : " هجاهم حسان فشفى واشتفى) [1] .

ومنزلة حسان الشعرية ومكانته العالية بين الشعراء كما أوضحتها النصوص السابقة عن ابن قتيبه وابن سلام وأبى العباس ثعلب ، وكما أوضحتها مصادر كتب الأدب العربى ، وأيدتها أشعاره ، وأيدها هذا البحث من خلال تلك القصيدة – كل هذا يدعونا إلى رفض ما قاله بروكلمان عن شعره ، قال : (وأكثر شعر حسان قريب الألفاظ إلى حد الابتذال ، ولا يصل إلى مستوى حد رفيع ، إنما يرجع فضل انتشاره والتعلق به فى الأزمنة المتأخرة إلى غرضه العظيم لأهميته وهو مدح النبى صلى الله عليه وسلم) [2] .

كما كَثُرَ فى ترجمة بعض المصادر لحسان ترديد أنه – رضى الله عنه – كان جبانا ، قال ابن قتيبة : " لم يشهد مع النبى صلى الله عليه وسلم مشهدا ؛ لأنه كان جبانا " [3] ، وشاعت هذه المقولة فى الكتب ، والحقيقة أن الجبن لم يكن طبعا فى حسان ، إلا أنه أُصيب بعِلَّة أقعدته عن القتال ، " روى الزُّبيرُ بنُ بَكَّارٍ حديث الحِصْنِ وفيه أن حسان ضَرَب وَتَداً من ناحية الأُطُمِ ، فكان إذا حَمَلَ أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم على المشركين حَمَل على الوَتَدِ فضربه بالسيف ، وإذا أقبل المشركون انحاز عن الوتد حتى كأنه يقاتل قِرْناً يَتَشَبَّه بالمجاهدين كأنه يجاهد ، ولما ذكروا ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم ضَحِكَ حتى بَدَتْ نَوَاجِذُه ، وما رأيته ضَحِكَ من شئ قَطُّ ضَحِكَهُ منه ، ولم يكن الجُبْنُ من عادة حسان كما قال ابنُ الكَلْبىِّ ، بل كان لَسِناً شُجَاعاً ، فأصابته عِلَّةٌ أحدثت فيه الجبن ، فكان بعد ذلك لا يَقْدِرُ أن ينظر إلى قتالٍ ولا شَهِدَه " [4] وهذا ما أطمئن إليه .

---

(1) صحيح مسلم ت محمد فؤاد عبد الباقى :جـ ٤ ص ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ .ط دار إحياء التراث العربى ط ثانية ١٩٧٢ م .

(2) تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان : ١ / ١٥٣ ط دار المعارف ط خامسة .

(3) الشعر والشعراء : ١ / ٣٠٥ .

(4) تهذيب تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر : جـ ٤ ص ١٤٣ ط دار المسيرة بيروت ط ثانية ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .

بين يدى القصيدة

شاع فى بعض نشرات الديوان وفى بعض الدراسات الأدبية التى قامت على خدمة هذه القصيدة أن حسان – رضى الله عنه – قالها فى " فتح مكة " ، وأقدم من قال ذلـــك – فيمـــا وقفت عليه ابنُ هِشَامٍ صاحب السيرة (ت ٢١٣ هـــ) قال : (وكان مما قيل من الشـــعر فى يوم الفتح قول حسان ابن ثابت الأنصارى :

عَفَتْ ذاتُ الأَصَابِعِ فَالجِواءُ ... إلى عَذْرَاءَ مَنْزِلُها خَلاَءُ

.... الأبيات) [١]

وبعدما أورد ابن هشام القصيدة قال : (قالها حسان يوم الفتح) [٢] .

وسار بعض الدارسين على وفق هذه المقولة ، موقنا بأن القصيدة قالها الشـــاعر يـــوم الفتح ، ومن هؤلاء الدكتورة عائشة عبد الرحمن " بنت الشاطئ " قالت : (الأبيات من هَمْزِيته التى قالها يمدح الرسول صلى الله عليه وسلم ويهجو المشركين يوم فتح مكة ... وقد أراد السيد نصر الله أن يأتى هنا بغير ما قلته فتورّط وقرر أن حسان قال هذا فى الجاهلية ، مع أن الســـياق صريح النص على إسلامية القصيدة ، فضلا عن إجماع المصادر التاريخية !) [٣] .

والأصل فى ذلك كله مقولة ابن هشام ، وقد داخلنى الشك فيـــها لكلمـــة أوردهـــا الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى فى هامش تحقيقه لصحيح مسلم قال : (وقال الآبىُّ : ظاهر هذا ، كما قال ابن هشام أنه كان قبل الفتح فى عُمْرَةِ الحُدَيْبِيَةِ حين صُدَّ عن البيت) [٤] ، وما قالـــه الآبىُّ هو ما عليه جمهرة كبيرة من العلماء الذين حققوا القول فى مناسبة هذه القصيدة ، وهو ما صرح به ابن القيم فى قوله : (وكان حسان بن ثابت رضى الله عنه قد قال فى عُمْرَةِ الحُدَيْبِيَةِ :

عَفَتْ ذاتُ الأَصَابِعِ فَالجِواءُ ... إلى عَذْرَاءَ مَنْزِلُها خَلاَءُ

.... (وأورد القصيدة) [٥]

---

(١) السيرة النبوية مع الروض الأنف : ٤ / ١٠٦ . ط دار المعرفة ١٣٩٨ هـــ / ١٩٧٨ م .

(٢) السابق : ٤ / ١٠٧ .

(٣) هامش تحقيق الدكتورة بنت الشاطئ لرسالة الغفران ص ٢٣٤ ط دار المعارف .

(٤) هامش تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى لصحيح مسلم : جـ٤ ص ١٩٣٨ ط دار إحياء التراث العربى . (والآبى : منصور بـــن الحسين الرازى ، أبو سعد ، وزير ، من العلماء بالأدب والتاريخ . إمامى ، من أهل الرى . نسبته إلى " آبة " من قرى ســـاوة . ولى أعمالاً جليلة ، وصحب الصاحب بن عباد ، واستوزره مجد الدولة رستم بن فخر الدولة البويهى ، صاحب الرى ، له مصنفات منها " نثر الدرر " ، و " نزهة الأديب " ، و " التاريخ " . قال الثعالبى : " لم يؤلّف مثله " . توفى عام ٤٢١ هـــ) [الأعلام للزركلى : ٧ / ٢٩٨ بتصرف] .

(٥) زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم : ٢ / ١٨٦ ط . الحلبى .

فهذا النص صريح فى تحديد مناسبة القصيدة ويؤكد ما حكاه الآبى عن ابن هشام ، ويغرس الشك فى صحة نقل النص فى السيرة النبوية .

وسارت بعض نشرات الديوان على ما حققه جمهرة من العلماء فى أن هذه القصيدة قالها حسان قُبيلَ صُلْح الحُدَيبية [1] وسار عليه كثير من الدارسين ، قال الدكتور محمد طاهر درويش : (ومما يدل على أن هذه القصيدة قيلت قبل الفتح ما فيها من هجاء أبي سفيان بن الحارث وقد أسلم والرسولِ فى طريقه بين مكة والمدينة ، قبل أن يتم الفتح ، فلو قيلت بعد الفتح لما هجاه فيها لأنه كان قد أسلم عندئذ ، وأنه ليس فيها وصف لما حدث فى الفتح على عادة حسان حين يَقُصُّ أنباء الغزَوات بل فيها تهديد بالغزو وتفاؤل بالنصر ، وما كان من سؤال الرسول قبل أن يدخل مكة عما قاله حسان فى هذه القصيدة من كيفية دخول المسلمين مكة ، ولأن حسان لم يرد له ذكر – كعادته – بين السائرين إلى مكة ، وأخيرا لما نص عليه البَيْهَقِيُّ فى دلائل النبوة من قوله :وقال حسان بن ثابت مُخْرَجَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة) [2] .

وعلى هذا فقد أنشأ حسان هذه القصيدة قبيل " صُلْح الحُدَيبية " عندما مُنِعَ المسلمون من دخول مكة لأداء شَعِيرة العُمرة فأُحْصِرُوا فى الحديبية ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ذا النورين سيدنا عثمان بن عفان – رضى الله عنه – لِيُعْلِمَ قريشا أن الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين ما أتوا لقتال ، وأنما جاءوا للعمرة ، فحَبَست قريش سيدنا عثمان ، وأُشِيعَ بين المسلمين أنه قُتِل ، فبايع المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم " بَيعَة الرِّضْوَان " ، فى ظلال هذه الملابسات المثيرة ، والمقام الغاضب والثورة العارمة ، أنشأ سيدنا حسان هذه القصيدة مبشرا بفتح مكة ومهددا قريشا بالحرب إن لم يخلوا بين المسلمين وبين الاعتمار ، وهذا ما صرح به فى قوله يخاطب قريشا :

عَدِمنا خَيلَنا إنْ لم تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ ، مَوْعِدُها كَدَاءُ
يُبارِين الأَسِنَّةَ مُصْغِياتٍ ... على أكتافِها الأَسَلُ الظِّمَاءُ

([1]) ينظر ديوان حسان بتحقيق د / سيد حنفى حسنين : ص ٧١ ، ونشرة دار الكتب العلمية بشرح الأستاذ " عبدأ . مهنا " ص : ١٧ ، ونشرة دار ابن خلدون ص ٧ .

([2]) حسان بن ثابت د / محمد طاهر درويش : ص ١٩٤ ط دار المعارف ط ثانية . وينظر دراسات أدبية د / عبد المنعم يوسف : ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

نَظَلُّ جِيادُنا مُتَمَطِّـراتٍ ... تُلَطِّمُهُـنَّ بالخُمُـرِ النِّسـاءُ
فإمَّا تُعْرِضُوا عنا اعتمرْنا ... وكانَ الفَتْحُ ، وانكشفَ الغِطَاءُ
وإلاَّ فاصْبِرُوا لجِلَادِ يَـوْمٍ ... يُعِزُّ اللـهُ فيـه مَـنْ يَشـاءُ

فخيرهم حسان بين أمرين : إما أن يعرضوا عن المسلمين ليؤدوا العمـرة ، وإمـا أن يصبروا لجلاد يوم و حرب شعواء يعز الله فيها المسلمين ... وأبى المشركون أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عامه هذا على أن يعود فى العام المقبل ، وكان صلح الحديبية .

والأبيات التى أنشأها حسان لتصوير هذا المقام ، وهى الأبيات (١٢ - ٣٣) أبيـات حماسية شديدة ، ثائرة ، تصور روح الثورة والغضب التى ملأت قلوب المسلمين فى هذا المقـام ، هى أبيات تهدد بقوة المسلمين وشجاعتهم ، وتنذر الكفار وتتوعدهم .

أما مقدمة القصيدة وهى الأبيات (١ - ١١) فهى من شعر حسان فى الجاهليـة ، لم ينشئها فى المقام السابق ، إنما استدعاها وتغنى بها ثم بنى عليها أبياته فى التبشير بفتـح مكـة ، وكان حسان بارعا حين استدعى هذه المقدمة لما فيها من بكاء على أطلال قومـه ومُلكـهم فى ديار بنى الحَسْحَاس ، وما فيها من هَمٍّ مؤرق لطيف صاحبته " شَعْثَاءَ " يغشاه كلَّ ليلة ، فلمـا أثار هذه الذكريات الحزينة الشاجية ، وذكر ذلك الطيف المؤرق أضاف إليهما وصفَ ما هـم فيه من حزن وأرق وثورة غاضبة ، فأحكم بذلك وَحْدة الجو النفسى فى القصيدة ، كما أحسـن التخلص والانتقال إلى الغرض حين مهد له بقوله عن الخمر :

ونَشْرَبُها فتتْرُكنا مُلُوكاً ... وأسداً ما يُنَهْنِهُنا اللِّقَاءُ

فذكر مُلكا وشجاعة وحربا تصطنعها الخمر فى رأس شاربها ، ونقلنا منـها إلى فتـح مرتقب وشجاعة وحرب حقيقيتيـن فى قوله :

عَدِمنا خَيْلَنا إن لم تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ ، مَوعِدُها كَدَاءُ

وقد اتخذ بعض الدارسين من إضافة هذه المقدمة الجاهلية إلى القصيدة ذريعة للطعـن فى الرواة عامة وفى رواة القصيدة خاصة ، وجعل هذه القصيدة دليلا على عبث الـرواة بالشـعر وإفسادهم له ، كما اتخذوا منها دليلا على قوة شعر حسان فى الجاهليـة ، وضعفـه ولينـه فى الإسلام ، منطلقين من مقولة الأصمعى السابق ذكرها . وعُنيت هذه الدراسة بتحرير القـول فى ذلك وغيره ؛ راجية من الله الهداية والتوفيق .

والقصيدة من أشهر قصائد حسان ، ولذا أوردها كثير من المصـــادر ، وجـاءت فى صحيح الإمام مسلم [1] ، وفيها من أبياته الجياد أنصف بيت قالته العرب ، وهو قوله :

أتهْجُوهُ ولستَ له بِكُفءٍ ؟ فَشرُّكما لخيرِكُما الفِدَاءُ

وأَجْوَدُ ما قالته العرب فى وصف الخمر ، وهو قوله :

نُوَلِّيها المَلامَةَ إنْ أَلَمنا إذا ما كان مَغْثٌ أو لِحاءُ
ونشربُها فتتركُنا مُلُوكاً وأسْداً ما يُنَهْنِهُنا اللِّقَاءُ

فضلا عما فيها من الأبيات الجياد ، و المعانى الحسان ، على نحو ما يأتى تفصيله فى الدراســة إن شاء الله .

القصيدة

(١)

١ - عَفَــتْ ذاتُ الأَصَابِعِ فَالجِواءُ إلــى عَـذْرَاءَ مَنْزِلُــها خَــلاَءُ
٢ - دِيارٌ من بنى الحَسْحَاسِ ، قفرٌ ، تُعَفِّيـها الرَّوَامِــسُ والسَّــماءُ
٣ - وكانت لا يزالُ بهــا أنيــسٌ ، خِــلالَ مُرُوجِها نَعَمٌ وشَــاءُ

(٢)

٤ - فـدَعْ هـذا ، ولكِـنْ مــا لِـطَيفٍ يُؤَرِّقُنــى إذا ذَهَــب العِشــاءُ
٥ - لشَعْثاء التى قــد تيمَّتْــهُ ، فليس لقَلبِــه منـها شِـفاءُ؟
٦ - كـأنَّ خَبيئـةً مـن بَيــتِ رَاسٍ يكـونُ مِزَاجَـهَا عَسَـلٌ ومَــاءُ
٧ - علـى أنيابِـها ، أو طَعْـمَ غَـضٍّ مـن التُّفَّـاحِ هَصَّــرَهُ اجْتِنَـاءُ
٨ - علـى فِيـها ، إذا ما الليـلُ قَلَّـت كواكبُـه ، ومـالَ بـها الغِطـاءُ
٩ - إذا مـا الأَشْرِباتُ ذُكِـرْنَ يَومـاً ، فـهُنَّ لطَيِّـبِ الـرَّاحِ الفِــدَاءُ
١٠ - نُوَلِّيـها المَلامَــةَ - إنْ أَلَمنــا - إذا مــا كــان مَغْــثٌ أو لِحــاءُ
١١ - ونشربُهــا فتتــرُكُنا مُلُوكاً ، وأسْــداً ما يُنَهْـنِهُنا اللِّقَاءُ

([1]) ترد هذه المصادر بالتفصيل عند الحديث عن روايات أبيات القصيدة ، ولم أذكرها هنا مخافة التكرار .

(٣)

١٢ - عَدِمنـــا خَيْلَنــا إن لم تَرَوْهَـــا ... تُثِـيرُ النَّقْـعَ ، مَوعِدُهـا كَـــدَاءُ

١٣ - يُبـارِين الأَسِـــنَّةَ مُصْغِيـــاتٍ ... علـى أكتافهـــا الأَسَـلُ الظِّمَـاءُ

١٤ - تَظَـــلُّ جِيادُنــا مُتَمَطِّـــراتٍ ... تُلَطِّمُهُـــنَّ بالخُمُـــرِ النِّســاءُ

١٥ - فإمَّـا تُعْرِضُــوا عنـــا اعتمرْنــا ... وكان الفَتـحُ ، وانكشـفَ الغِطَـاءُ

١٦ - وإلاَّ فـاصْبِرُوا لجِـلَادِ يَـــوْمٍ ... يُعِزُّ اللـــهُ فيـه مَـــنْ يَشـــاءُ

١٧ - وجِـبريلٌ رســــولُ الله فينـا ، ... ورُوحُ القُــدْسِ ، ليس لـه كِفَـاءُ

١٨ - وقال الله ، قـد أرسـلتُ عَـبداً ... يقـولُ الحَـــقَّ إن نَفَعَ البَــلاءُ

١٩ - شَـهِدتُ بـه ، وقَومـى صدِّقُـوه ، ... فقُلْتم ، لا نُجِيـــبُ ، ولا نَشــاءُ

٢٠ - وقال الله ، قد يسـرتُ جنـدا ، ... هُمُ الأنصارُ ، عُرْضَتُهـــا اللِّقـاءُ

٢١ - لنا فى كل يـــومٍ مـــن مَعَدٌّ ... قِتالٌ ، أو سِبَابٌ ، أو هِجَـــاءُ

٢٢ - فنُحْكِمُ بالقَوافى مَنْ هجانــــا ، ... ونَضرِبُ حين تَختلِطُ الدِّمـــــاءُ

(٤)

٢٣ - ألا ، أَبْلِغْ أبـــا سُفْيَانَ عَــنِّى ... مُغَلْغَلَـةً ، فقـد بَـرِحَ الخَفـاءُ

٢٤ - بأن سُيوفَنا تركتـــكَ عَبْداً ، ... وعبـدُ الـــدَّار ســادَتُها الإمَـــاءُ

٢٥ - هَجَوتَ مُحمَّداً ، فأجَبتُ عنه ، ... وعِنــدَ اللهِ فـــى ذاكَ الجَـــزاءُ

٢٦ - أتَـهْجُوهُ ولســتَ لـه بِكُـفءٍ ؟ ... فَشَـــرُّكما لخيرِكُمـــا الفِـــدَاءُ!

٢٧ - هَجَوتَ مباركا ، برا ، حنيفـــاً ، ... أمِـينَ اللهِ ، شِـيمتهُ الوفَـــاءُ؟

٢٨ - أمَنْ يَهجُو رسـولَ الله منكـم ... ويَمدَحُـه وينصُـــرُه سَــــواءُ؟

٢٩ - فـإنَّ أبـى ووَالِـدَهُ وعِرْضِـى ... لعِـرْضِ مُحمَّـدٍ مِنْكُـمْ وِقَـاءُ

٣٠ - فإمَّا تَثْقَفَـــنَّ بنُـــو لُــــؤَىٍّ ... جُذَيمـةَ ، إنَّ قَتْلَـهُمُ شِـفَاءُ!

٣١ - وحِلْفُ الحــارثِ بن أبى ضِرارٍ ... وحِلْـفُ قُرَيظَـةٍ فينـا سَـوَاءُ

٣٢ - أولئكَ مَعْشَرٌ نَصَـــرُوا علينا ، ... ففـى أظفارنـا مِنـهُمْ دِمـاءُ

٣٣ - لِسانى صارِمٌ ، لا عَيبَ فيـــه ، ... وبَـــحْرِى لا تُكَـــدِّرُه الدِّلاءُ !

القسم الأول

١ - عَفَــــتْ ذاتُ الأصَابعِ فَالجِواءُ إلـــى عَذْراءَ مَنْزِلُها خَـلاءُ
٢ - دِيارٌ من بني الحَسْحَاسِ ، قفرٌ ، تُعفّيها الرَّوامِسُ والسَّـماءُ
٣ - وكانت لا يزالُ بهــا أنيـــسٌ ، خِـلالَ مُرُوجِها نَعَمٌ وشَاءُ

هذا هو القسم الأول من القصيدة ، وهو مقدمتها التي افتتحها بها حسان في وصف الأطلال ، وافتتح وصفه بكلمة " عَفَت " التي تنبئ من البداية بأن نفس الشاعر ملأى بالحزن والشعور بالضياع والفقد ؛ ولذا أتى في مطلع القصيدة بهذه الكلمة الموحية المثيرة .

ولطالما افتتح الشعراء قصائدهم بالحديث عن أطلال الديار التي لنفوسهم بها فضل تعلق ، ولقلوبهم إليها حنين وأشواق ، فافتتحوا بندائها ، كما في قول لقيط بن يعمر :

يا دَارَ عَمْرَةَ من مُحْتَلِّها الجَرَعا هاجَتْ لِيَ الهَمَّ والأحزانَ والوَجعا

وقول الشاعر :

يا دَارَ مَيَّةَ بالعَلياءِ فالسَّنَــدِ أقْوَتْ وطَالَ عليها سالِفُ الأمَــدِ

أو بالأمر بالوقوف بها كما في قول امرئ القيس في مطلع معلقته :

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكرى حَبيبٍ ومَنزلِ بِسقْطِ اللّوى بينَ الدَّخُولِ فحَوْمَلِ

وهذه الافتتاحات كلها تثير كوامن الشعراء وأشجانهم حين يذكرون أيامهم وذكرياتهم ، وما كان لهم من أوقات سعيدة اختلسوها من الدهر في رحاب هذه الأطلال مع من تهوى قلوبهم .

إلا أن في افتتاح حسان بكلمة " عفت " مزيدا من الإثارة والشجن ؛ لأنه يرمى بها في أنف القصيد ، وكأنه يفتتحه بالحدث الجليل الذى أدمى قلبه وأثار أحزانه وأشـــواقه . ومن القصائد التي افتتحت بهذه الكلمة المثيرة قصيدة زهير بن أبي سلمى :

عَفَا من آلِ فاطِمةَ الجِــوَاءُ ، فَيُمْنٌ ، فالقَوَادِمُ ، فالحِساءُ [1]

وقصيدة الشماخ بن ضرار :

عَفَا بَطْنُ قَوٍ مِن سُلَيمَى ، فعَالِزُ ، فذاتُ الغَضَاءِ فالمُشْرِفَاتُ النواشز [2]

---

(1) ديوان زهير بن أبي سلمى بشرح أبي العباس ثعلب : ص٥٢ ت د/ فخر الدين قباوة .ط /دار الآفاق الجديدة ١٤٠٢ هـ / ١٩٨٢ م .

(2) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني : ص ١٧٣ ت / صلاح الدين الهادي . ط / دار المعارف .

وهذه الأطلال التى أثار عفاؤها حسان هى (ذات الأصابع) و (الجواء) و (عذراء) ، وهى مواضع ثلاثة كان للشاعر فيها ذكريات ، و ليست هى كل المواضع التى أصابها العفاء ، بل هناك مواضع أخرى ؛ لأن الشاعر استخدم " الفاء " العاطفة التى تدل على الترتيب والتعقب حين عطف (الجواء) على (ذات الأصابع) ، أى أن الجواء هو الموضع الذى يلى ذات الأصابع فى العفاء مباشرة وبدون فاصل ، ولم يمض حسان على هذا المنهج فى عطف المواضع التى أصابها العفاء ، بل اختصرها وطوى ذكر كثير منها وراء حرف الجر الدال على الغاية (إلى) فى قوله (إلى عذارء) ، ولم يسلك مسلك التفصيل الذى سلكه امرؤ القيس فى مطلع معلقته حين كرر استخدام (الفاء) ، ورتب بها بعض المواضع على بعض فقال :

قِفَا نَبْكِ من ذِكرَى حَبيبٍ ومَنـزِلِ   بِسَقْطِ اللِّوَى بين الدَّخولِ ، فحَوْمَلِ
فتُوضِحَ ، فالمقراة ، لم يعف رسمها   لما نسجتها من جنوب وشمـــال [1]

فكرر العطف بالفاء ثلاث مرات فى قوله (فحومل ، فتوضح ، فالمقراة) . ولا شك فى أن بين المسلكين فرقا ، فامرؤ القيس أحصى هذه المواضع وعدها (سقط اللوى – الدخول – حومل – توضح – المقراة) وبذا لم يترك مجالا لتوهم الزيادة عليها ؛ لأنه أحصى ...... وسيدنا حسان – رضى الله عنه – لم يحص المواضع ، بل ذكر منها ثلاثة وترك الباقى لكثرته ؛ ومن ثم فالمواضع التى فى بيت حسان أكثر من التى فى بيتى امرئ القيس .

وثمة فرق أهم فى جوهر الشعر ، وهو أن حسان كانت نفسه ممتلئة لما رآه من عفاء هذه المواضع وانطماس آثارها وخلاء منازلها ؛ ولذا اقتصر على ذكر ثلاثة مواضع فقط ؛ لشدة ما رأى وهول ما وجد ، وأتى بحرف الجر (إلى) للدلالة على كثرة المواضع العافية وضيق النفس عن حصرها ، وصعوبة هذا الحصر والاستقصاء ، لو أنه أراده .

وامرؤ القيس لم يكن فى موقف حسان ؛ لأن حسان عفت دياره . أما ديار من أحبها امرؤ القيس ووقف بها واستوقف " لم يعف رسمها " ، أى : لم يدرس ، بل لا تزال رسومها ظاهرة ، وآثارها قائمة ، ولذا كانت نفسه أهدأ من نفس حسان ، فأخذ يحصى المواضع ويعدها موضعا موضعا ...

---

(1) ديوان امرئ القيس بشرح السندوبى ص ١٤٣ ط المكتبة الثقافية ط سابعة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ .

ولما كان عفاء الديار هو الحدث الجليل الذى أثار نفس حسان ودعاه إلى تسجيله فى أول نغمة للقصيدة – أكد حسان هذا الحدث وكرره وذكر النفس به كثيرا ، واستنطق به عواطفه ليستخرج مكنوناتها ودفائنها ، فكرره فى البيتين الأول والثانى أربع مرات : حيث بدأ به البيت الأول وختمه (عفت ... منزلها خلاء) ، وردده مرتين فى البيت الثانى فى قوله : (قفر – تعفيها الروامس والسماء) .

ولكن حسان أضاف بالتكرار معانى جديدة ، ففى البيت الأول بين التكرار صورة هذا العفاء الذى شمل الديار فقال (منزلها خلاء) أى : ليس فيها أحد ، ولا شئ فيها [1] ، وفى قوله (قفر) أضاف أن هذه المنازل صارت " مَفَازةً لانبات بها ولا ماء " [2] ، ثم كشف التكرار الأخير فى قوله (تعفيها الرَّوامس والسماء) عن أسباب هذا العفاء وعوامله التى هى معاول تهدم ديار قومه وتهدم نفس الشاعر معها ، وكأن فى هذه الجملة تفصيلا لما أجمل فى قوله (عفت) ؛ وبهذا يرسم التكرار صورا نامية لتلك الأطلال تتدرج المعانى فى الكشف عنها وإماطة اللثام عن حقيقتها شيئا فشيئا .. ولما كانت المرحلة الأخيرة للتكرار هى (تعفيها الروامس...) وهى عين اللفظ الأول (عفت) آثر حسان تغيير صيغة الفعل من الماضى إلى المضارع ومن التخفيف إلى التضعيف ليدل على تجدد هذا العفاء والمبالغة فى وقوعه وتأثيره .

وأفرد حسان " منزلها " فى البيت الأول ، ومعناه الجمع ؛ (لأن المفرد المضاف إلى الجمع يعم) [3] ؛ وفيه إشارة إلى أن هذه المنازل على تعددها وكثرتها كانت كالمنزل الواحد فى اجتماع كلمتها واتحادها وتواد أهلها ، مع سعة سلطانهم واتساع ملكهم ، وها هى خالية لا أحد فيها ، وهذا مما يقوى شعور الشاعر بالفقد والحرمان ؛ لأن النعمة كلما عظمت كان سلبها أشد على النفس وأعظم .

وفى التعبير بالمصدر " خلاء " دون الفاعل " خال " دلالة على المبالغة فى خلو هذه المنازل من أهلها وأنها ليس فيها شئ ألبته .

---

(1) لسان العرب لابن منظور : (خ ل ا) ط . دار المعارف .

(2) السابق : (ق ف ر) .

(3) دراسات أدبية د / عبد المنعم يوسف : ص ١٠٦ طبع عام ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م .

وفى الإخبار عن هذه المنازل بأنها " ديار من بنى الحسحاس " إيضاح وكشف عن أصحاب هذه المنازل ، فهى من ديار بنى الحسحاس وهذا تدرج فى الكشف عن هذه المنازل .

واختار حسان من أوصاف ملوك الغساسنة أنهم من " بنى الحسحاس " لما فى هذا اللفظ من معنى الجود الذى كانوا يولون حسان منه نصيبا وافرا ، (قال الجَوْهَرِىُّ : وربما سموا الرجل الجَوَادَ حَسْحَاساً) [١] ، وقد وصف حسان مكانته عند هؤلاء الملوك فقال :

قَدْ أرَانِى هُنَاكَ حَقَّ مَكِينٍ ، عِنْدَ ذِى التَّاجِ مَقْعَدِى ومَكَانِى [٢]

وظلت عطاياهم تصل إليه حتى بعد انقطاعه عنهم ، فقد ورد أن (جَبَلَةَ ابنَ الأَيْهَمَ لما سار إلى بلاد الروم وَرَدَ على ملك الروم رسولُ معاوية ، فسأله جَبَلَةَ عن حسَّانٍ ، فقال : شَيخٌ كبيرٌ قد عَمِىَ ، فدفع إليه ألفَ دينار ، وقال : ادفعْها إلى حسَّانٍ . قال : فلما قَدِمتُ المدينةَ ودخلت مسجدَ الرسول صلى الله عليه وسلم رأيتُ حسان بنَ ثابتٍ فقلت له : صديقُك جَبَلَةُ يَقْرَأُ عليك السلام ، قال : فهاتِ ما معكَ ، فقلت : يا أبا الوليد ، كيف علمت ؟ قال : ما جاءتنى منه رسالةٌ قَطُّ إلا ومعها شئ) [٣] . وفى اختياره بنى الحسحاس - أيضا - فخر من الشاعر بقومه وبما وصلوا إليه من عظمة الملك وسعة الديار ؛ لأن الحسحاس هو ابن مالك بن عدى بن النجار ، فبنو الحسحاس فرع من بنى النجار من الخزرج الأنصار ، قبيلة حسان ، فهذه الديار التى يبكيها ديار قومه ؛ لأن أهلها الذين خلت منهم هم أهله وقرابته ؛ لأنهم نجاريون خزرجيون مثله ، وهذا مما يزيد حزنه ويُلْهِبُ مشاعره [٤] .

وأخبر حسان عن هذه الديار - وهى جمع - بالمفرد (قفر) ومعناه : قفار ؛ للدلالة على المبالغة فى الاتصاف بهذه الصفة ، وكأن القفر كله تجسد فى هذه الديار وحاق بها ... وهذا امتداد للغرض من الإخبار بالمصدر بدلا من اسم الفاعل فى قوله آنفا (منزلها خلاء) .

وهكذا نرى نمو المعنى وتدرجه ، وكيف انتقل الشاعر من عفاء الديار إلى خلوها من أهلها ، إلى كونها قفرا ، لاماء فيها ولا نبات ، وهو امتداد فى الإبانة عن مراحل الدمار الذى

---

(١) لسان العرب : (ح س س) .

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبه : ١ / ٣٠٦ ت . أحمد شاكر ط / دار المعارف

(٣) المصدر السابق ، والخبر فى الأغانى : ١٥ / ١٦٩ ت عبد السلام هارون ط دار الكتب .

(٤) ينظر ديوان حسان : ص ٧١ والشعراء المخضرمون : ص ٢٤١ ودراسات أدبية : ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

حول هذه الديار العظيمة والملك الواسع إلى أطلال بالية يبكيها الشـــاعر . وصـاحب هـذا الامتدادَ النامِيَ نُموٌّ فى التعبير باختيار الصيغ الدالة على المبالغة فى رســم الصــورة ، فاختــار المصدر (خلاء) وأتبعه باختيار المفرد (قفر) الذى هو أبلغ من الجمع (قفار) ، وهذا دليـــل على عمق إحساس الشاعر بالمعنى وانفعاله به .

والرَّوَامِسُ : من (رَمَسَ الشئَ يَرمُسُه : طَمَسَ أثَره ... ودَفَنه وسَوَّى عليــه الأرضَ . وكلُّ ما هِيلَ عليه التراب فقد رُمِسَ ... والرَّوَامِسُ : الرياحُ التى تُثِيرُ الترابَ وتَدْفِنُ الآثار) [١] . وقد أجاد حسان فى اختيار هذه الكلمة لما فيها من دلالة على طمس الديـــار ومحـــو آثارهـــا ودفنها فى التراب ، فلم يعد لها وجود ولا أثر ، وصارت خبرا بعد عين ، وكأن الرياح صيرتهـــا قبورا ، ودفنت ما بها من معالم الملك والحضارة . وفِعْلُ الرياحِ وأثُرها فى طمس معـــالم الديــار والأمم عبر القرون لاينكر .

والمراد بـــ " السماء " فى قوله (تعفيها الروامس والسماء) : المطر ، وهو مجاز مرسـل علاقته المجاورة ، فلما كان المطر مجاورا للسماء أُطلِق عليه " السماء " ، وهذا المجاز يصور ضربا من شجاعة اللغة وكيف (يتزحزح اللفظ قليلا من موضع إلى موضع له بالأول علاقة اقــتران ومجاورة) [٢] ، وكثر تداول هذا المجاز فى اللغة كما فى قول الشاعر :

إذا نَزلَ السَّماءُ بأرضِ قَـــومٍ   رَعَينــــاهُ وإنْ كانوا غِضَابــــا

وقول زهير (ت ١٣ هــ) :

فذُو هاشٍ ، فِميثُ عُرَيتنـــاتٍ ،   عَفَتْها الريحُ - بعدَك - والسَّماءُ [٣]

وقول الشاعر :

أهَاجَكَ رَبْعٌ دَارسُ الرَّسْمِ باللِّوَى   لأَسْمَاءَ عَفَّى آيَهُ المُورُ والقَطْـــرُ [٤]

---

(١) لسان العرب : (ر م س) .

(٢) التصوير البيانى د / محمد أبو موسى : ص ٣٥٦ نشر مكتبة وهبة .

(٣) قال ثعلب : " ذو هَاش وعُرَيتنات : أرضان . وعفتها : درستها . وميثٌ : جمع مَيْثاء ، إذا كان مَسِيلُ الماء مثلَ نصــف الوادى أو ثلثِه ، فهى مَيْثاءُ ، ويقال لمجرى الماء إلى الوادى إذا كان صغيرا : شُعْبَةٌ ، ثم تَلْعَةٌ ، ثم مَيْثاءٌ) : شرح شعر زهير لأبى العباس ثعلب : ص ٥٣ .

(٤) لسان العرب : (ع ف ا) .

وهذا المعنى الذى توارد عليه الشعراء تختلف صورته قوة وضعفا ، فقول زهير (عفتها الريح - بعدك - والسماء) ليس فى قوة قول حسان (تعفيها الرواسم والسماء) لما فى الرواسم من دلالة على الطمس والدفن ، فضلا عن شدة جرس الكلمة وقوة وقعها على السمع ، وإذا كان لزهير فضل السبق إلى المعنى فلحسان فضل تجويده وتعميقه ، وكلمة الشاعر الوارد ذكره فى " اللسان " :(عفى آيه المور والقطر) فوق كلمة زهير ودون كلمة حسان ، أما كونها فوق كلمة زهير فلما فى لفظ " المور " من الحركة والاضطراب والتقلب ، وليس هذا فى لفظ " الريح " ، فضلا عما فى افتتاح هذا البيت بتلك القوة المتمثلة فى قوله : (أهاجكَ رَبْعٌ دارسُ الرسم باللِّوى لأسماء) ، فهذه " الإهاجة " التى استولت على قلب الشاعر يلائمها كل الملاءمة التعبير عن الريح بالمور ؛ ليتلاقى اضطراب النفس وشدة حركتها وموارنها بموران الريح واضطرابها . وهذا لا نجده فى بيت زهير .

وأما كونها دون كلمة حسان ، فلأجل لفظى " الرواسم والسماء " وقوتهما عن لفظى " المُور والقَطْر " ، فالتعبير بـ " المور " مع ما فيه من اضطراب وحركة ليس فيه ما فى " الرواسم " من الدلالة على طمس الديار وصيرورتها قبورا . والتعبير عن المطر بـ " القطر " - من قطر الماء : وهو إسالته قطرة إثر قطرة - ليس فيه من القوة والعموم ما فى التعبير عنه بـ " السماء " ؛ ولذا كانت كلمة هذا الشاعر دون كلمة حسان .

وفى الذكر الحكيم : (وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِدْرَارًا) [1] ، (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَارًا) [2] ، وفى هذا المجاز مبالغة فى التصوير ، حيث يخيل أن المطر لشدته وعمومه يكاد يمحو من الذهن صورة أن يكون مطرا نازلا من السماء ، لينتقل إلى أن السماء ذاتها صارت مطرا ، فإذا نظر الناظر لا يرى إلا سماء ممطرة .

وقد بنيت هذه التراكيب (تعفيها الرواسم والسماء - عفى آية المور والقطر - عفتها الريح بعدك والسماء) على مجاز عقلى أسند فيه الفعل " عفا " إلى سببيه المؤثرين " الريح والمطر " ؛ لأنهما أهم العوامل التى أصابت الديار بالعفاء وطمست معالمها .

---

(1) سورة الأنعام : ٦ .

(2) سورة نوح : ١١ .

وقول حسان :

٢ - وكانت لا يزالُ بهـا أنيـسٌ ، خِلالَ مُرُوجِها نَعَمٌ وشَاءُ

يصور بعض ما كانت عليه الديار قبل عفائها تصويرا موجزا ، يجمع - على إيجازه - غاية ما تتمتع به الأمم والحضارات من معان نفسية أو مظاهر مادية ، فأشار إلى الجانب النفسى بكلمة واحدة ، وهى (أنيس) بمعنى مؤانس ، لما فيه من الأنس والطمأنينة ، وهو ضد الوحشة والإيحاش ، ومن عطاء هذه الكلمة دلالتها على مداعبة النفس بلذيذ الحديث وعذب البيان ، على نحو ما وصف الكميت فى قوله :

فيهن آنِسَةُ الحديثِ ، حَيِيَّةٌ ، ليستْ بفاحشةٍ ولا مِتْفَالِ [1]

وآنِسةُ الحديثِ : هى التى تأْنَسُ حديثَك ... وفيها معنى الفرح والسرور ، قال ابن الأعرابى (أَنِستُ بفلانٍ : أى فَرِحتُ به) [2] .

وأشار حسان إلى رقى الجانب المادى وما فى هذه الديار من مظاهر النعيم المحسوس ومقومات الحياة الإنسانية الآمنة بقوله : (خلال مروجها نعم وشاء) ، فهذه الديار ذاتُ مُروجٍ ، يسقيها صَيِّبُ المطر ، وتسرح فيها أنعام وشياه تطعم فيها فى أمن وسكينة ، وتغدو وتروح بين تلك المروج الخضر ... والعربى الذى كابد الصحراء المهلكة يحس بقيمة هذا النعيم ، ويرحل فى طلبه ، شوقا إلى ما تنزل السماء من غيث وما تنبت الأرض من كلأ .

فكلمة (مروج) فى تصوير المظهر المادى للحياة كفاء لكلمة (أنيس) فى تصويرها للمظهر النفسى ... والمروج كلمة تصف جمال الطبيعة وسحرها ونعيمها ورخاءها وما فيها من خصب وخضرة وزرع ونماء ، واحدها " مَرْجٌ " وهو (الأرضُ الواسعةُ ، ذاتُ نباتٍ كثير ، تَمْرج فيها الدواب ، أى : تُخَلَّى تَسْرَحُ مختلطةً حيث شاءت) [3] ، فلا تسمى الأرض " مَرْجاً " إلا إذا عظُمت واتسعت وكثُر نباتُها ، وتشابكت أغصانُها والتوت [4] .

---

(1) لسان العرب : (أ ن س) وقوله : ولا متفال ، يعنى أنها متطية ، جميلة الرائحة ، (قال أبو عبيد : التَّفِلَةُ التى ليست بمتطية ، وهى المنتنه الريح) [اللسان : ت ف ل] .

(2) المصدر السابق .

(3) اللسان : (م ر ج) .

(4) المصدر السابق .

وأتم حسان جمال هذه المروج بأن جعل النَّعم والشاءَ ترعى خلالها فى كثرة واختلاط ، فصور بذلك وفرة الغذاء الذى به قِوَام الأبدان ، فضلا عما فى النعم والشاء من منافع كثيرة وجمال سجله الله – عز وجل – فى قوله : (وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ) (١) .

والمراد بالنعم فى البيت : الإبل خاصة ، لأن حسان أفرد الشاء بعدها بالذكر ، (وهى واحد الأنعام ... قال الفراءُ : العربُ إذا أفردت النعم لم يريدوا بها إلا الإبل ، فإذا قالوا : الأنعام ، أرادوا بها الإبل والبقر والغنم) (٢) ، والمفرد هنا بمعنى الجمع .

واختار حسان التعبير بـ " شاء " لأنه أكثر صيغ الجمع ، إذ (الشاة : الواحد من الغنم ، يكون للذكر والأنثى .. والجمع : شياهٌ ، بالهاء ، أدنى فى العدد ، تقول : ثلاثُ شِياهٍ إلى العَشْرِ ، فإذا جاوزتَ فبالتاء ، فإذا كثُرتَ قلت : هذه شَاءٌ كثيرة) (٣) ، وبهذا يدل حسان على معنى الكثرة بلفظين متجاورين أحدهما مفرد والآخر جمع .

وعقد حسان معانيه فى الأبيات الثلاثة الماضية على أسلوب المقابلة ، فقابل ما كانت عليه الديار من الازدهار والرقى والحياة الخِصْبَة بما آلت إليه حيث صارت أطلالا خربة ومنازل عافية خلاء وديارا قفرا لانبات فيها ولا ماء ، ولا إنس فيها ولاشئ ...

وتعد هذه المقابلة من براعة حسان فى افتتاح القصيدة ، حيث أوجز فى ثلاثة أبيات فقط حياة هذه الديار وموتها ورحلتها الطويلة حين كانت عامرة آنسة بأهلها ، ناعمة بمروجها ونعمها وشائها ، وحين عفت وصارت منازل خالية وديارا قفارا ، تعفيها الروامس والسماء ، وهى لوحة فنية بارعة ، ومقدرة على التصوير والإبانة فائقة .

وأطراف التقابل فى هذه اللوحة متداخلة ، بحيث يمكن أن تقابل فيها الصورة الأولى كاملة بما فيها من عفاء ومنازل خلاء وديار قفار ، بالصورة الثانية كاملة بما فيها من حياة يأنس فيها أهلها ويتسامرون وينعمون بملذات النفس والبدن ... ومن البين عند تحديد أطراف المقابلة

---

(١) سورة النحل : ٥ – ٧ .

(٢) لسان العرب : (ن ع م) .

(٣) لسان العرب : (ش و هـ) بتصرف .

أن قوله (منـزلها خلاء) أى ليس فيه أحد يقابل قوله (وكانت لا يزال بها أنيس) أى مؤنس ومسامر وممتع للنفس بجمال الحديث وطيب العشرة . كما أن قوله (عفت - وقفر - وتعفيها الروامس والسماء) فيه ثلاثة معان تقابل معنى واحدا فى قوله : (خلال مروجها نعم وشاء) . واختلاف أعداد المقابلات ورد فى شواهد اللغة ، ونبه عليه ابن رشيق [1] . وزاد أحد المعاصرين من شواهده وجعله (صورة جديدة يمكن أن تدخل باب المقابلة وتثريها) [2] ، إلا أن جمال هذه المقابلة فى تشابك أطرافها وتداخلها .

ومن براعة حسان فى بناء البيت الثالث أنه أتى فى صدره بفعلين متتالين متقابلين فى قوله : (وكانت لا يزال بها أنيس) ، فأفاد الفعل الماضى " كان " أنه يحكى حكاية مضت وانقضى أمرها ، وأفاد المضارع المنفى " لا يزال " استمرار الحدث فى الزمن الماضى . فوسع دلالة الماضى ، وجعلها متراخية ، مترامية الأطراف : ممتدة المساحة بين أول هذا الفعل الماضى وآخره ، واستغرق " لا يزال " أطراف هذا الزمن الممتد ، ببراعة الشاعر واقتداره على تطويع اللغة وملئها بدقائق المعنى وظلاله . وبهذا أبان حسان عن أن الأنس فى هذه الديار حين كانت عامرة بأهلها - كان مستمرا لا ينقطع ، ونشطا لا يفتر فى ليل أو نهار . وقد جرى هذان الفعلان على ألسنة الناس عند التأريخ للأعلام أو الحوادث فيقولون : " كان فلان فى هذه الأيام لا يزال يفعل كذا " ، وما شابه ذلك ، لما فى هذه الصياغة من ثراء .

* * *

---

(1) ينظر العمدة لابن رشيق : ٢ / ١٨ ، ١٩ .

(2) دراسات فى علم البديع د / أحمد محمد على : ص ١٠١ مطبعة الأمانة ط أولى ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م .

القسم الثانى

٤ - فدَعْ هذا ، ولكنْ ما لِطَيفٍ يُؤَرِّقُنى إذا ذهَب العِشاءُ
٥ - لشَعْثاء التى قد تيَّمَتْهُ ، فليس لقلبِه منها شِفاءُ؟
٦ - كأنَّ خبيئةً من بَيتِ رَاسٍ يكونُ مِزاجَها عَسَلٌ ومَاءُ
٧ - على أنيابِها ، أو طَعْمَ غَضٍّ مِن التُّفَّاحِ هَصَّرَهُ اجْتِناءُ
٨ - على فِيها ، إذا ما الليلُ قلَّت كواكبُه ، ومالَ بها الغِطاءُ
٩ - إذا ما الأشرِباتُ ذُكِرْنَ يوماً ، فهُنَّ لطَيِّبِ الرَّاحِ الفِداءُ
١٠ - نُولِّيها المَلامَةَ - إنْ ألَمنا - إذا ما كان مَغْثٌ أو لِحاءُ
١١ - ونشربُها فتترُكُنا مُلوكاً ، وأُسْداً ما يُنَهْنِهُنا اللِّقَاءُ

هذا هو القسم الثانى من القصيدة ، كسره الشاعر على ثمانية أبيات جياد ، من البيت الرابع إلى البيت الحادى عشر . وفيه انتقل من القسم الأول الذى بكى فيه أطلال الديار العافية ، وتذكر ما كانت عليه من حياة ونعيم ، مثيرا بذلك دواعى الحزن والفقد فى نفسه ، متغنيا بتلك المعانى التى أثارتها الذكريات - انتقل إلى القسم الثانى متابعا حديث الذكريات المؤرقة ، ولكنها ذكريات من نوع آخر ، ذكريات محبوبته (شَعْثاءَ بنتِ سَلاَّم بن مُشْكِم اليهودى) التى استبد حبها بقلبه ، وصار كالداء لاشفاء منه ، ولم يبق من وصالها إلا طيف يؤرقه حين يخلو إلى نفسه وحيدا " إذا ذهب العشاء !!

وساقه الحديث عن طيف محبوبته إلى وصف ريقها ، فشبهه تارة بالخمر المعتقة المضنون بها ، وشبهه تارة أخرى بطعم التفاح الغض عند أول قطفة وبدء اجتنائه ، ثم عاد إلى التشبيه الأول فجعل الخمر (التى هى ريق محبوبته) أطيب أنواع الخمور ، وسماها (طَيِّبَ الرَّاح) ، وجعل الأشربات كلها ، أى سائر الخمور ، فداء لطيب الراح .

وجره ذكر الخمر إلى وصفها ، فوصفها فى بيتين (١٠ ، ١١) جريا - فى شهرتهما وذيوعهما ودقتهما - مجرى الأمثال السائرة ، يتمثل بهما من أراد أن يَبْلُغ فى وصف الخمر ويجيد ، ويقول عنها فيُصيبَ المَفْصِلَ ، فالخمر هى " العذر " الذى يعتذر به أحدهم إذا أتى ما يلام عليه من قتال أو سباب ، يحمل تقصيره على الخمر فيقول معتذرا : " كنت سكران " ، والخمر هى التى كانوا يشربونها فى السلم فتجعلهم كالملوك جلالة وتيها ،

ويشربونها فى الحرب فتجعلهم كالأسد شجاعة وقوة بأس . فـهى الـتى تعطيـهم السـيادة والاستعلاء فى كلتا الحالتين . توهما وتخيلا وعرفا جاهليا اجتثه الإسلام .

واستهل الشاعر هذا القسم من القصيدة بقوله :

٤ - فـدَعْ هـذا ، ولكنْ مـا لِـطَيفٍ   يُؤَرِّقُنـى إذا ذَهَـبَ العِشـاءُ

٥ - لشَعْثَاءَ التى قـد تَيمَّتْـهُ ،   فلـيس لقَلبِـه منها شِفـاءُ

وقد استقبح كثير من النقاد الانتقال من غرض إلى غرض فى القصيدة بقول الشـاعر : (دع هذا) أو (عد عن ذا) ونحوهما ، وعدوه " اقتضابا " يتجافى كل التجافى مع ما ينبغـى على الشاعر أن يسلكه فى مثل هذا الانتقال من " حسن التخلص " .

والاقتضاب هو أن (ينتقل من الفن الذى شبب الكلام به إلى ما لا يلائمـه ، وهـو مذهب العرب الأول ومن يليهم من المخضرمين ، كقول أبى تمام :

لـو رأى الله أن فـى الشـيب خيرا   جاورتـه الأبـرار فـى الخلـد شـيبا

كـل يوم تبدى صرف الليـالى   خلقا من أبى سعـيد غريبا [1]

حيث انتقل إلى المدح اقتضابا من غير تخلص [2] .

وعلل الدكتور شوقى ضيف الاقتضاب عند الشعراء العرب بأنه ملائم لحال حيـاتهم القائمة على الحل والترحال ، ما يلبثون أن يقيموا فى مكان حتى يرحلوا منه ، وكـذا جـاءت معانيهم سريعة ، لا يقف الشاعر طويلا أمام المعنى الذى يلم به ، بل لا يكاد يمسه حتى يتركـه إلى معنى آخر [3] وفيه نظر ؛ لأنه يقتضى أن الشاعر ينتقل عن المعنى قبـل أن يوفيـه حقـه ، ويصف أركانه وأصوله ، فضلا عن شعبه وفروعه ، بله دقائقه وسرائره وإيماءاته وظلاله . وهـل هناك نقص فى بيان المبين أفحش من أن يقال إنه : (لا يـكاد يمس المعنى حتى يتركه إلى معـنى آخر) ؟ وهل يسمى هذا بيانا ؟ فضلا عن أن يسمى مايفوقه ويفضله من البيان " معجزا " ؟

وإذا كانت العرب تضع للمسمى الواحد أسماء كثيرة لتستوفى خصائصه وتحيط بكـل سماته ، فهل يصح فى منطق العقل الحكم عليها بأنها لاتستوفى خصائص المعانى وظلالهـا كمـا

---

(1) الإيضاح مع البغية : ٤ / ١٥٥ ، ١٥٦ بتصرف .

(2) بغية الإيضاح : ٤ / ١٥٦ .

(3) ينظر تاريخ الأدب العربى العصر الجاهلى د / شوقى ضيف : ص ٢٢٤ ط دار المعارف ط الثانية عشرة .

تستوفى خصائص المفردات وسماتها ، فتعنى كل العناية بشأن مفرداتها ، وتقصر أفحش التقصير فى شأن معانيها وأفكارها ؟

وهب أن ذلك كان فى شيء مما تدور به ألسنتهم فى مجالسهم ومحاوراتهم فى غدوهم ورواحهم : أفيليق بهم أن يخلدوه فى " شعرهم " الذى هو أمارة عبقريتهم ، وديوان نبوغهم ؟

ولو أن الشاعر يقصر فى حق المعنى الذى ينتقل عنه اقتضابا إلى غيره لصح هذا الحكم ، ولكنه يوفيه ، ويجمع شوارده ومراميه ، حتى إذا تركه استودع أمارات عبقريته ونبوغه فيه .

ويكفى فى بيان ذلك أن أحيل إلى الأبيات الثلاثة السابقة التى افتتح بها حسان هذه القصيدة ثم انتقل عنها اقتضابا إلى أبيات هذا القسم ؛ فإن حسان لم ينتقل عنها إلا بعدما جمع فيها - على قلة عددها - أخبار ديار بنى الحسحاس ، ووصف معالمها فى حالى عمرانها وخرابها ، ورصد ما كانت تنعم به فى غابر أيامها من الأنس والرخاء والنعمة والحياة الآمنة الموفورة الرزق العظيمة السلطان ، ثم ما آلت إليه فى حاضرها من الدمار والخراب حتى صارت أطلالا بالية ، وقفاراً خربة ، طمست آثارها ، وعفا عليها الزمان .

ولست أدرى كيف قال الدكتور شوقى ضيف هذا ، على سعة علمه ، ورجاحة عقله ، وغزارة اطلاعه ، وفقهه بلسان أمته ؟

ولعل الشعراء كانوا يلجأون إلى هذا الاقتضاب ويقصدونه (لإيقاف تيار الفكر وإيقاظه وتنبيهه إلى أن ما بعد هذا التعبير لا يقل أهمية عما قبله) [1] .

والإشارة فى قول حسان (فدع هذا) تعود إلى ما سبق من وصف الديار والحديث عن عفائها وقفرها وما كانت عليه حال عمرانها من حياة دائمة ، وأنس متجدد ، ونعيم واسع يسر الناظرين ، فاختصر الشاعر باسم بالإشارة (هذا) المعانى السابقة كلها ، وأغنى عن تكرارها .

وقوله : (ولكن ما لطيف) ، الواو قبل " لكن " عاطفة ، و " لكن " حرف خَلَص للدلالة على الاستدراك ، ولو حذفت الواو قبلها لأفادت مع العطف الاستدراك ، قال الزركشى : (إذا دخل عليها الواو انتقل العطف إليها ، وتجردت للاستدراك) [2] ، والاستدراك مشتق من (الدَّرَكِ ، وهو اللَّحاقُ ... وتدارك القومُ : تلاحقوا ، أى : لَحِقَ

(1) دراسات أدبية د / عبد المنعم محمد يوسف ص ١٠٧ .

(2) البرهان فى علوم القرآن للزركشى : ٤ / ٣٩٠ .وينظر لسان العرب : (ل ك ن) والجنى الدانى للمرادى : ص ٥٨٧ .

آخرُهم أولَهم . وفى التنزيل : " حتى إذا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً "[1] ..)[2] ؛ وعلى هذا فدلالة " لكن " قائمة على اللحاق والتابع ووصل آخر الشئ بأوله .

فحسان أتى بهذا الحرف لوصل معانيه ، لا " لاقتضابها " وبترها ، فهو يَسْتدرِك (أى يُلْحِق) ، ذكرى بذكرى : يلحق ذكرى حبيبته (شَعْثاء) التى تؤرقه بذكرى تلك الديار العافية القفار التى أرقته من قبل وأهاجته وحملته على الغناء .

ولا يخلو الاستدراكُ عن وشيجةٍ تَربُطِ المستدرك بالمستدرك به ، وتُحسِّنُ هذا اللون الذكى من الاقتران ، فإذا قيل : ما قام محمد لكن على ، دل ذلك على أن محمدا وعليا كانا بحيث يُظَنُّ أن يُثْبتَ القيام لكل منهما ، ويتوهم حدوثه منه ، إلا أن الاستدراك بـ " لكن " نفاه عن محمد وأثبته لعلى ... ولا يختلف الاستدراك فى الجمل عنه فى المفردات ، فلابد فى كل منهما من تلك الوشيجة التى تسوغ الاستدراك والوصل حتى ولو فُهِمت هذه الوشيجة من ملابسات السياق دون التصريح بها . ولذا فانتقال حسان حسَنٌ لارتباط المحبوب بالأطلال .

وقد وقع الاستدراك بـ " لكن " فى بيت حسان بين جملتين : الأولى جملة الأمر (فدع هذا) ، والثانية : (ما لطيف) ، أى : دع وصف هذا الطلل وتذكر وصف هذا الطيف المؤرق الذى لا شفاء لقلبى منه .

و (ما) فى قوله : (ولكن ، ما لطيف) استفهامية (بمعنى : " أىّ شئ ... ويسأل بها عن أعيان ما لا يعقل ، وأجناسه ، وصفاته ، وعن أجناس العقلاء ، وأنواعهم ، وصفاتهم ، قال تعالى : " وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسَى "[3] ... ومثال مجيئها لصفات من يعلم قوله تعالى : " وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا "[4])[5] .

فحسان يسأل عن أى شئ – عاقلا كان أو غير عاقل – ينقذه من هذا الطيف المؤرق الذى يعتاده كلما أراد أن يخلو إلى نفسه ويركن إلى الراحة ، فلا يذيقه طعم النوم .

---

(1) سورة الأعراف : ٣٨ .

(2) لسان العرب : (د ر ك) .

(3) سورة طه : ١٧ .

(4) سورة الفرقان : ٦٠ .

(5) البرهان للزركشى : ٤ / ٤٠٢ بتصرف .

وفى الاستفهام معنى الحيرة والقلق والاضطراب، وكأن أسباب الشاعر وحيله قد نفدت ووقف عاجزا مستسلما أمام هذا الطيف ؛ ولذا يستغيث بكل شئ ، ويطلب النجدة من أى شئ يُذْهِبُ عنه ما أَلَمَّ به . وفيه أيضا معنى (التمنى ،يتمنى أن يجد حاميا من هذا الطيف المؤرق) (١) .

ويمكن أن تكون " ما " هذه تعجبية ، كالتى فى قوله تعالى : (فما أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّار) (٢) ، فيكون حسان متعجبا من هذا الطيف وجرأته وكثرة أعتياده له وتأريقه إياه وفعله به ما يشاء . قال الزركشى : (وهو قريب مما قبله ؛ لأن الاستفهام والتعجب بينهما تلازم ؛ لأنك إذا تعجبت من شئ ، فبالحرى أن تسأل عنه) (٣) .

وفى ورواية ابن هشام : (فدع هذا ، ولكن ، من لطيف ...) (٤) بدل " ما " ، واستعمال " ما " أعم للعاقل وغيره ، ولذا كانت رواية الديوان " ما لطيف " أولى .

و (الطَّيفُ : الخَيالُ ... وطافَ الخيالُ يَطِيفُ طَيفاً ومَطافاً : أَلَمَّ فى النَّوم) (٥) ، وهو مبنى على التوهم والتخيل فلا حقيقة له ، قال السهيلى : (ولا يقال للخيال : هو طائف – على وزن اسم فاعل من طاف – لأنه لا حقيقة للخيال ، فيرجع الأمر إلى أنه هو الطيف ؛ وهو توهم وتخيل) (٦) .

وأفاد تنكير " طيف " خطورة هذا الطيف وشدته على الشاعر ؛ ولذا أكد هذا المعنى بقوله " يؤرقنى إذا ذهب العشاء " ؛ لأن طيفا من شأنه أن يفعل ذلك عظيم الخطر ، شديد الأثر ، مُطْبِقٌ على النفس ، مُهَيِّجٌ للذكرى ، موجب للغناء والبَوْح .

وإذا كان حسان صَدَّر القسمَ الأول من القصيدة بالكلمة المثيرة التى أهاجته على الغناء ، وكانت هى المحور الذى بنى عليه القسم الأول ، وهى كلمة " عَفَتْ " – فإنه فعل ذلك أيضا فى القسم الثانى ، فاختار الكلمة التى أهاجت ذكرياته ، وهى " طَيْف " التى تمثل عِمادَ المعنى ورَأْسَه فى هذا القسم ، وما بعدها تبع لها ، يصف هذا الطيف بوصفين :

---

(١) دراسات أدبية د / عبد المنعم يوسف : ص ١٠٧ .

(٢) سورة البقرة : ١٧٥ .

(٣) البرهان : ٤ / ٤٠٤ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام : (٤ / ١٠٦ مع الروض الأنف) .

(٥) لسان العرب : (ط ي ف) بتصرف .

(٦) الروض الأنف : ٤ / ١١٧ .

الأول : أنه طيف مؤرِّق للشاعر عند ذَهاب العشاء .

والثاني : أنه طيف لشعثاء التى ذكر من صفاقا النفسية أن حبها تيَّم قلبه فليس له منها شفاء ، ومن صفاقا الحسية أن ريقها كالخمر التى أبدع حسان فى وصفها ؛ لأنه إنما يبدع فى وصف ريق شعثاء . وهذا نمط عَالٍ من البيان ، يدل على حِذْقِ الشاعر ومهارته .

وقوله : (يُؤرِّقُنى) من الأَرَق ، وهو السهر ، (وقد أَرِقْتُ ، بالكسر ، أى : سَهِرْتُ ... وقد أَرَّقَهُ كذا وكذا تأريقا ، فهو مُؤَرَّقٌ : أى : أسهره) [1] .

وإسناد التأريق إلى الضمير العائد على الطيف إسناد مجازى من إسناد الفعل إلى سببه المؤثر ، دلالة على شدة هذا الطيف وقوته ، فهو طيف جامح مستبد .

وتقييد الفعل (يؤرقنى) بالظرف (إذا ذهب العشاء) يطوى معنى لطيفا ؛ لأن العشاء هو (أول الظلام) [2] ؛ وذَهابه يعنى انفضاض السامر ، والخلو إلى النفس ، وينسج الخيال قصصا محببة إلى النفس ، للركون إلى الراحة والنوم ، ففى هذا الوقت يعتاده طيف شعثاء فى منامه فينعم بوصالها ، لأنها تحقق للمحب فى عالم الخيال ما عجز عن تحقيقه فى عالم الواقع ، ولذا جعل الشعراء التلاقى فى المنام كالتلاقى فى اليقظة ، قال البُحْتُرِىُّ :

قد أخذنا من التَّلاقى بِحَظٍّ ، والتَّلاقِى فى النَّوم عِدْلُ التَّلاقِى [3]

وقد أكثر الشعراء من وصف هذا الطيف ، (لأنه لقاء واجتماع لا يَشْعُر الرُّقباءُ بهما، ولا يُخْشَى مَنْعٌ منهما، ولا اطِّلاعٌ عليهما . والتُّهْمةُ بهما زائلة ، والرِّيبةُ عنهما عادلة . وأنه تَمَتُّعٌ وتَلذُّذٌ لا يتعلق بهما تحريم ، ولا يدنو إليهما تأثيم ، ولا عَيبَ فيهما ولا عار) [4] .

وقد أجاد البحترى فى وصف طيف الخيال ، فقال :

تَرَى مُقْلَتى ما لاتَرَى فى لقائهِ ، وتَسمَعُ أُذنى رَجْعَ ماليس تَسْمَعُ
ويَكْفِيكَ مِن حَقٍّ تَخَيُّل باطل ، تُرَدُّ بِهِ نَفْسُ اللَّهِيفِ فَيَرْجِعُ [5]

---

(1) لسان العرب : (أ ر ق) بتصرف .

(2) لسان العرب (ع ش ا) .

(3) طيف الخيال للشريف المرْتَضَى (على بن الحسين بن موسى ٣٥٥-٤٣٦ هـ) : ص ١ ت محمد سيد كيلانى ط/ مصطفى الحلبى ط أولى ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥م.

(4) المصدر السابق : ص ٢٣.

(5) المصدر السابق : ص ٢٧ .

وقال :

إذا ما الكرى أهدَى إلىَّ خيالَـهُ سقَى قُربَهُ التَّبريحَ ، أو نَقعَ الصَّدا
إذا انتزعَتْهُ مِن يدَىَّ انتباهَـةُ عَددْتُ حَبيباً رَاحَ منى أو غَـدا
ولم أرَ مِثْلينا ، ولا مِثْلَ شأنِنا ، نُعذَّبُ أيقاظاً ، ونَنْعمُ هُجَّـدا [1]

قال الشريف المُرتضَى : (وما زالت الشعراءُ تتمنى الليلَ والنّومَ لطُرُوقِ الطيـف) [2]
وفى ذلك يقول مجنون ليلى :

وإنّى لأَستَغْشِى ، وما بِىَ نَعْسَةٌ ، لَعلَّ خَيالاً مِنكِ يَلْقَى خَيالِيا [3]

فإذا ما انقضى الطيف وولَّى ، أعقب النفسَ لوعةً وحزناً طويلاً على فِراق الحبيـب ، وسهراً وفكراً وقلقاً ؛ ولهذا ذم الشعراء طيف الخيال ، قال الشريف المُرتَضَى : (وربمـا ذُمَّ – أى الطيف – بأنه سريع الزوال ، وشيك الانتقال ، وبأنه يهيج الشـوق السـاكن ، ويُضْـرِمُ الوَجْد الخامد ، ويُذكِّرُ بغرام كان صاحبه عنه لاهياً وساهياً [4].

ووقف السُّهَيلىُّ أمام بيت حسان وافترض سؤالاً ، وأجاب عنه، قال : (كيف يُسْهِرُد الطيـفُ ، والطيف حُلْمٌ فى المنام ؟ فالجواب : أن الذى يؤرقه لوعة يجدها عند زواله ، كما قال الطائى :

ظَبْىٌ ، تَقَنَّصْتُه لما نصبْتُ لَـهُ مِن آخِرِ الليلِ أشْرَاكاً مِن الحلُـم
ثُمَّ انثنى ، وبِنا مِنْ ذِكْرِه سَقَمٌ بَاقٍ ، وإنْ كان مَعْسُولاً مِن السَّقَمِ [5]

وطَربَ السهيلى لقول الطائى (من آخر الليل) ، وأعجبه هذا التميد فقال : (وقـد أحسن فى قوله : " من آخر الليل " تنبيهاً على أنه سَهِر ليلَه كلَّه ، إلا ساعة جاء الخيـال مـن آخره ، فكأنه مُسْتَرَقٌ من قول حسان :

وخَيالٌ إذا تَقومُ النُّجُومُ) [6]

---

(1) المصدر السابق : ص ٢٩ .

(2) المصدر السابق : ص ٢٦ .

(3) ديوان مجنون ليلى : ص ٩٣ جمع وترتيب أبى بكر الوالبى . ط / مصطفى الحلبى .

(4) طيف الخيال للمرتضى : ١٦ .

(5) الروض الأنف : ١١٧/٤ وديوان أبى تمام بشرح التبريزى : ١٨٥/٣ ، ١٨٦ وطيف الخيال : ١٧ .

(6) الروض الأنف : ١١٧/٤ والبيت مطلع القصيدة الثانية فى ديوان حسان : ص ٨١ :

منع النوم بالعشاء الهمومُ وخيالٌ إذا تغورُ النُّجومُ

وقف الآمدى أمام قول الطائى : (من آخر الليل) ، وعلق عليه بقوله : (ولم يقل : " من أول الليل " : يريد أنه لا ينام بالليل ، وأنه يَسْهَرُه . وإنما يُهَوِّمُ – يعنى يَهُزُّ رأسه من النُّعاسِ – فى آخره تَهوِيماً – فيَطْرُقُ الخيال فى ذلك الوقت) [1] .

وإذا كان أبو تمام سهر ليله كله حتى نام ، ونصب أشراكا من الحلم ليقتنص طيف هذا الظبى ، فإن حسان صور ما يجد من معاناة هذا الطيف بقوله : (يؤرقنى إذا ذهب العشاء) ، أى : إذا ذهب أول الليل ، فهو لم ينصب أشراكه ليقتنص الطيف ، بل إن الطيف هو الذى يعتاده ويقتنص نومه ، ثم إن الطيف لم يأته " فى آخر الليل " ، بل بعدما ذهب أوله ، ثم انثنى وأعقبه لوعة وسقماً طويلاً يعانيه طوال ليله كله ، وهذا أشد ألماً وأطول أمداً ممن زاره الطيف فى آخر الليل .

وللشريف المُرتَضَى وجه آخر فى استحسان قول الطائى : " من آخر الليل " ، (وهو أن الخيال لا يَطْرُقُ – فى العادة – إلا مع وُفُور النوم وغزارته والاستثقال فيه . وهذا إنما يكون فى أواخر الليل ، ومع استمرار النوم وطول زمانه ، فلهذا خص آخر الليل) [2] .

وقد احتاط حسان لهذا المعنى فلم يقل : (إذا جاء العشاء) أو (إذا حان العشاء) ، ولكن قال : (إذا ذهب ...) أى انقضى أول الليل ، وذاق الشاعر فيه قدرا من النوم ، حتى زاره الطيف ثم فارقه ، وأسهره وأيقظ ليله ، وأطال فكره وسُهَاده ، وأعقبه من ذِكره سَقَما باقيا .

ولست أنقص من وصف الطائى للطيف ، فهو وصف بليغ فى أبيات جياد ؛ وبحسبها من الجودة أن افتتح بها الشريف المرتضى كتابه " طيف الخيال " ، وقال عنها الآمدى : (وهذه الأبيات حِسَان ، وغَرَض صحيح مستقيم) [3] ، واستحسنها السهيلى واختارها ، وإنما أردت أن أبين الفرق بين القيدين : قيد حسان : (إذا ذهب العشاء) ، وقيد الطائى : (من آخر

---

(1) الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى لأبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى (ت ٣٧٠ هـ) : جـ ٢ ص ١٦٨ ت / السيد أحمد صقر ط دار المعارف ط رابعة . وينظر طيف الخيال : ١٨ ، ١٩ .

(2) طيف الخيال : ص ١٩ .

(3) الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى : ٢ / ١٦٨ .

الليل) ، وما فى قيد حسان من دلالة على طول اللوعة والألم وامتداد السهر والأرق أكثر ممـا فى قيد الطائى ، وإن كان بيتاه فى غاية من الحسن والروعة [1] .

ونظير بيت حسان فى الاستغاثة مما يجره طيف الخيال من الأرق قول أمية ابن ابى عائذ :

ألا يالَقومِى لِطَيفِ الخَيا   لِ ، أَرَّقَ من نَازحٍ ذِى دَلالِ [2]

وبعدما وصف حسان فى البيت الرابع هذا الطيف بتأريقه إيـاه ، وصفـه فى البيت الخامس بصفة ثانية فقال :

٥ - لشَعْثَاء التى قـد تَيمَّتْـهُ ،   فليس لقَلبِـه منها شِفاءُ ؟

فقوله : " لشعثاء ... " صفة ثانية لـ " طيف " ، وكان حق هذا الوصـف أن يقـدم على الوصف الأول ، فالأصل أن يقال : " مالطيف لشعثاء – التى قد تيمتنى فليس لقلبى منـها شفاء – يؤرقنى إذا ذهب العشاء ؟) ، ولو قال هذا لكان كلاما مغسولا ؛ لأن للشاعر حسـه العالى وذوقه المرهف ، اللذين يتعامل بهما مع هذه اللغة الشريفة ، فيحيل الألفاظ المتراصـة ، والجمل المتتابعة إلى شئ اشبه بالسحر !

---

(1) ومن معالم الحسن والروعة فى بيتيه : تشبيهه المرأة الزائرة فى الطيف بالظبى ، وما فى ذلك من حسن وإحسان وملاحـة وجمال ، ونفور وفرار ، يأبى على الصياد القانص ، والعاشق المتربص . ومن الإحسان إلى هذا الشعر أن يقف القارئ على كلمة " ظبى " وقفة تُفْسِحُ المجال لرؤية هذا الظبى ، وتملى العين من جماله ، وتملأ النفس به إسعادا وإمتاعا .

ومن براعة أبى تمام اختياره صيغة التفعل فى " تقنصته " ليدل على ما فى ذلك من المعاناة الشديدة ، وأنه لم يقتنصه إلا بعد لأيٍ وطول علاج .

ومن بديع صنعته تلك الحيلة الطريفة التى اقتنص بها هذا الظبى ، أعنى الأشراك التى نصبها له فى آخر الليـل ، وهـى أشراك عجيبة لأن خيوطها وأجزاءها من الحُلْم ، فلا عهد لنا بها إلا فى عالم الشعراء ، وولائـد معانيـهم ، وسـوانح خواطرهم . ولم يصل الشاعر إلى هذه الحيلة إلا بإدمان الفكر وإطالته ؛ ولذا قال قبل هذا البيت : =

- زارَ الخَيالُ لها ، لا ، بل أزارَكَهُ   فِكْرٌ ، إذا نامَ فِكْرُ الخَلْقِ لم يَنَمِ !

فالخيال لم يزره من نفسه عن طواعية واختيار ، ولذلك استعان على قهره على الزيادة بالفكر الدائم الذى لا يفتر إذا فتر فكر الناس ... فلما أدمن التفكر فيه ، حتى أسلمه التفكر من شدته وإعيائه إلى النوم زاره طيفها .

وبيت حسـان – على روعته – ليس فيه هذا الاحتيال لاقتناص الخيال ، بل على العكس من ذلك ، يأتيه الطيف دائمـا إذا ذهب العشاء فيؤرقه ، فيستغيث بأى شئ يذهب عنه ما يعقبه الطيف له من الأرق والألم واللوعة ... ففـى بيت الطائى حيلة لاقتناص الطيف ، وفى بيت حسان استغاثة منه . وبينهما فرق كبير .

(2) لسان العرب : (ط ي ف) .

ولاشك فى أن من مهارة حسان تقديمة الوصف الثانى وهو " يؤرقنى إذا ذهب العشاء " لما فيه من تعظيم خطر هذا الطيف ، والتشويق إلى معرفة صاحبته : من تكون ؟ فقال بعدما وطأ لها وشوق إليها : " لشعثاء " التى ذكر من وصفها أنها " قد تيمته ... اخ) . كما أن هذا الترتيب الذى اختاره أفسح له فى صدر اللغة ، فمكنه من الوفاء بحق كل كلمة يذكرها باستيفاء صفاتها وبيان أثرها فى نفسه : فلما ذكر الطيف استوفى صفته الكاشفة فقال " يؤرقنى إذا ذهب العشاء " ، ولما ذكر شعثاء استوفى من صفتها ونبنها معه فقال : " التى قد تيمته ، فليس لقلبه منها شفاء " ، وأكمل ذكر أوصافها حين شبه ريقها بالخمر وبطعم التفاح الغض ... فبراعة حسان فى تقديمه الوصف الثانى على الأول مكنته من وصف " شعثاء " بتلك الأوصاف الكثيرة المتتابعة ، ولو قدم وصف " شعثاء " لَعُسَر عليه ذلك .

واللام فى قوله (لشعثاء) دعا إلى ذكرها تقديمه الوصف بجملة " يؤرقنى ... " ؛ ولولا ذلك لقال : " ما لطيف شعثاء " على طريق الإضافة ، فلما فصل جاء باللام ، وأفاد بها – مع ذلك – معنى الاختصاص ، فدل على أن هذا الطيف من أوله إلى آخره ، ومن حين يأتى إلى حين ينقضى ، خاص بشعثاء ، ملكته واستحوذت عليه ، فلا يداخله شئ غيرها ، ولا يعترضه خيال آخر سوى خيالها . والاختصاص أصل معانى اللام الجارة ، نحو : الجنة للمؤمنين [1] .

و (شعثاء) التى شبب بها حسان هنا وفى غير موضع من شعره هى بنت " سَلاّم بن مُشْكم اليهودى "، وهى غير امرأته "شعثاء بنت كاهِنٍ الأَسْلَمِيَّة "التى ولدت له" أُمّ فِراس " [2] .

---

[1] ينظر الجنى الدانى : ص ٩٦ .

[2] ينظر الروض الأنف : ٤ / ١١٧ وذكر السهيلى أن سلام بن مشكم قال : " يا معشر يهود ، قد علمتم أن محمدا نبى ؛ ولولا أن تُعَيَّر بها شعثاء ابنتى لتبعته " . ولم يذكر أحد – فيما أعلم – أن شعثاء التى شبب بها حسان هى بنت سلام بن مشكم إلا السهيلى فى الروض الأنف . وفى تحديد من هى خلاف كبير فى مصادر التراث (ينظر ديوانه : ص ٧١ ، ١٣٢ والكامل للمبرد : ١ / ٢٦٢ ، ولسان العرب : (ش ع ث) .

ويبدو من خلال شعر حسان أنه عشق فيها الجمال والفطرة ، وأنها لم تكن مخدومة منعمة ، يُضْحى فتيت المسك حول فراشها ، بل كانت – مع جمالها – ترعى الأراك ، وترتحل مع قومها طلبا للماء والكلأ فى هجير الصحراء ، وفى ذلك يقول :

- دِيارٌ لشعثاءِ الفؤادِ وتربِها ... لَيالِيَ تَحْتَلُّ المَراضَ فتغْلَما
وإذ هى حَوراءُ المَدامِعِ ، تَرْتَعِى ... بِمُنْدَفَعِ الوادى أراكاً مُنَظَّما
أقامت به بالصيفِ ، حتى بَدَا لها ... نَشَاصٌ إذا هَبَّتْ له الرِّيحُ أرْزَما

وقوله : (التى قد تيمته) يعنى : استعبده هواها . وِالتَّيْمُ : ذهاب العقل من الهوى ، وتَيَّمَهُ الحُبُّ : إذا استولى عليه [(١)] .

ومما ينبع عن شدة استيلائها على قلبه واستبدادها به - اختيار حسان صيغة الفعل المضعف " تَيَّم " دون مخففه " تَامَ " الذى ورد على ألسنة الشعراء ، كما فى قول لَقِيطِ بنِ يَعْمُرَ :

ثَامَتْ فُؤَادِى بذاتِ الجزعِ خَرْعَبَةٌ ، مَرَّت تُرِيدُ بذاتِ العَذْبَةِ البِيعَا

وقول لَقِيط بن زُرَارَةَ :

ثَامَتْ فُؤَادَكَ - لو يَحْزُنْكَ ما صنعتْ - إحدى نساء بنى ذهل بن شيبانا [(٢)]

(والتيُّمُ من أسماء المحبة التى وضعوا لها قريبا من ستين اسما ؛ لمَّا كان الفَهْمُ لهذا المسمى أشدَّ ، وهو بقلوبهم أعلق ، كانت أسماؤه لديهم أكثر) [(٣)] .

وجملة (فليس لقلبه منها شفاء) مفسرة لما ذكر من تتيمه بها ، ومؤكدة له ، وفى (شفاء) صورة بيانية ممتعة ، تقوم على تشبيه حبها واستيلائها على قلبه بالداء المزمن الذى لا شفاء منه .

وتصوير الحب بالداء الذى لا شفاء منه جار على ألسنه الشعراء ، ومنه قول عُمَر بن أبى ربيعة :

فهَاتِ دَواءً للذى بى من الجَوَى ، وإلاَّ فدَعْنِى من مَلامِكَ وَاعْذرِ

= (المَرَاضُ وتَغْلَمُ : من أرض غَطَفَانَ . والمُنَظَّمُ : المتسق البنية . والنَّشَاصُ : سحاب مرتفع . وإرْزَامُه :رَعْدُه : [الديوان : ص ١٢٦ ، ١٢٧] .

وكان حسان متيما بها حتى بعدما كَبِرَتْ سِنُّه وكُفَّ بصره ، وروى الأصمعى قال : " شهد حسان بن ثابت مأدبة لرجل من الأنصار ، وقد كف بصره ، ومعه ابنه عبد الرحمن ، فكلما قُدِّم شئ من الطعام قال حسان لابنه : أطعام يد أم طعام يدين ؟ فيقول له : طعام يد ، حتى قُدِّم الشِّوَاءُ ، فقال له : هذا طعام يدين . فقبض الشيخ يده ، فلما رفع الطعام اندفعت قينة تغنى بشعر حسان :

انظُرْ خَلِيلى بباب " جِلَّقَ " ، هَلْ تُبْصِرُ دُونَ البَلْقَاء من أحَد

جِمَالَ شعثاءَ إذا هَبَطْنَ مِنَ الـ ـمَحْبَس دُونَ الكُثْبَانِ فالسَّنَدِ

قال : فجعل حسان يبكى ، وجعل عبد الرحمن يومى إلى القينة أن ترده ! قال الأصمعى : فلا أدرى ما الذى أعجب عبد الرحمن من بكاء أبيه) : العقد الفريد : ٦ / ٩ والبيتان فى ديوانه : ص ١٤٩ .

(١) ينظر لسان العرب : (ت ي م) .

(٢) ينظر لسان العرب : ت ي م .

(٣) روضة المحبين لابن القيم : ص ٢٣ بتصرف . ط دار الفكر العربى .

تَبَارِيحُ ، لا يَشْفِي الطبيبُ الذي به ، وليس يُواتِيه دَوَاءُ المُبشِّرِ [1]

ومن مهارة حسان أن دلنا على هذه الصورة بكلمة واحدة ، وهى " شفاء " ، فوفى بحق القافية ، وزاد تلك الصورة . ولو قال : " فليس لقلبه منها نجاء " أى : خلاص من حبها ، لجاء بالقافية ، ولكن موهبة حسان أبت إلا أن تضيف هذه الصورة المعبرة مع آخر كلمة فى البيت .

ومن مهارته – أيضا – ذلك الالتفات من التكلم فى قوله : (يؤرقنى) إلى الغيبة فى قوله (تيمته – ولقلبه) ولو أجرى كلامه على التكلم لقال : " يؤرقنى – تيمتنى – لقلبى " وفى الالتفات افتنان فى الكلام ، وإثارة للمخاطب وإيقاظ له ، وهو من سُنَنِ العرب فى كلامهم ، قال الزمخشرى : (لأن الكلام إذا نُقِلَ من أسلوب إلى أسلوب كان أحسنَ تَطْرِيةً لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد . وقد تختص مواقعة بفوائد) [2] . ومما يختص به الالتفات فى بيت حسان من الفوائد الإشارة إلى أنه لما كان يقاسى أرق هذا الطيف كلما اعتاده وفارقه كانت لا تزال له ذات وهوية ينسب إليها أفعاله ، ولذا قال (يؤرقنى) على طريق التكلم ، فلما طال عليه الأمد واستعبده هوى شعثاء واستبد به ذاب فى هواها وشُغِل به ، وصار كأنه غائب هناك ، ولذا أخبر عن نفسه بضمير الغيبة على سبيل الالتفات فقال (تيمته – يؤرقنى) وكأنه يتحدث عن عاشق غائب استعبده الحب حتى صار فى عداد الغائبين . وفى هذا تعجيب للمخاطب من تلك الحال حتى يرق لها ، وتنفعل لها مشاعره .

والأسلوب فى البيتين إنشائى ؛ لأنه - فيما أرى - استفهام طويل لم يجب عنه الشاعر [3] ، أما كونه طويلا فلأنه يتكون من ثمانية أبيات ، بدأه الشاعر بأداة الاستفهام " ما " فى قوله : (ما لطيف) وختمه بختام أوصاف شعثاء التى مزج وصفها بوصف الخمر ، فدخل وصف الخمر ضمن السؤال ، وعلى هذا فآخر الاستفهام هو قوله :

وَنَشْرَبُها فَتَتْرُكنا مُلُوكاً وأُسْداً ما يُنَهْنِهُنا اللِّقَاءُ

([1]) ديوان عمر بن أبى ربيعة بشرح الشيخ محى الدين عبد الحميد : ص ١٠٣ ط المدنى ط ثالثة ١٣٨٤ هـ / ١٩٥٦ م .

([2]) الكشاف للزمخشرى : ١ / ٦٤ .

([3]) يرى الدكتور عبد الحليم حفنى أن البيت الخامس (لشعثاء التى قد تيمته ...) أجاب فيه الشاعر (عن تساؤله فى البيت السابق مبينا أن سبب أرقه هو الحب العميق الذى لا شفاء منه لهذه المرأة المسماه شعثاء) : الشعراء المخضرمون : ص ٢٤١ . وقد خالفت هذا الرأى لأنه يقتضى عدم معرفة الشاعر بخيال محبوبته ، حتى يسأل عنه ، وهذا بعيد !!

وذلك أن الاستفهام منصب على البحث عمن ينقذ الشاعر من هذا الطيف ، ويزيل عنه ما يسببه له من أرق ، وهو طيف شعثاء التى ذكر من صفتها ما ذكر حتى ختم مقدمة القصيدة فى البيت الحادى عشر .

وأما كون الشاعر لم يجب عن هذا الاستفهام ، فلأنه لم يقصد حقيقة السؤال الذى ينتظر له جواب ، وإنما أودع فيه معانى التعجب والتمنى والحيرة والاضطراب ، وجعلها من مستتبعات الاستفهام .

ولما ذكر حسان شعثاء ، وذكر من صفتها النفسية أنها تيمت قلبه ، ذكر من صفتها الحسية ريقها العذب فشبهه فى قوله :

٦ - كأن خبيئة من بيت رأس	يكون مزاجها عسل وماء
٧ - على أنيابها ، أو طعم غض	من التفاح هصره اجتناء
٨ - على فيها ، إذا ما الليل قلت	كواكبه ، ومال بها الغطاط

وإذا كان المتيم الذى استعبده هوى محبوبته فى سكر لا يفيق منه ولا يشفى من دائه ، فكذا الخمر تفعل بشاربها : تذهب عقله وتطوح به فى واد بعيد ... وإذا كان السكران يفيق ، فإن المحب لا يفيق ... وهذا رباط قوى يجمع معاقد المعانى فى الأبيات ويوثق عراها ، فضلا عن اشتراكها فى وصف " شعثاء " .

والخبيئة فى قوله : (كأن خبيئة من بيت رأس) هى الخمر ، من (خبأ الشئ يخبؤه خبأ : ستره) [1] ، فالكلمة مبنيه على معنى الستر والخفاء ، ثم أطلقت علما على الخمر ، قال رواة الديوان : (الخبيئة : الخمر المصونة المضنون بها) [2] .

([1]) لسان العرب : (خ ب أ) .

([2]) ديوان حسان : ص ٧٢ . ولم يذكر الثعالبى هذا الاسم فى أسماء الخمر وأوصافها (ينظر فقه اللغة وسر العربية للثعالبى ت ٤٣٠ هـ ص ٢٧٠ - ٢٧٢ ت / مصطفى السقا وآخرين ط / مصطفى الحلبى ١٣٢٩ هـ = ١٩٧٢ م ، ولم أقف عليه فى مادة (خ ب أ) فى اللسان ، ولا القاموس المحيط ولا مقاييس اللغة ولاتاج العروس للزبيدى . فينبغى أن يضاف إلى أسمائها وأوصافها . وسميت " خبيئة " ؛ لأنها ساترة أو مستورة ، فيحمل " فعيل " على معنى فاعل أو مفعول ، فهى ساترة للب شاربها ، حاجبة لنور عقله - على نحو ما سميت الخمر خمرا لأنها تستر عقل شاربها - وهى مستورة لأنها مخبوءة مصونة مضنون بها . وهو المعنى المقصود فى بيت حسان .

و (خبيئة) هى رواية ابن هشام والديوان (ينظر السيرة النبوية مع الروض الأنف : ٤ / ١٠٧ وديوان حسان : ص ٧١) ، وتروى فى كثير من المصادر (سبيئة) : " من سبأ الخمر يسبؤها سبأ وسباء : شراها... أى أنها من جودتها يغلو اشتراؤها ، ولا يقال ذلك إلا فى الخمر ، ومنه سميت الخمر سبيئة .. وسمى الخمار : سباء (لسان العرب : س ب أ بتصرف وتنظر هذه الرواية فى رسالة

وقول حسان : (كأن خبيئة ...) تشبيه لريقها بالخمر الممزوجة بالعسل والماء ، وقد ركز حسان فى التشبيه على الطعم ولذا قدم تشبيهه بالخمر الممزوجة بالعسل ليذهب مرارتها ، ثم راعى مع الطعم الصورة ، فشبه منظر الريق حين يجرى رضابه على أسنان جميلة بمنظر الخمر حين تمزج بالماء ، فهو ريق عذب كالدر ، يجرى فى فم ناضر .

والخمر حين تمزج بالعسل تسمى " البِتْع " [1]، ولم أجد لها حين تمزج بالماء اسما يدل عليها [2] ، وإن كان مزجُها به مما يَستحسِن صُورتَه الشعراءُ ويمتدحونها ، ومن ذلك قول ابن المعتز :

وأمطرَ الكاسَ ماءً من أبارقِه ، ‏ فأنبتَ الدُّر فى أرضٍ من الذَّهبِ
وسَبَّحَ القومُ لمَّا أنْ رأوا عَجَباً ، ‏ نُوراً من الماءِ فى نارٍ من العِنَبِ ! [3]

وقال أبو بكر الخالدى :

قامَ مثلَ الغُصـنِ الميَّادِ فى لينِ الشَّبابِ
يَمْزُجُ الخمرَ لنا بالصَّفْوِ من ماء السَّحابِ
فكـأنَّ الـراحَ لما ضَحِكتْ تحتَ الحُبابِ
وَجْنَةٌ حَمْراءُ لاحَـتْ لكَ من تحتِ نِقَابِ [4]

= الغفران : ص ٢٣٤ ت د / بنت الشاطئ ، والكامل للمبرد : ١ / ١٢٦) ولم يذكره الثعالبى فى أسماء الخمر وأوصافها (ينظر فقه اللغة : ٢٧٠ – ٢٧٢) فيضاف إلى ما ذُكر .

ويروى : " سَبِيَة " الديوان ص ٧٢ ، و " جَنِيَّة " : من الجَنَى ، وهو كل ما يَجنَى من الشجر : اللسان " ج ن ى " .

وأحق هذه الروايات بالمعنى – فيما أرى – رواية " خبيئة " وإن انفرد بها ابن هشام والديوان ؛ لأن المقام لتشبيه ريقها بالخمر المخبوءة لنفاستها ، المضنون بها ، و " خبيئة " تؤدى هذا المعنى ، فضلا عما فيها من ظلال المنعة والاستتار ، فلا يصل إلى ريق هذه المرأة إلا من جد فى التنقيب عن هذه الخبيئة المستورة فى " بيت رأس " ، وهو وإن كان اسم موضع اشتهر بصناعة الخمر ، إلا أنه يقوى الدلالة على المنعة ووعورة الوصول .. فهى " خبيئة " ، ثم هى " فى بيت رأس " !! ورواية " سبيئة " لا تؤدى هذه المعانى ، لأنها تصف السخاء فى شراء الخمر التى يغلو ثمنها لجودتها ، وليس هذا مقام الفخار بالسخاء فى شراء الخمر .

(1) ينظر فقه اللغة للثعالبى : ص ٢٧٢ . " والبِتْعُ : نَبِيذٌ يُتَّخَذُ من العسل ، كأنه الخمر صلابة . وبَتَعَها : خَمَّرها . والبَتَّاعُ : الخَمَّار " (لسان العرب : ب ت ع) .

(2) وقد وصفها حسان حين تمزج بالماء بالقتل فقال :

إن التى ناولتَـنى فرددتُـها ‏ قُتِلَتْ - قُتِلْتَ ! - فهاتِها لم تُقْتَلِ
كلتاهما حَلَبُ العَصيرِ ، فعاطنى ‏ بـزُجاجـةٍ أرخاهُما للمَفْصِلِ

البيتان فى ديوانه:ص ١٢٤ ، ولهما حكاية حسنة أوردها ابن هشام فى " شرح بانت سعاد ": ص ٢٢، نقلا عن ابن الشجرى فى أماليه

(3) غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات لابن ظافر الأزدى : ص ١٣١ ت / محمد زغلول سلام و د / مصطفى الصاوى الجوينى . ط دار المعارف والبيتان فى ديوان ابن المعتز : ٢ / ٢١٩ .

(4) المصدر السابق .

وقال أبو عثمان الخالدى :

فلو ترى الكاسَ حـين يَمزُجُها   رأيتَ شيئاً من أعجبِ العَجَبِ

ناراً ، حَواها الزُجاجُ ، يُلْهِبُها الـ   ـماءُ ، ودُرًا يـدورُ فى ذهبِ (1)

وهذا الاستحسان - فيما أرى - راجع إلى الإبداع فى تصوير الشكل ، ورسم صورة الخمر حين تمزج بالماء ، فالماء حين يقطر عليها كالدر ينبت فى أرض من الذهب ، وكالنور فى نار من العنب ، وكالنقاب الذى تلوح من تحته وجنة حمراء .

وموقع الفعل الناسخ (يكون) فى قول حسان : (يكون مزاجها عسل وماء) أشبه بالزائد ، فلو قال الشاعر (كأن خبيئة من بيت رأس ، مزاجها عسل وماء) لأدى المعنى ؛ ولكن التعبير بهذا الفعل المضارع أفاد التجدد والاستمرار ، وأن كون ريقها مزاجه عسل وماء لا يقتصر على وقت دون وقت ، وإنما يتجدد له ذلك الوصف مرة بعد مرة ووقتا بعد وقت ، فهو متجدد دائما .

وقول حسان :

٧ - على أنيابها ، أو طَعْمَ غَضٌ   من التُفَّاحِ هَصَّرَهُ اجْتِناءُ

متصل بالبيت السابق اتصال الخبر بالمبتدأ ، لأن (على أنيابها) خبر (كأن) المذكورة فى البيت السابق ، قاله ابن منظور (2) ، (وبه تم التشبيه ، ومنه عُرِفَ المشبه ، وهو الريق ... والأنياب غير مقصودة لذاتها ، وإنما خُصَّت بالذكر لأنها تحدد المقبل من الفم ، ومن المقبل يتذوق الريق ، وهو المقصود بالتشبيه والوصف) (3) .

وقال السهيلى (٥٠٨ - ٥٨١ هـ) : (خبر " كأن " فى هذا البيت محذوف ، تقديره : كأن خبيئة فى فيها ، ومثل هذا المحذوف فى النكرات حسن ، كقوله :

إنَّ محلاً ، وإنَّ مُرتَحلاً

أى : إن لنا محلا ، وكقول الآخر :

ولكنَّ زَنجياً طويلاً مَشافِرُه

---

(1) المصدر السابق : ص ١٣٣ .

(2) ينظر لسان العرب : (س ب أ) .

(3) دراسات أدبية د / عبد المنعم يوسف : ص ١٠٩ بتصرف .

وفى صحيح البخارى فى صفة الدجال : " أعْوَرُ ، كأنَّ عِنَبةً طَافِيةٌ " ، أى : كأن فى عينيه ، وزعم بعضهم أن بعد هذا البيت بيتا فيه الخبر ، وهو :

على أنيابِها ، أو طَعْمَ غَضٍّ　　　من التُّفاح ، هَصَّره اجْتِناءُ

وهذا البيت موضوع لا يشبه شعر حسان ، ولا لفظه) [١] .

وفى هذا النص الذى أثاره السهيلى أمران :

الأمر الأول : أن خبر كأن محذوف ، والتقدير : " كأن فى فيها خبيئة " ، وذكر شواهد لهذا الحذف ، وبين حسنه ، ومنها قول الأعشى :

إنَّ مَحَلاً ، وإنَّ مُرْتَحَلا　　　وإنَّ فى السَّفْرِ إذ مَضَوا مَهَلا

وهو من شواهد " الكتاب " و " دلائل الإعجاز " على حذف خبر " إن " ، لأنها فى مثل هذا الموضع أغنت عنه ، والتقدير : إن لنا محلا ، وإن لنا مرتحلا [٢] ، (والحذف هنا يفيد العبارة قوة وامتلاء ... لأن استرخاء العبارة حينئذ يوحى بفتور الشعور بالمعنى ... كما أن الحذف مناسب للمقام ، لأن الأعشى يصف السرعة الخاطفة فى الحلول والارتحال ، وكأن هذه السرعة التى يحسها لزوال الدنيا انعكست على عبارته فطوى فيها كثيرا من الكلمات ؛ لأن سياق المعنى فى البيت طى وإضمار وابتلاع : حلول يخطفه ارتحال ، وارتحال دائم إلى بطن الغيب ، وسَفْرٌ – أى مسافرون – لا أَوْبَةَ لهم) [٣] .

ومثل " إن " فى ذلك " كأن ، ولكن ، وليت ، ولعل " ، واستشهد السهيلى لحذف خبر " لكن " بقول الفرزدق :

فلو كنت ضبيا عرفت قرابتى　　　ولكن زنجيا طويلا مشافره [٤]

---

(١) الروض الأنف : ٤ / ١١٧ ، ١١٨ .

(٢) ينظر الكتاب لسيبويه : ٢ / ١٤١ ت / عبد السلام هارون . ط / الهيئة المصرية العامة للكتاب ط . ثانية . ودلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر : ص ٣٢١ .

(٣) خصائص التراكيب د / محمد أبو موسى : ص ٢١٩ ، ٢٢٠ بتصرف . نشر مكتبة وهبة .

(٤) البيت من شواهد الخزانة ، الشاهد (٨٧٩) : ١٠ / ٤٤ .

واستشهد لحذف خبر " كأن " بقول النبى صلى الله عليه وسلم فى صفه الدجال : (أعوُر كأنَّ عِنبةَ طَافِيةَ) [1] .

وما ذكره السهيلى هنا فى غاية من السداد ، إذا سلمنا له أن البيت الذى ذُكِرَ فيه الخبرُ موضوع لا يُشْبِه شِعْرَ حسان ولا لفظَه ، وفى هذا مقال .

والأمر الثانى : حكمه بأن هذا البيت موضوع لا يشبه شعر حسان ولا لفظه . وفيه نظر من حيث الرواية ، ومن حيث المعنى :

١ - فأما من حيث الرواية / فإن السهيلى اعتمد فى حكمه هذا على رواية ابن هشام (ت ٢١٣ هـ) ، وهو وإن كان أقدم من روى هذه القصيدة إلا أنه أسقط منها أبياتا ثبتت فى كثير من المصادر الموثوق بها .

وإذا كان الُمبردُ (ت ٢٨٥ هـ) وابنُ القيِّم (ت ٧٥١ هـ) لم يثبتا هذا البيت [2] ، فذاك لأن ابن القيم تابع ابن هشام فى رواية هذه القصيدة واقتفى أثره ، وأما المبرد فإنه استشهد بأبيات حسان عند إيراده نُبَذاً من أقوال الشعراء فى الخمر وشاربها ، ولا يحُتج بصنيعه فى نفى الرواية ؛ لأنه يختار ولم يكن من همه ضبط الرواية .

---

(1) من حديث رواه البخارى فى صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء باب ٤٧ : (قول الله تعالى " واذْكُرْ فى الكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ من أَهْلِهَا) جـ ١٠ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ برقم : ٣٤٣٩ ، والحديث بتمامه : عن نافعٍ ، قال عبدُ الله : ذَكَرَ النبى صلى الله عليه وسلم المسيحَ الدجَّالَ ، فقال : إن الله ليس بأعورَ ، ألا أن المسيحَ الدجالَ أعورُ العينِ اليُمنى ، كأن عَيْنَه عِنبةٌ طافِيةٌ) ، وأطرافه فى الصحيح ٣٠٥٧ ، ٣٣٣٧ ، ٤٤٠٢ ، ٦١٧٥ ، ٧١٢٣ ، ٧١٢٧ ، ٧٤٠٧ ولم أجد الرواية التى استشهد بها الإمام السهيلى على حذف خبر كأن ، لا فى صحيح البخارى ، ولا فى الكتب الستة.

(والعِنَبَةُ : الحَبَّةُ من العِنَب ، قال الجَوْهَرى : وهو بناء نادر ؛ لأن الأغلبَ على هذا البناء الجمعَ ، نحوُ : قِرْدٍ وقِرَدَةٍ ، وفِيلٍ وفِيَلَةٍ ، وثَوْرٍ وثِوَرَةٍ ، إلا أنه قد جاء للواحد ، وهو قليل ، نحو : العِنَبَةِ ، والتِّوَلَةِ ، والجِبَرَةِ ، والطِّيَبَةِ ، والخِيَرَةِ ، والطِّيَرَةِ . قال : ولا أعرِف غيرَه ؛ فإن أردتَ جمعَه فى أدنى العدد جمعته بالتاء ، فقلت : عِنَباتٌ ، وفى الكثير : عِنَبٌ وأعْنابٌ) [اللسان : (ع ن ب) بتصرف] .

قال ابن حجر : (كأن عينه عنبة طافية : أى بارزة ، وهو من طفا الشئ يطفو ، بغير همز ، إذا علا غيره ، شبهها بالعنبة التى تقع فى العُنقود بارزةً عن نظائرها) [فتح البارى : ١٠ / ٢٣٢] .

(2) ينظر الكامل للمبرد : ١ / ١٢٦ وزاد المعاد لابن القيم : ٢ / ١٨٦ وينظر السيرة النبوية لابن هشام ٤ / ١٠٦ ، ١٠٧ مع الروض الأنف .

وأما الذين أثبتوا هذا البيت فأقدمهم - فيما وقفت عليه - رواة الديوان ، ومنهم من عاصر ابن هشام كابن حَبِيب (ت ٢٤٥ هـ) ، وهو من الرواة الثقات ، ثم أبو العلاء المعرى (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) فى رسالة الغفران ، ثم ابن منظور (٦٣٠ - ٧١١ هـ) فى لسان العرب : " ج ن ى " ؛ ومن أجل هذا أرجح روايتهم بإثبات الخبر فى قول حسان (على أنيابها ...) فالبيت من حيث الرواية لحسان ، وليس موضوعا عليه كما ذكر السهيلى .

وارتضى الدكتور / عبد الحليم حفنى ما قاله السهيلى ، واحتج به على الانتحال فى شعر حسان ؛ معللا لكلام السهيلى بأن البيت يتحدث (عن التفاح ، وهو لم تنتبه الجزيرة العربية ، ولم تعرفه حياتها المعيشية للعرب إلا بعد أن رحلوا فى الفتوح الإسلامية إلى الشام ثم إلى بلاد أخرى تعرف التفاح ، وذلك بعد وفاة الرسول صلى الله عليه سلم)[1] .

ويَرُدُّ هذا التعليلَ ما ثبت من أن حسان رحل فى جاهليته إلى بلاد الشام كثيرا ، واتصل بملوكهم ومدحهم ، وأخباره وأشعاره فى ذلك مشهورة وموثقة فى شتى مصادر الأدب التى ترجمت له ، فمعرفته بالتفاح وزراعته وكيفية اجتنائه أمر يقبله العقل ولا ينكره .

٢ - وأما من حيث المعنى ؛ فإن ذكر الخبر " على أنيابها " يتوافق مع منهج حسان فى تأخير اللفظ المنبئ عن صاحبته تشويقا إلى معرفتها ، كما فى تأخيره ذكر " شعثاء " بعدما ذكر طيفها ، وما كان من خبره معه فى قوله :

فدَعْ هذا ، ولكنْ ما لطيفٍ ... يُؤرِّقُنى إذا ذهب العِشَاءُ
لِشَعْثاءَ التى قد تَيَّمَتْهُ ، ... فليس لقَلْبِه منها شِفَاءُ ؟

بل ويتوافق مع حركة المعنى فى مطلع القصيدة ، فقد بناه الشاعر على هذه الطريقة التشويقية الممتعة ، فقال :

عَفَتْ ذاتُ الأصابعِ ، فالجِواءُ ... إلى عَذْراءَ ، منزلُها خَلاءُ

ثم كشف عن حقيقة هذه المواضع التى عددها ، فقال :

دِيارٌ من بنى الحَسْحَاسِ قَفْرٌ ، ... تُعفِّيها الرَّوامِسُ والسَّماءُ

ويتوافق مع هذا المنهج أيضا تلك الزيادة التى انفرد بها أبو العلاء المعرى (٣٦٣ - ٤٤٩ هـ) فى روايته لهذه الأبيات ، ونصها عنده[2] .

---

(1) الشعراء المخضرمون د / عبد الحليم حفنى : ص ٢٥٠ .

(2) رسالة الغفران : ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .

كـــأنَّ خَبِيئَـــةً مـــن بَيـــتِ رَأسٍ ... يكــونُ مِزَاجَـهَا عَسَــلٌ ومَــاءُ
علــى أنيابِــها ، أو طَعْــمَ غَــضّ ... مــن التُفَّــاحِ هَصَّــرَهُ اجْتِنَـاءُ
علــى فِيـها ، إذا مــا الليــلُ قَلَّــت ... كواكبُـه ، ومــالَ بــها الغِطـاءُ
إذا ما الأشْرِبَاتُ ذُكِرْنَ يَومــــاً ، ... فهُنَّ لطَيِّبِ الرَّاحِ الفِــــدَاءُ

البيت الثالث انفرد بروايته – فيما وقفت عليه – أبو العلاء ، و (على أنيابها) ، و (على فيها) خبران لـ " كأن " ، وكل منهما صدر بيته ؛ وكل منهما مشبه مؤخر ، والمشبه به فى البيتين مقدم ، ولى أداة التشبيه " كأن " ووصف بوصفين متتالين ، فوصفت " خبيئة " بأنها " من بيت رأس " و بـ (يكون مزاجها عسل وماء) ، ووصف المشبه به الثانى وهو (طعم غض) بأنه (من التفاح) و بـ " هصره اجتناء " ، وهذا تناسق يتوافق مع منهج حسان وبنائه التركيبى الذى بنى عليه هذه المقدمة ، مع تناسب دقيق وتشابه بديع فى تقسيم أجزاء الكلام ومقاطعه ، وتوزيع أنغامه ؛ مما يقوى نسبة البيتين إليه وينأى بهما عن شبهة الوضع والانتحال وأنهما لا يشبهان شعر حسان و لا لفظه .

وجعل الشيخ عبد المتعال الصعيدى أمثال قول حسان من التشبيه الضمنى ، قال فى حديثه عن " كأن " : (وقد تفيد التشبيه الضمنى ، كما فى قول الشاعر :

كأنَّ دنانِيراً على قَسَمَاتِها ، ... وإنْ كان قد شَفَّ الوُجُوهَ لِقَاءُ

فإنه لا تكون الدنانير على قسماتها إلا إذا كانت تشبيها) [1] ، وهذا بعيد جدا ؛ لأن ذكر " كأن " يجعل التشبيه صريحا ، وهل يكون التشبيه ضمنيا مع التصريح بالأداة ؟

وقول حسان (أو طعم غض من التفاح ، هصره اجتناء على فيها) تشبيه آخر للريق ولكن فى طور جديد ، وهو حين يكون على فم هذه المرأة ، بعدما شبهه أولا حين كان على أنيابها أى بداخل فمها ، وكأن ذائق هذا الريق يجد له مذاقين ، وهذا تفصيل للمشبه واستيعاب لأحواله .

وقد أجاد حسان التشبيه الثانى حين اشترط فى المشبه به " وهو التفاح " شرطين " :

الأول : أن يكون غضا ، أى طريا ناعما لم يتغير ، ولم تلوثه الأيدى ، ولم تقربه الأفواه [2] .

والثانى : أن يكون قريب عهد بالشجر ، بحيث يقع ذوقه عقب جنيه دون فاصل .

---

(1) بغية الإيضاح : ٣ / ٣٤ .

(2) لسان العرب : (غ ض ض) .

وفى هذا التشبيه إلماح إلى تشبيه آخر ، وهو تشبيه ذائق هذا الريق بقاطف ثمرة التفاح الغض الناضر ... وفيه أيضا أن هذه المرأة مشبهة بالشجرة المثمرة ، وقد شاع فى لسانهم الربط بين المرأة الجميلة والشجرة الناضرة ، فكنوا عن المرأة بالشجرة ، كما فى قول حميد بن ثور :

أبَى اللهُ إلا أنَّ سَرْحَةَ مالكٍ   على كل أفنانِ العِضاةِ تَرُوقُ [1]

" فقد كَنَى بالسَّرْحَة عن المرأة ، وفيها تفرد المكنى عنه بالجمال الذى أشار إليه بعجز البيت عن صونه عن تناول أفهام العامة " [2] ، قال الزمخشرى : " ومن المجاز قولهم لامرأة الرجل : هى سرحته [3] . وكنى عنها آخر بالنخلة ، فقال :

ألاَ يا نَخْلةً من ذاتِ عِرْقٍ   عَليكِ ورَحْمَةُ اللهِ السَّلامُ [4] .

والشرطان يصوران جودة التفاح ، وماذا يطلب فى الفاكهة غير هذين الشرطين الجامعين لفضائلها ؟ وللاهتمام بصفة الغُضُوضَة والعناية بها قدمها حسان على الموصوف ، فقال : (غض من التفاح) ، ولم يقل : " التفاح الغض " ، وكأن هذه الصفة هى جوهر ما يقصده حسان ، ولذا صدر بها المشبه ؛ افتخاراً منه بجسارته على تذليل تلك المرأة العصية المصونة التى يصعب الوصول إليها ؛ لأنها " خبيئة من بيت رأس " ، ولأنها هى الطرية الندية الناضرة التى لم تمسها يد ، ولم يقترب إليها فم . وللنفوس كَلَفٌ وشوق إلى ارتياد الروض الأنف من كل شئ ، وإن لقيت فى سبيل ذلك العنت والمشقة ، قال الشاعر :

جَارِيةٌ شَبَّتْ شَباباً غضّاً ،   لا تُحْسِن التقبيلَ إلا عَضّاً [5]

وقال طُرَيحٌ الثقفىُّ :

أيام سلمى غَرِيرةٌ أُنُفٌ ،   كانهـا خُـوطُ بانةٍ رُؤُدُ [6]

---

(1) ديوان حميد بن ثور الهلالى : ص ٤١ صنعة الأستاذ عبد العزيز الميمنى . نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٧١ هـ = ١٩٥١ م . وتروق هنا بمعنى : تفوق : يريد أنها تزيد عليها بحسنها وبهائها ، من قولهم راق فلان على فلان : إذا زاد عليه فضلا (اللسان : ر و ق) .

(2) نظرات فى البيان د / عبد الرحمن نجم الدين الكردى : ص ٢٥٦ مطبعة السعادة ط ثالثة ١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م .

(3) أساس البلاغة للزمخشرى : (س ر ح) ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(4) أسرار البيان د / على محمد حسن العمارى : ص ١٨٦ ط . المطابع الأميرية ١٤٠٢ هـ = ١٩٨٢ م .

(5) أساس البلاغة للزمخشرى : (غ ض ض) .

(6) المصدر السابق : (أ ن ف) .

ولذا عشق العرب بفطرهم السليمة الكلأ الأنف ، والمنهل الأنف ، والكأس الأنف ، والمرأة الأنف ، وكل ماهو غض لم تغيره يد ، ولم يقربه أحد .

واختار حسان طعم التفاح دون غيره من الفاكهة ؛ لأنه يجمع بين جمال الطعم وجمال الرائحة ، إذ هو مشتق من " التَّفْحَةِ : وهى الرائحة الطيبة " [1] .

وقوله : (هصره اجتناء) [2] امتداد للبيان عما يفتخر به الشاعر فى غزله ، ولذا اختار صيغة الفعل المضعف (هَصَّر) بمعنى " أمال " [3] ، وفى اللسان : " هَصَرَ الشئَ يَهْصِرُه هَصْراً : جَبَذه وأماله ... وأصل الهصر أن تأخذ برأس عُودٍ فتَثْنِيهُ إليك وتَعْطِفَهُ ... وأنشد لامرئ القيس :

وَلَمَّا تَنازَعْنا الحدِيثَ وأسْمَحَتْ   هَصَرْتُ بغُصْنٍ ذى شَمَارِيخ مَيَّالِ [4]

وصيغة الفعل المضعف تصور شدة المعاناة فى جنى هذه الثمار ، وكذا الشاعر لم ينل من صاحبته ما نال إلا بعد مغالبة بالرقة واللين وقوة الشوق والمحبة حتى انقادت له ، وقد ذكر رواة الديوان هذا المعنى بعبارة أوجز وأحكم ، قالوا : " وإنما أراد أنه مُدْرِكٌ مُسْتَحْكِم " [5] .

والاجتناء [6] : الاقتطاف ، ومنه جَنَيْتُ الثمرةَ ، وأكثر ما يستعمل الجَنِىُّ فيما كان غضا ، قال تعالى : (تساقط عليك رطبا جنيا) [7] . وروى : " هصَّره الجَنَاء " [8] ، وأميل إلى الرواية الأولى " اجتناء " ؛ لأنها تسير فى خط صاعد من القوة والاستحكام ، وتلائم صيغة التضعيف فى الفعل " هصر " ؛ لأن " جنى " و " اجتنى " بمعنى ، إلا أن فى الثانى من القوة والاستحكام ما ليس فى الأول .

---

(1) لسان العرب : (ت ف ح) .

(2) هذه رواية الديوان وكثير من المصادر . ويروى " عصرها " اللسان " ج ن ى " .

(3) ديوان حسان : ص ٧٢ .

(4) لسان العرب : (هـ ص ر) بتصرف .

(5) ديوان حسان : ص ٧٢ .

(6) اجتناء : رواية أبى العلاء فى رسالة الغفران : ٢٣٤ ولسان العرب : (س ب أ) .

(7) ينظر المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى : (ج ن ى) و الآية من سورة مريم : ٢٥ .

(8) رواية الديوان : ٧٢ واللسان : (ج ن ى) .

ولما فى بناء الأبيات الثلاثة التى تشبه ريق صاحبته من صنعة بيانية ، وتركيب يحتاج إلى بصر فى فهمه – أرى أن حقا على من ينشدها أن يقف على المشبه (على أنيابها) و(على فيها) ولا يتقيد بالوقوف على القافية ؛ لأن تمام المعنى لا يكون إلا عند المشبه .

وقول حسان – فى رواية أبى العلاء – (إذا ما الليل قلت كواكبه ومال بها الغطاء) كناية عن الوقت المتأخر من الليل ، وهو قيد فى التشبيهين السابقين ، يكشف عن أن ريق صاحبته يكون مشبها بالخمر وبطعم الغض من التفاح فى هذا الوقت المتأخر من الليل الذى يتغير فيه طعم الفم لعدم جريان الريق ... وإذا كان هذا طعم ريقها فى ذلك الوقت ، فهو فى غيره أفضل .

ويلاحظ أن (حسان لم يتوسع فى غزله هنا ، ولم يتخذه معرضا يجلو فيه محاسن حبيبته ومظاهر جمالها ، فهذا مالم يقصده هنا ، وإنما قصد أن يطلعنا على مقدار حبه ، وما صنع هذا الحب فيه ، ولذلك اكتفى من شئونها بأمرين : طيفها ، وريقها . وعالجهما على نحو يحقق غايته ، ويشعرنا بعمق هذا الحب ، وعمق آثاره فى نفسه ... فعرفنا بحديث الطيف مقدار شقائه فى البعد والجفاء ، وعرفنا بحديث الريق مقدار سعادته فى القرب والصفاء) [1] .

* * *

وبعدما فرغ من تشبيه الريق بالخمر دعاه ذكر الخمر إلى وصفها وعقد مقارنة بينها وبين الريق الذى يشبهها ، ففضل خمر الريق عليها ، وجعل سائر الأشربات والخمور فداء لخمر الريق ؛ وبهذا لم يكن وصفه للخمر مبتورا عن وصفه لريق شعثاء ، بل كان امتدادا له وإسقاطا عليه ، وجعل حسان قوله :

إذا ما الأَشرِباتُ ذُكِرنَ يوماً ، فهُنَّ لطَيِّبِ الرَّاحِ الفِدَاءُ

قنطرة يعبر عليها إلى وصف الخمر ، ويربط بها بين وصف الخمرين : خمر الريق ، والخمر الحقيقية ، وهذا تصرف ذكى من الشاعر .

كما ربط بين البيتين بأسلوب التكرار ، فكرر فى صدر هذا البيت أداة الشرط التى ذكرها فى البيت السابق (إذا ما) .

---

(1) دراسات أدبية د . عبد المنعم يوسف : ص ١٢٩ بتصرف .

وزيادة " ما " بعد " إذا " لتأكيد دلالتها على ربط الجواب بالشرط ، وتقوية ترتبه عليه [١] ، فكون هذه الأشربات فداء لطيب الراح هو المتبادر إلى الذهن دائما كلما ذكرت الأشربات ، فبين خطورهما بالبال تلازم ، وبهذا أحكم حسان الرباط بين معاقد الكلام ، وجعله لحمة واحدة .

والأشرِبةُ جمع شَرابٍ ، والأشْرِبَاتُ . جمع أَشْرِبةٍ ، فهى جمع الجمع ، واختاره حسان للدلالة على المبالغة فى الكثرة ، والمراد بها سائر الخمور كما يفهم من سياق مقارنتها بخمر الريق .

والتعبير بـ " ذُكِرْنَ " يدل على أن فضل خمر الريق على سائر الخمور ظاهر لا يحتاج إلى مقارنة ومفاضلة ، يكفى فيه مجرد " ذكر " الأشربات ، فهو المذكور إذا ذكرت ، ومن هذا المعنى قول المَرَّارُ بن مُنقِذ (من شعراء الدولة الأموية) :

وأنا المذكورُ فى فِتْيانها ... بفَعالِ الخيرِ ، وإنْ فِعْلٌ ذُكِرْ [٢]

ونكر حسان (يوما) لإفادة العموم والدوام ، أى أن هذه المفاضلة ثابتة ومستقرة لا تتغير بحسب اليوم الذى تذكر فيه ، فمر الأيام لا يغير منها شيئا .

وقوله (فهن) يعنى الأشربات ، (لطيب الراح) ، الراح : هى الخمر (التى يرتاح شاربُها ويقال : بل هى التى يستطيب ريحها . ويقال : بل هى التى يجد شاربها رَوْحاً وقد جمع ابنُ الرُّومى هذه المعانى فى قوله ، وأحسن :

واللهِ ، مـا أدرى لأيَّـةِ عِلَّـةٍ ... يَدْعُونها فى الرَّاحِ باسمِ الرَّاحِ

ألرِيحِها ، أم رَوْحِها تحتَ الحَشَا ... أم لارتياحِ نديمِها المُـرْتاحِ ؟) [٣]

وحمل كثير ممن وقفت على كتبهم من العلماء بالشعر والدارسين له لفظ " الـراح " فى قول حسان (فهن لطيب الراح الفداء) على أنها الخمر ، فقالوا : إن حسان يفضل الخمر على

---

(١) ينظر بحوث قرآنية ولغوية للشيخ عبد الرحمن تاج ، أعدها أبو بكر عبد الرازق : ص ٢٥٤ ط المكتب الثقافى / القاهرة ط أولى ١٩٩٠ .

(٢) البيت فى الحماسة البصرية لصدر الدين على بن أبى الفرج بن الحسن البصرى (ت ٦٥٦ هـ) : ١ / ٣٠٤ ط المجلس الأعلى للشئون الاسلامية . القاهرة ١٣٩٨ هـ = ١٩٧٨ م .

(٣) فقه اللغة للثعالبى : ص ٢٧١ وينظر ديوان حسان : ص ٧٢ .

سائر الأشربات [1] ، وقالوا : إن (البيت يعبر عن رأى الشاعر فى الخمر ، فهى عنده فوق كل شراب ، بل إنما أهل لأن تفدى بأعلى الأشربة وأغلاها) [2] . وليس المراد بها شيئا مما ذكر ، بل هى خمر الريق التى هى عنده أفضل من الخمر الحقيقية وأفضل من سائر الأشربات .

وجرى حسان على منهجه فى بناء تراكيبه فقدم الصفة على الموصوف كما فعل من قبل فى (غض من التفاح) فقال : (لطيب الراح) ولم يقل : " للراح الطيبة " ؛ اعتناء بهذه الصفة ؛ لأنها هى التى ميزت خمر شعثاء النابعة من ريقها العذب المصفى الممزوج بالعسل والماء على سائر الخمور .

وتعريف المسند بـ (أل) فى قوله (فهن ... الفداء) يفيد قصر الفداء على الأشربات ؛ لأن المقصور فى مثل هذه التراكيب هو المعرف بـ " أل " الجنسية سواء تقدم أم تأخر [3] .

والبيت الثانى فى وصف الخمر هو قوله :

نُوَلِّيها المَلامَةَ - إنْ أَلَمنا - إذا ما كان مَغْثٌ أو لِحاءُ [4]

وهو كناية عن وصف ما تفعله الخمر بالعقول ، حيث تذهب بها فيقع القتال والسباب ، واستخدام حسان " إذا " الشرطية فى قوله (إذا ما كان مغث أو لحاء) يفيد تحقق مدخولها ، فوجود القتال والسباب الناشئين عن فعل الخمر أمر محقق . ووثق هذا التحقيق بزيادة " ما " بعدها ، على نحو ما سبق فى قوله : " إذا ما الليل قلت كواكبه " و " إذا ما الأشربات ذكرن يوما " ؛ وبذلك يكرر حسان " إذا ما " هذه ثلاث مرات فى ثلاثة أبيات متتاليات ، حرصا منه على توثيق كلامه وتأكيده .

---

(1) ينظر ديوان حسان : ص ٧٢ و " حسان بن ثابت " د / محمد طاهر درويش : ص ٢٩٣ .

(2) دراسات أدبية د / عبد المنعم يوسف : ص ١١٠ .

(3) ينظر " من أسرار التركيب البلاغى " د / السيد عبد الفتاح حجاب : ص ١٢٠ نشر المكتبة التوفيقية ط أولى ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .

(4) " المَغْثُ " : القتال . واللحاء : السباب .. وألامَ الرجلُ يُلِيمُ إلامةً إذا أتى ما يُلامُ عليه . ويقال لَحَاهُ الله : أى كشف سِتْرَه " (ديوان حسان : ص ٧٢ بتصرف) قال المبرد : " يقول : يعتذر السكران بأن يقول : كنت سكران ، فيُعذَر " (الكامل : ١٢٦ . وينظر الروض الأنف " ٤ / ١١٨ واللسان : م غ ث ، ل ح ى) . = وروى : " ألمنا " بالبناء للفاعل : أى أتينا ما نلام عليه ، وبالبناء للمفعول : أى وقع علينا اللوم والعتاب . (ينظر اللسان : ل و م ، ودراسات أدبية : ص ١١١) .

وفى كلمتى " مَغْثٌ – ولِحَاء " من الغرابة ما يكافئ ما يفعله السكران البَاتُ (وهو الذى لا يَعْقِلُ شيئا من أمره) [1] بعدما استبدت به حُمَيَّا الخمرِ وسَوْرَتُها .

وشطرا البيت يكشفان عن حالين متقابلين : حال الصحو والإفاقة من سطوة الخمر وسلطانها على العقل (فى الشطر الأول) ، وحال السكر وغياب العقل وما يصدر عن ذلك من قتال وسباب (فى الشطر الثانى) .

وصور حسان ما يشعر به المخمور بعدما يفيق من النفور والتبرؤ مما صنع فى سكره فاختار صيغتين قويتين فى قوله (نوليها الملامة) بما فى الأولى من تضعيف يزيد معناها قوة ، فهم يولون وجوهم إلى الأعتذار عما بدر منهم بأنهم كانوا سكارى ، وبما فى الثانية من دلالة على شدة اللوم وقسوته ؛ ولذا آثر التعبير بها على التعبير باللوم . وكأن حال الصحو حال نفور وهروب سريع من تبعات السكر ومخازية .

وقوله (إن ألمنا) قيد فى الفعل ، أى أنهم لا يلقون بالملامة على الخمر إلا إن صدر منهم لوم لأنفسهم ، أو وُجِّه إليهم من غيرهم ، فإذا انتفى القيد انتفت الملامة أصلا . واستخدم حسان هنا (إن) للدلالة على الشك ، وهذا يعنى أن صدور اللوم مشكوك فيه لما دَأَبُوا عليه من معاقرة الخمر دون لَوْمٍ أو محاسبة .

ثم علل حسان لما يحدث حال السكر من القتال والملاحاة بقوله :

ونشربُها فتتركُنا مُلُوكاً ، وأسْداً ما يُنَهْنِهُنا اللِّقَاءُ

فالخمر تجعلهم ملوكا لا يُرْهِبُهم القتال ولا ينقطعون عند الملاحاة والمنازعة ، وهل يضير الملك الشجاع أن يقتل أو يلاحى ؟

والبيت يصور عزة وشجاعة تصطنعهما الخمر فى نفس شاربها ، فيرى نفسه – ولو كان من السُّوقة والدهماء – ملكا متربعا على عرشه ، يخيل إليه أن بيده رقاب الناس ، يقتل من يشاء ، ويسب من يشاء ، ويرى الجبانُ الخَوارُ نفسه فى شجاعة الأسد لا تُرْهِبُه حرب ، ولا يصرعه نِدٌّ ، وكم فى عالم السكارى من ملوك وشجعان ؟! وهى صورة بارعة التقطها حسان

---

(1) فقه اللغة : ص ٢٧٢ .

لتنبئ عن طبائع هذا العالم المخمور وما يدور فى نفوس أفراده ؛ ولعل هذا مما أغرى العلماء بها ، حتى جعلوها أجود ما قالته العرب فى وصف الخمر وشاربها ، ومنها أخذ الأَخْطَلُ قولَه :

وإذا سَكِرْتُ فإننى رَبُّ الخَوَرْنَقِ والسَّرِيرِ

وإذا صَحَوتُ فإننى رَبُّ الشُّوَيهَةِ والبَعِيرِ [1]

ويلاحظ أن الشاعر استخدم الأفعال المضارعة (نوليها – ونشربها – فتتركنا – ينهنهنا) وهى أفعال تدل على التجدد والاستمرار ، مما يدل على أن دأبهم مع الخمر ودأبها معهم من الأمور المتجددة والمستمرة .

والتشبيه الذى حذف منه الوجه هو رأس المعنى الذى قام عليه وصف الخمر فى هذا البيت ، وحذف الأداة يدل على قوة تشبههم بالملوك والأسود حتى أوشكوا أن يكونوا ملوكا وأسودا على الحقيقة . وحذف وجه الشبه يترك للعقل فسحة ليتملى أكثر من معنى يشترك فيه الطرفان ، أو كما قال البلاغيون : (ليذهب العقل فيه كل مذهب) ، وعبارتهم أملأ وأحكم ، ففى تشبيههم بالملوك معنى العزة والجاه والزهو وما شابه ذلك ، وفى تشبيههم بالأسد معنى الشجاعة والإقدام ، وقوة النفس ، ونحو ذلك .

وهما من التشبيهات المألوفة كثيرة الدوران على الألسنة ، ولكن الشاعر أذهب عنهما رتابة الإلف حين استعملهما فى سياق الخمر وشاربها ، وخرج بهما عن المألوف من تشبيه الشجاع على الحقيقة بالأسد ، والعزيز بالملك ... فشبه الشجاع والعزيز اللذين اصطنعت فيهما الخمر ذلك وأوهمتها به ، وسبحت بهما فى هذا الوهم الخيالى المخمور - بالملوك وبالأسد ، فى صورة أشبه بالمسرحية الهزلية المضحكة .

وقوله : (ما ينهنهنا اللقاء) صفة لـ " أسد " ، " والنَّهْنَهة : الكَفُّ . تقول نَهْنَهْتُ فلانا إذا زجرته فتنهنه ، أى : كفَفْتُه فكفَّ ... كأن أصله من النَّهْيِ [2] . وبناء هذه الكلمة مشعر بتكرار مدلولها ، فهى تكرار لـ " نهى " " نهى " ، ونظيرها " هَدْهَدَ " يقال : " هَدْهَدَت

---

[1] ينظر الكامل : ١ / ١٢٦ ، والعقد الفريد : ٦ / ٣٧٧ ، وديوان المعانى لأبى هلال العسكرى : ١ / ٣١٤ نشر مكتبة القدسى ١٣٥٢ هـ ، وروضة المحبين لابن القيم : ص ٢٣٢ .

[2] لسان العرب : (ن هـ ن هـ) .

المرأةُ ابنَها : إذا حرَّكتْهُ لينام " [1] ، فكأنه تكرار لـ " هَدْ " هَدْ " ، وهو ملائم لتكرار ما يقع من الأم عند تحريك ولدها لينام ، فكذلك التكرار فى " نهنه " كأنه قال : كُفَّ كُفَّ ، أى : أنت لا تُرهبُ الحربَ ولو تكرر لنا الكف والزجر عنها ؛ لفرط جرأتنا وشجاعتنا .

و (اللقاء) كناية عن الحرب ، كثر استعمالها ، كما فى قول مُحْرِزِ ابنِ المُكَعْبِرِ الضَّبِّى :

كأنَّ دَنانيراً على قَسَماتِها ، وإنْ كان قد شَفَّ الوُجُوهَ لِقَاءُ

قال المرزوقى : (قوله : " وإن كان قد شف الوجوه لقاء " تعريض ، والمعنى : أن وجوههم تُشرِقُ فى الحرب وتُضِىء ، إذا صارت وجوه غيرهم مشفُوفةً متغيرة ، ويقال : شَفَّهُ المَرَضُ : إذا أذابه وهَزَلَه) [2] .

ومنه قول بشر بن أبى خازم :

بشِيبٍ لا تَخِيمُ عن المُنادِى ، ومُـرْدٍ لا يُرَوِّعُها اللِّقَاءُ [3]

قال الزمخشرى : " ومن المجاز لِقَاءُ فلانٍ لِقَاءٌ ، أى حرب " [4] ، وهو كناية لأنه ينتقل فيه من مجرد اللقاء إلى ما يلزم عنه فى حال العداوة من الحرب والقتال ، وفى الكناية إشارة إلى تأصل العداوة ، وكأن كلا من الخصمين فى واد بعيد لا يقرب من الآخر لما فى القلوب من التنافر : فإذا حصل اللقاء لم يكن إلا بالحرب ، فهى الصورة الوحيدة التى يمكن أن تجمع هؤلاء المتنافرين ؛ ولذا كنى عنها باللقاء لأنه لا وجه للقاء سواها .

وعاب بعض الأدباء هذا البيت بأن فيه قصورا فى الفخر ، ورده الألوسى ، قال : (وقد عابه على قوله : " ونشربها فتتركنا ملوكا ... " بعض الأدباء : فزعم أنه بهذا قصر فى الفخر ، فكأنه ليس فى ذاتهم سيادة أو شجاعة ؛ وإنما الخمر هى التى تفعل بهم ذلك ، أو تخيله إليهم . والجواب أن المقام مقام ذكر الخمر وصفتها ، لا مقام الفخر ، فالمطلوب هنا إنما هو توفيتها حقها واستيفاء صفتها ، وتعديد ما يأتى مدحها به ، دون نظر إلى شئ آخر ، ولكل مقام مقال . كما قالوا : إن الخمر تظهر الشجاعة فى الشجاع ، ولا تحدثها فى الجبان) [5] .

---

(1) لسان العرب : (هـ د د) .

(2) شرح ديوان الحماسة للمرزوقى : ٣ / ١٤٥٨ تحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون . نشر دار الجيل ط . أولى ١٤١١ هـ = ١٩٩١ م .

(3) مختارات شعراء العرب لابن الشجرى : ص ٢٩٢ ت د / نعمان محمد طه ط / دار التوفيقية ط . أولى ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م .
وتخيم عن المنادى : يعنى تنكص وتجبن عن القتال .

(4) أساس البلاغة : (ل ق ى) .

(5) بلوغ الأرب للسيد محمود شكرى الألوسى : ٣ / ١٣٥ ط / القاهرة ١٩٢٥ . نقلا عن كتاب " حسان ابن ثابت " د / محمد طاهر درويش : ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

القسم الثالث

١٢ - عَدِمنا خَيْلَنا إن لم تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ ، مَوعِدُها كَدَاءُ
١٣ - يُبارين الأَسِنَّةَ مُصْغِياتٍ ، ... على أكتافها الأَسَلُ الظِّمَاءُ
١٤ - تَظَلُّ جِيادُنا مُتَمَطِّراتٍ ، ... تُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النِّساءُ
١٥ - فإمَّا تُعْرِضُوا عنا اعتمرْنا ... وكان الفَتْحُ ، وانكشفَ الغِطَاءُ
١٦ - وإلَّا فاصْبِرُوا لجِلَادِ يَوْمٍ ... يُعِزُّ اللهُ فيه مَن يَشَاءُ
١٧ - وجبريلٌ رسولُ الله فينا ، ... وروحُ القُدُسِ ، ليس له كِفَاءُ
١٨ - وقال الله ، قد أرسلتُ عَبداً ... يقول الحقَّ إن نَفَعَ البَلاءُ
١٩ - شَهِدتُ به ، وقومى صدَّقُوه ، ... فقُلْتم ، لا نُجِيبُ ، ولا نَشاءُ
٢٠ - وقال الله ، قد يسرتُ جندا ، ... هُمُ الأنصارُ ، عُرْضَتُها اللِّقاءُ
٢١ - لنا فى كل يومٍ من مَعَدٍّ ... قِتالٌ ، أو سِبَابٌ ، أو هِجَاءُ
٢٢ - فنُحْكِمُ بالقَوافى مَنْ هجانا ، ... ونضربُ حين تختلطُ الدِّماءُ

هذا هو القسم الثالث من القصيدة ، وهو المقصد الأهم فيها ، الذى تخدمه كل المقاصد ، ويدور فى جملته حول التبشير بفتح مكة المكرمة ، ويقع فى أحد عشر بيتاً .

وقد شاع فى كثير من كتب الأدب قديمها وحديثها القول بأن مقدمة هذه القصيدة (وهى الأبيات ١-١١) من شعر حسان فى الجاهلية ، وأن قوله :

١٢ - عَدِمنا خَيْلَنا إن لم تَرَوْهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ ، مَوعِدُها كَدَاءُ

إلى آخر القصيدة من شعره فى الإسلام .

وأقدم من قال ذلك - فيما وقفت عليه - راويان أديبان من علماء القرن الثالث الهجرى ، هما " مُصْعَبُ بنُ عبدِ الله الزُّبَيرِىُّ : (٢٣٣ هـ) [1] ، و " العَدَوِىُّ

---

(١) هو أبو عبد الله مُصْعَبُ بنُ عبدِ الله بن مُصْعَبِ بن ثابت بن عبد الله بن ثابت بن عبد الله بن الزُّبير ابن العَوَّام ، حَوارِىٌّ ، نزل بغداد ، راوية أديباً محدِّثاً ، وكان شاعراً ، توفى يوم الأربعاء ليومين خليا من شوال سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ، وله ست وتسعون سنة ، وله من الكتب كتاب النسب الكبير ، وكتاب نسب قريش (الفهرست لابن النديم : ص ١٥٦ ت / محمد أحمد أحمد ، نشر المكتبة التوفيقية) .

الجُهَمِى " (١) ، قال مُصْعَبُ : (هذه القصيدة قال حسان صدرها فى الجاهلية ، وآخرها فى الإسلام . وذكر الزبيرى عن عمه مصعب قال : وهجم حسان على فتية يشربون الخمر ، فعيَّرهم فى ذلك ، فقالوا : يا أبا الوليد ، ما أخذنا هذا إلا منك ، وإنا لنهم بتركها ، ثم يثبطنا عن ذلك قولك :

وَنشرَبُها فتترُكُنا مُلُوكاً ... وأسْداً ما يُنَهْنِهُنا اللِّقاءُ

فقال : هذا شئ قلتُه فى الجاهلية ، والله ، ما شربتها منذ أسلمت) (٢) .

وقال العدوى : (قال حسان القصيدة إلى هذا الموضع – يعنى : ونشربها فتتركنا ملوكا ... – فى الجاهلية ، ثم وصلها بعد بهذا القول فى الإسلام) (٣) .

ثم راجت هذه المقولة بعد ذلك وتناقلها العلماء والدارسون (٤) واتخذها بعض المعاصرين دليلاً على عبث الرواة بالشعر وإفسادهم له حين ضموا المقدمة الجاهلية إلى القصيدة الإسلامية وجعلوهما قصيدة واحدة ، مع أنهما فى الحقيقة قصيدتان مختلفتان كل الاختلاف ومتباعدتان غاية التباعد (٥) . وفى هذا جناية على الرواة واتهام لجملتهم ، وليس بشئ !

---

(١) هو أحمدُ بنُ محمدِ بن حُمَيدِ بن سُليمانَ بنِ حَفْص بن عبد الله بنِ أبى الجَهْم .. بنِ كعبِ العَدَوِىِّ الجَهْمِىّ ، ينسب إلى جده أبى الجهم بن حذيفة ، حجازى ، دخل العراق وبها تأدب ونشأ ، وكان أديباً ، راوية ، شاعرا ، متقناً ، عالما بالنسب والمثالب .. وله من الكتب : كتاب قريش وأخبارها ، وكتاب المعصومين ، وكتاب المثالب ، وكتاب الانتصار فى الرد على الشعوبية وكتاب فضائل مُضَر (معجم الأدباء لياقوت الحموى : جـ٣ ص ١٣٠ – ١٣٢ ط دار الفكر ط ثالثة ١٤٠٠ هـ – ١٩٨٠ م بتصرف . وينظر الفهرست لابن النديم : ص ١٥٨) ، وقد قرئت على العدوى نسخة من ديوان حسان ، و" بذل العدوى مجهوداً ضخماً فى كشف الستار عن بعض الشعر المنتحل ونفى نسبته لحسان " (ديوان حسان : ص ٣٢) .

(٢) الاستيعاب فى أسماء الأصحاب لابن عبد البر (٣٦٣ – ٤٦٣ هـ) : جـ ١ ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ مطبوع بهامش الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ط ، دار المعرفة بيروت .

(٣) ديوان حسان : ص ٧٣ .

(٤) ينظر الروض الأنف ١١٨/٤ ودراسات أدبية د . عبد المنعم يوسف : ص ١٢٤ ، ١٢٥ ، والشعراء المخضرمون د/ عبد الحليم حفنى : ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، وحسان بن ثابت " د / محمد طاهر درويش : ص ١٩٥ .

(٥) ينظر الشعراء المخضرمون : ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

والباعث الذى دفع مصعب الزبيرى والعدوى ومن قال قولهما من البصراء بالشعر إلى القول بأن القصيدة صدرها جاهلى وآخرها إسلامى : ما جاء فى مقدمة القصيدة من ذكر الخمر ووصفها بعدما حرمها الإسلام ، وقوى هذا الباعث رواية ابن عبد البر السابقة عن حسان أنه قال أبيات الخمر فى الجاهلية ، وأنه ما شرب الخمر منذ أسلم . فكيف ينشد حسان هذه القصيدة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم متغنياً فيها بوصف الخمر ؟

ولأبى العلاء المعرى رأياً بصيراً ، قال فى " رسالة الغفران " : (ويمرُّ حسانُ ابنُ ثابتٍ ، فيقولون أهلاً أبا عبد الرحمن ، ألا تَحَدَّثُ معنا ساعةً ؟ فإذا جلس إليهم قالوا : أين هذه المشروبةُ من سَبِيئتِك التى ذكرتَها فى قولك ؟ :

كأن سبيئة من بيت رأس ...... (الأبيات) .

وَيَحكَ ! ما استَحْيَيتَ أن تذكر مثلَ هذا فى مِدْحَتِكَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ؟ فيقول : إنه كان أَسجَحَ خُلُقاً مما تظنون . ولم أقل إلا خيراً ، لم أذكر أنى شَرِبتُ خمراً ، ولاَ ركِبتُ مما حُظِرَ أمراً ، وإنما وَصفتُ رِيقَ امرأة ، يجوز أن يكون حِلاً لى ، ويمكن أن أقوله على الظن . وقد شَفَعَ صلى الله عليه وسلم فى أبى بَصِيرٍ [1] بعدما تهكَّم فى مواطن كثيرة .. وما سُمِعَ بأكرَمَ منه صلى الله عليه وسلم ، لقد أَفكْتُ فجلَدنى مع مِسْطَحٍ [2] ، ثم وَهبَ لى أُختَ مَارِيةَ [3] فولدت لى عبدَ الرحمن ، وهى خالةُ ولدِهِ " إبراهيم ") [4] .

وهذا تأويل حسن يبرئ ساحة هذا الصحابى الجليل والشاعر المخضرم من أن يؤخذ بجريرة ذكر الخمر ووصفها بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يزد

---

(1) أبو بصير : هو الأعشى .

(2) مسطح بن أثاثة ،صحابى جليل شهد بدراً ، ثم خاض فى حديث الإفك ، فجلده الرسول صلى الله عليه وسلم توفى ٣٤ هـ

(3) أخت مارية هى سيرين القبطية ، كانتا للمقوقس عظيم القبط ، فأهداهما إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فاتخذ ماريا لنفسه ، وهى أم ولده إبراهيم ، ووهب سيرين لحسان وهى أم ولده عبد الرحمن.

(4) رسالة الغفران : ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ بتصرف وما نقل من إيضاح هوامش هذا النص مقتبس من تحقيق الدكتورة بنت الشاطئ .

حسان على أن وصف خمراً ولم يقل إنه شربها ، ووصف ريق امرأة يجوز أن تكون حلالاً له ، أو يقوله على الظن والتخييل ، لا على الحقيقة والواقع .

وإذا كان أول القصيدة جاهلياً فكيف ألحقه حسان بقصيدته بعد الإسلام فى التبشير بفتح مكة ؟ بل كيف جعله صدرها الذى به تُسْتفتَح ؟ ومطلعها الذى به تُسْتَهلُّ ؟ والجواب عن ذلك (أن حسان قال صدر هذه القصيدة فى الجاهلية ثم رأى وهو يتهيأ للقول فى الفتح أن يبنى عليه قوله :

عَدِمنا خَيْلَنا إن لم تَرَوْهَا   تُثِيرُ النَّقْعَ ، مَوعِدُها كَدَاءُ) [1]

وهذا أمر يقبله العقل ، لأن سنة الشعراء فى الترنم بأشعارهم وأنغامهم والبناء عليها وإكمال ما نقص منها سنة متبعة وطريق لاحب ، ونمط بنى عليه كثير من الشعراء حر الشعر وجيده ، فقد ينشئ الشاعر قسماً من القصيدة ثم يتوقف عن إتمامها فترة طويلة من الزمن ، ثم يعيد الترنم بما أنشأ فيلهمه قسماً ثانياً منها وهكذا .

وقد أحكم الإبانة عن هذا المنهج الأستاذ العلامة محمود شاكر – رحمه الله – فى تحليله الفريد لقصيدة ابن أخت تَأَبَّطَ شَرًّا التى مطلعها :

إنَّ بالشِّعْبِ الذى دُونَ سَلْعٍ   لَقَتيلاً ، دَمُهُ مايُطَلُّ

وكان – رحمه الله – فى تذوق الشعر ، والبصر بأسراره أمة وحده [2] !

وما المانع فى أن ينشئ حسان هذه المقدمة فى الجاهلية ثم يبنى عليها قصيدته فى الإسلام .

إن الجو النفسى الذى تسبح فيه القصيدة كلها بقسميها " الجاهلى والإسلامى " جو واحد ، هو جو الحزن والشجن وإثارة الهموم وانتظار الخلاص والنجاة بتبشرات الأمل : الحزن والشجن المتمثلان فى ذكر الديار العافية والحضارة المندثرة بعد عمرانها

---

(1) حسان بن ثابت د / محمد طاهر درويش : ص ١٩٤ ، ١٩٥ وينظر دراسات أدبية د/عبد المنعم يوسف : ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(2) ينظر " نمط صعب ، ونمط مخيف " للأستاذ محمود شاكر : ص ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٦٧ ، ١٦٨ مطبعة المدنى ط أولى ١٤١٦ هـ = ١٩٩٦ م .

وخصبها ورقيها ، والهموم المؤرقة للشاعر عندما يفارقه طيف شعثاء كل ليلة ، فيتركه فريسة داء ليس له شفاء .

أو لم تكن حال المسلمين يوم الحديبية حين منعوا من زيارة البيت الحرام بعدما قاربوا الوصول إليه ، ومنوا نفوسهم به ، فتاقت ، واشتاقت ، وعاشت فى رحاب الأمنية السعيدة والفرحة المرتقبة – أو لم تكن حالهم حال حزن وشجن وهم مؤرق لا يزول ، بل وبكاء على انقطاع الأمل ؟

إنها الكعبة المشرفة التى لم يروها منذ هاجروا مع المصطفى صلى الله عليه وسلم ، أى منذ ما يقرب من ست سنين !

إنها ديارهم التى أخرجوا منها ، فيها آثارهم وذكرياتهم ، ومهد صباهم ، ومرتع شبابهم ، هى ماضيهم بكل ما فيه ! .

إنها مكة أحب البلاد ، التى بكى لفراقها الرسول صلى الله عليه وسلم حين اخرج منها !

ثم ، ألم يكن صلح الحديبية بالنسبة لكثير من الصحابة مثاراً للغضب والحزن بعدما أعدوا أنفسهم للحرب ليدخلوا المسجد الحرام ويشفوا صدورهم ممن منعوهم منه وحالوا بينهم وبين زيارته ؟

لا شك فى أن الجو النفسى فى القصيدة كلها واحد ، وهذا دليل على براعة حسان واقتداره ، وإصابته حين اختار هذه المقدمة وبنى عليها فرسخ الأساس وأبدع البناء .

وكما أحكم حسان وحدة الجو النفسى بين المطلع الجاهلى والغرض الإسلامى من القصيدة ، فقد أحكم – أيضاً – المناسبة بينهما وأحسن التخلص إلى الغرض : حين نقلنا فى آخر المقدمة من الحديث عن الشجاعة المزيفة عند لقاء العدو فى قوله (وأسدا ما ينهنهنا اللقاء) ، وهى شجاعة تصطنعها الخمر فى رأس شاربها ، إلى الحديث عن الشجاعة فى ميدان الحرب وقوة المسلمين البارزة فى قوله :

عَدِمنا خَيْلَنا إن لم تَرَوْهَا   تُثِيرُ النَّقْعَ ، مَوعِدُها كَدَاءُ

إلى آخر الأبيات .. فهناك حرب تصطنعها الخمر فى رأس شاربها ، وهنا حرب على الحقيقة ، وهناك ملك تخيله الخمر لشاربها (ونشربها فتتركنا ملوكا) وهنا ملك على الحقيقة سيتوج الله به المسلمين إذا فتح لهم البلد الأمين .

وقد أجاد حسان الانتقال حين نقلنا من (أسدا لا يهنهننا اللقاء) فذكر (الأسد) بمعنى الأبطال الشجعان و (اللقاء) بمعنى الحرب - إلى قوله (عدمنا خيلنا إن لم تروها ...) فذكر (الخيل - والنقع - والأسنة - والأسل - والجياد المتمطرات - والفتح - والجلاد) وهذا كله فى وصف الحرب ، فلم يشعرنا بفجوة ولا بجفوة بين المطلع والغرض .

وحين لم يلتفت الدكتور عبد الحليم حفنى إلى هذه الوشائج النفسية ، والمناسبات بين جزأى القصيدة رمى القصيدة بالتفكك وعدم الاتفاق بين جزأيها ، وضم إلى ذلك مثالب أخرى [1] .

* * *

وسار حسان فى بناء هذا القسم من القصيدة على النهج الذى سار عليه فى بناء القسمين السابقين ، من حيث اختيار الكلمة المثيرة التى ينطلق منها ، فكما اختار فى القسم الأول كلمة (عفت) فى قوله (عفت ذات الأصابع فالجواء) ثم وصف هذا

---

(١) قال الدكتور : (نستبعد أن تكون قصيدة واحدة لأكثر من سبب ، فمن هذه الأسباب اختلاف الموضوع ، حيث إن الجزء الأول يتكون من مطلع لقصيدة فى مدح الغسانيين ، ثم وصف للخمر ، أما الجزء الثانى فيدور حول تهديد قريش ومدح النبى صلى الله عليه وسلم ، فكلا الجزأين لا اتفاق ولا تقارب بينهما فى الموضوع ؛ ومنها أنه من غير المألوف أن يقول شاعرنا أبياتاً أو قصيدة ثم يكلمها بعد سنوات عديدة ، فلا ضرورة لذلك ، وما يمنعه أن ينشئ قصيدة جديدة فيما يريد أن يقوله ؟ وما الضرورة التى تحتم عليه أن يضيف إلى القصيدة أو قصيدة سابقة أبياتاً أخرى ؟ ثم ماذا يمنع أن تكونا قصيدتين ؟ ولعل الذى دعا جامعى ديوان حسان إلى عدهما قصيدة واحدة صغر أبيات الجزء الأول ، فرأوا عددها قليلاً لايناسب القصائد ، وخصوصاً قصائد الفحول مثل حسان .. وهذا المطلع كان مدخلاً لقصيدة جاهلية يتضح من خلال المطلع أنها كانت لمدح بعض ملوك الغسانيين ، ثم فقد من الرواة موضوع القصيدة كما فقد كثير من الشعر الجاهلى ، ثم وجد الرواة فى شعر حسان الإسلامى قصيدة لعلها فقد مطلعها فى طريق الرواية التى لم تكن تهتم فى هذه الحقبة اهتماماً كبيراً بالشعر ، ووجدوا الجزء الجاهلى والجزء الإسلامى كلاهما من بحر وقافية واحدة ، فحسبوهما قصيدة واحدة ، أو تغاضوا عما سبق من حيث الموضوع ، وادعوا أنها قصيدة واحدة ، وما كان لهم أن يتغاضوا عن ذلك ، لأن الفرق واضح فى المستوى الفنى ، سواء فى التصوير =

العفاء الذى أشجاه ، واختار فى القسم الثانى كلمة (الطيف) فى قوله (فـدع هـذا ، ولكن ، ما لطيف) ثم وصف هذا الطيف المؤرق - اختار فى القسم الثالث لفظ (الخيل) فى قوله (عدمنا خيلنا ...) ووصف هذه الخيل وصورها فى ثلاثة أبيات (١٢ ، ١٣ ، ١٤) فى تهديد مرعد ، وجعل هذه الخيل رمزا لقوة المسلمين ، ثم كشف الغطاء عما تفعله هذه القوة بالمشركين إن هم أبوا أن يخلوا بين المسلمين وبين أداء العمرة والنسك (وذلك فى البيتين : ١٥ ، ١٦) ، ثم أكد أن عون الله ونصره سيكونان للمسلمين الذين اجتمع لهم توفيق الله وعونه ، إلى قوتهم وشجاعتهم ودربتهم على الحروب وشدة بأسهم ، وحسن بلائهم فيها (وذلك فى الأبيات الستة (١٧ - ٢٢) .

فقال حسان فى وصف خيل المسلمين ، وهى رمز لقوتهم :

١٢ - عَدِمنـا خَيْلَنـا إن لم تَرَوْهَـا ... تُثِيرُ النَّقْعَ ، مَوعِدُهـا كَـداءُ

١٣ - يُبـارِين الأسِـنَّةَ مُصْغِيـاتٍ ... على أكتافهـا الأسَـلُ الظِّمَـاءُ

١٤ - تَظَلُّ جِيادُنا مُتَمَطِّـراتٍ ... تُلَطِّمُهُـنَّ بالخُمُـرِ النِّسـاءُ

وافتتح حسان وصف الخيل افتتاحا مثيرا حين فاجأنا بدعائه عليها بالعدم إن لم يرها المشركون تثير النقع عند (كداء) ، وهذا الدعاء يصور أن الفتح المرتقب سيكون للمسلمين مسالة حياة أو موت ، حتى كأنه قال ، هلكنا إن لم تفتح لنا مكة ؛ وإنما خص الخيل بالذكر لأنها أقوى ما يتقوى به فى الحروب ، ولذا خصها الله تعالى من بين ما يعد للقتال فى قوله سبحانه (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُم مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ) [1]

= أو فى الأسلوب والتعبير ، فالجزء الأول أعلى من الجزء الثانى الذى لا يحمل فى مجموعة سوى صدق العاطفة) [الشعراء المخضرمون : ٢٤٥ - ٢٤٧ بتصرف] .

وهذا كله ناتج عن غيبة الوشائج النفسية والمناسبات التى أوجدها الشاعر ببراعته وإتقانه بين الجزء الجاهلى والجزء الإسلامى مما صيرهما به قصيدة واحدة متشابكة ومتآلفة لا نشعر فيها بفجوة : لا فى المعانى ولا الألفاظ ولا الأساليب ، فالمستوى الفنى فى القصيدة كلها واحد ، وبراعة الشاعر فى كل أبياتها متحققة ... وذكرت هذه المقولة هنا لأنبه على خطورتها فى دراسة الشعر ، وعلى أهمية الإدرك الواعى لحركة المعانى وتسلسلها فى القصيدة ، وأن البصر بذلك من أشق الأمور التى يضطلع بها الدارس ! وفيما ذكرت من المناسبات والروابط كفاية فى الجواب على ما أثير فى هذا النص الخطير .

(١) سورة الأنفال ٦٠ .

قال جار الله : (تخصيصه للخيل من بين ما يتقوى به كقوله " وجِبْرِيلَ وَمِيْكَالَ " [١]) ، وعن ابن سيرين – رحمه الله – أنه سئل عمن أوصى بثلث ماله فى الحُصــون ، فقـال : يُشْتَرى بها الخيلُ فتُرابِطُ فى سبيل الله ويُغْزَى عليها . فقيل له : إنما أَوصَى فى الحُصــون ؟ فقال : ألم تسمع قول الشاعر :

إنَّ الحُصُونَ الخَيلُ لا مَدَرُ القُرى) [٢]

والخيل عز العربى ونجاته من مهالك الصحارى والحروب ، ولذا كانت تسـمى عندهم بـ " الناجية " لأنها تنجى راكبها ، فإذا عدم العربى الخيل فكأنه عدم عزه ونجاتـه وأوشك أن يبتلعه الهلاك ؛ قال الشاعر :

إنى وجَدتُ الخيلَ عِزاً ظاهِراً ، تُنجى من الغُمَّى ، ويَكْشِفْنَ الدُّجَى
ويَبِتْنَ بالثُّغرِ المَخُوفِ طَوَالِعـاً ويُثِبْنَ للصُّعْلُوكِ هِمَّــةَ ذِى الغِـنَى [٣]

(وقيل لبعض الحكماء : أى الأمور أشرف ؟ قال : فرس ، يتبعها فــرس ، فى بطنها فرس) [٤] .

وصاغ حسان هذا الدعاء فى أسلوب خبرى فقال (عدمنا خيلنا) ؛ إظـهارا لحرصه على تحقق هذه الرؤية ، رؤية المشركين خيل المسلمين وهى تثير النقع عند فتـح مكة ودخولها من ثنية " كداء " ؛ وذلك (أن الداعى إذا عظمت رغبته فى شئ يكـثر تصوره إياه ، لأن محبوب الوقوع لا يزول عن الخاطر غالبا ، فربما يخيل إليه حـاصلا ، فيعبر عنه بصيغة الحصول بناء على ذلك التخيل) [٥] .

---

(١) سورة البقرة ٩٨ .

(٢) الكشاف ٢ / ١٦٥ ، ١٦٦ وهو عجز بيت صدره : (ولقد علمت على تجنى الـردى) ونسـبه محب الدين أفندى لأشعر الجعفى (تنـزيل الآيات على الشواهد من الأبيات) مطبوع مع الكشـاف : ٤ / ٤٠٤ .

(٣) البيتان فى تنـزيل الآيات على الشواهد من الأبيات : ٤ / ٤٠٥ .

(٤) العقد الفريد : ١ / ١٣٥ .

(٥) مواهب الفتاح فى شرح تلخيص المفتاح : ١ / ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

والتعبير بـــ " عدمنا " دون " فقدنا " ؛ لأن المفقود قد يعود بخلاف المعدوم .

وفى التعبير بالخيل معنى الزهو والافتخار بها ؛ (قالوا : إنما سُمِّيت خَيلاً لاختيالها) [١] .

والخيل : " جماعة الأفراس لا واحد له من لفظه " [٢] ، وفى تعريفها بإضافتها إلى ضمير الجماعة " خيلنا " إشارة إلى أنها خيل معلومة مشهورة جياد نفتخر بإضافتها إلينا لأصالتها وحسن تدريبها وإعدادها .

وفى استخدام " إن " الشرطية دون " إذا " فى قوله (إن لم تروها تثير النقع) مزيد اعتداد بالقوة والشجاعة مع الافتخار والزهو ؛ وفيه (تهكم بهم ، كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغلبة على من يُقاويه : إن غَلَبْتُك لم أُبْقِ عليك ، وهو يعلم أنه غالبه ويتيقنه ؛ تهكما به) [٣] ، وهذه الجملة تدل على أمرين:

أولهما : قرب وقوع هذه الرؤية وتحقق تلك البشارة ، لأن الرؤية ستكون منهم فى حياتهم ، وليست ممن وراءهم من الأجيال .

ثانيهما : ما فى هذه الرؤية من شدة النكاية بهم والإهانة لهم ؛ لأنهم إذا رأوها عظمت حسرتهم وقهرهم ومذلتهم ، حين يرون بأعينهم المسلمين يفتح الله لهم هذا البلد الحرام الذى طالما حجبوا عنه ومنعوا من دخوله .

والمراد بالنقع هنا الغبار [٤] ، (وفى التنزيل : (فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً) [٥] : أى : غبارا ، والجمع : نقاع) [٦] . وإثارة الغبار كناية عن اشتداد الحرب وهياج الهيجاء ؛ وهو من لوازم النصر على العدو ؛ لما فيه من طمس الرؤية عنه وتركه يخبط خبط عشواء ، لا يهتدى إلى السداد فى الرمى بالسهم أو الطعن بالسيف ، فتدور عليه الدائرة .

([١]) العقد الفريد : ١ / ١٣٦ .

([٢]) اللسان : (خ ي ل) .

([٣]) الكشاف : ١ / ٢٤٧ .

([٤]) ينظر ديوان حسان : ٧٣ .

([٥]) سورة العاديات : ٤ .

([٦]) لسان العرب : (ن ق ع) .

ودعاء حسان على الخيل بالعدم إن لم يرها المشركون تثير النقع من قبيل التعبير بأدنى الصور وهو مجرد إثارة النقع ، ليشمل أعلاها ، وهو النصر والظفر بفتح مكـــة ؛ وفيه ما فيه من دلالة على شدة الحرص على تحقق نصر الله والفتح ، وامتــــلاء نفـس الشاعر بهذا المعنى ؛ وإذا قوى المعنى فى النفس واستحكم صار ثابتا مستقرا .

وقوله : (موعدها كداء) المراد به تحديد مكان الوعد ، فـ " الموعد " هنـــا اسم مكان ، وليس اسم زمان ؛ (و الموعد إذا كان اسم مكان فحاصله : مكانُ وَعْـدٍ ، كما إذا كان اسم زمان فحاصله : زمان وَعْدٍ) [1] .

و (كَدَاءُ) : مَوضِعٌ بأعلى مَكَّةَ ، (قال أبو محمد عليُّ بنُ أحمد بـــنِ حَـــزْمٍ الأندلُسيُّ) : كَدَاءُ الممدودُ ، بأعلى مَكَّةَ عند المُحَصَّبِ) [2] . وقد دخل الرسول صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح من هذا الموضع الذى بشر به حسان ؛ (روى مســـلم : دخل عام الفتح من كداء من أعلى مكة) [3] .

وفى تحديد حسان – رضى الله عنه – المكان الذى ستدخل منه خيل المســـلمين يوم الفتح مزيد اعتداد بقوتهم والثقة فى نصر الله لهم ، وفيه مزيد استخفاف بالمشـــركين وتعجيز لهم ، كأنه يعرفهم الموضع الذى ستدخل منه خيل الله عند الفتح إدلالا بعجزهـم حتى عن حماية هذا الموضع المعلوم لهم سلفا ، وهكذا يفعل الواثق من أن الحق معه .

وفى رواية الإمام مسلم (٢٠٦ – ٢٦١ هـــ) وابن عساكر (ت ٥٧١ هـــ) :

ثَكِلْتُ بُنَيتَّى إنْ لم تَرَوهَا ... تُثِيرُ النَّقْعَ من كَنَفَى كَدَاءِ [4]

---

(1) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإســـكندرى المتوفى سنة ٦٨٣ هـــ : جـ ٢ ص ٥٤٢ مطبوع بحاشية الكشاف .

(2) معجم البلدان : " كداء " : ٤ / ٤٣٩ . وينظر لسان العرب : (ك د ا) .

(3) معجم البلدان : " كداء " : ٤ / ٤٤١ . والحديث رواه البخارى فى كتاب الحج باب ٤١ ومســلم فى كتاب الحج ٢٢٥ ، وأحمد فى مسنده : ٦ / ٥٨ ، ٢٠١ مسند السيدة عائشة رضى الله عنها .

(4) من حديث رواه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة (فضائل حسان بن ثابت رضى الله عنه) : حديـث رقم : ٢٤٩٠ (مسلم بشرح النووى : جـ ١ ص ٥٠) ط . دار الريان ط / أولى ١٤٠٧ هـــــــ ١٩٨٧ م . وجاءت الرواية فى تهذيب تاريخ دمشق الكبير للحافظ ابـن عســاكر : ٤ / ١٣٠ ط . دار المسيرة بيروت ط ثانية ١٣٩٩ هـــ / ١٩٧٩ م .

قال النووى : (وعلى هذه الرواية فى هذا البيت إقْوَاءٌ مخـالف لباقيـها . وفى بعض النسخ : غايتُها كَدَاءُ ، وفى بعضها : موعِدُها كَدَاءُ) . وقال السَّنُوسِيُّ فى شـرح هذه الرواية : (الثُّكْلُ : فَقْدُ الوَلد . وبُنَيَّتِى : تصغير بِنْت . فهو بضم البـاء . وعند النووى بكسر الباء ؛ لأنه قال : بِنِيَّتِى : أى نَفْسِى) [1] .

وسواء أكانت " ثَكِلْتُ بنيتى " بمعنى : ثكلت بنتى أو بمعنى : ثكلت نفسـى ، فينبغى أن يعود الضمير فى قوله : (إن لم تروها) على الخيل ، وإن لم يجر لهـا فى هـذه الرواية ذكر ؛ لأنها هى التى تثير النقع ؛ كما أن الأوصاف المذكورة فى البيتين التـاليين (يبارين الأسنة ... تظل جيادنا متمطرات ...) من أوصاف الخيـل ، وليسـت من أوصاف ابنته ولا من أوصاف نفسه .

والبيت الثانى فى وصف خيل المسلمين يوم الفتح هو قوله :

يُبارِين الأَسِنَّةَ مُصْغِياتٍ ، على أكتافهـا الأَسَلُ الظِّمَاءُ

بعدما ذكر فى البيت السابق أن هذه الخيل تثير النقع فى المعركة ، فيحجب هذا النقع الرؤية عن العدو ، بادر فى هذا البيت بدفع ما يتوهم من أن هذا النقـع يعـوق خيـل المسلمين فى المعركة أو يؤثر على سرعتها . فالبيت مع أنه يرسى صفة جديدة لهذه الخيل إلا أنه مولود من رحم البيت السابق ؛ لما فيه من معنى الاحتراس ودفع توهم غير المراد . وقوله : (يُبَارِينَ) من (المُبَاراةِ وهى : المُجَاراة والمسابقة ... وهما يتباريان : إذا صَنَـعَ كلُّ واحدٍ مثلما صنع صاحِبُه ، وفى الحديث : " نهى عن طعام المُتَبَارِيَيْنِ أن يُؤْكَلَ " ،

---

[1] عن هامش تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى لصحيح مسلم : ٤ / ١٩٣٧ ط . دار إحياء الـتراث العربى بيروت ط ثانية ١٩٧٢ م . ولم أجد الكلام الذى نسبه السَّنُوسِـىُّ إلى النـووى فى النسـخة المطبوعة من شرحه لمسلم : جـ ١٦ ص ٥٠ ، فلعل السَّنُوسِيُّ اعتمد على نسخة أخـرى مفقـودة (والسَّنُوسِيُّ ٨٣٢ – ٨٩٥ هـ : محمدُ بنُ يوسفَ بنِ عُمرَ بن شُعَيْب السَّنُوسِيُّ الحَسَنِىُّ من جهـة الأم ، أبو عبد الله ، عالم تلمسان فى عصره ، وصالحها ، له تصانيف كثيرة ، منها " شـرح صحيح البخارى " لم يكمله ، و " تفسير سورة ص وما بعدها من السور " ، و " مكمل إكمال الإكمـال " فى شرح صحيح مسلم) [الأعلام : ٧ / ١٥٤ بتصرف] .

هما المتعارضان بفعلهما لِيُعْجِزَ أحدُهما الآخرَ بصنيعه ؛ وإنما كَرِهَهُ لما فيه من المُباهاة والرياء) [١] . والأسِنَّةُ : جَمْعُ سِنَانٌ ، و (سِنَانُ الرُّمْحِ حَديدتُه لصَقَالَتِها وملاسَتِها) [٢] .

وفى هاتين الكلمتين تصوير بارع لحركة الخيل وسرعتها وشدة انطلاقها بسرعة السهام المرسلة التى هى أصل فى الدلالة على السُرعة الفائقة كما فى قوله صلى الله عليه وسلم فيمن يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم : (يمرقون من الدِّينِ مُروقَ السَّهْمِ من الرَّمِيَّةِ) [٣] ؛ يصور سرعة مروقهم من الدين ، وانسلاخهم منه بسرعة خروج السهم من القوس ، وهى أسرع حالات انطلاق السهم وأقواها ، وكلما طالت المدة عن مروقة من القوس قلت سرعته ، وهذا من روائع البيان النبوى .

وعقد حسان مباراة فى السرعة بين الخيل والرماح ، ليستخرج من الخيل اقصى ما فيها من سرعة وقوة ، وكذا الرماح ، فملأ الصورة بالحركة النشطة الثائرة ، وكأن هناك مباراة على الحقيقة ، وهى مباراة غريبة لا تحدث فى أرض الواقع : مباراة بين سهام سريعة طائشة ، وخيول تجرى لأهدافها مندفعة غاية الاندفاع .

وحكى الإمام النووى عن القاضى عياض وجها آخر فى فقه هذه التشبيه ، قال : (قال القاضى : وفى رواية ابن الحذاء : " يبارين الأسنة " ، وهى الرماح . قال : فإن

---

(١) لسان العرب : (ب ر ى) بتصرف . وروى هذا البيت عند الإمام مسلم وابن عساكر بلفظ :

يبارين الأعنة مصعدات، على أكتافها الأسل الظماء

قال الإمام النووى فى تفسير هذه الرواية : (يبارين الأعنة : ويروى يبارعن الأعنة ، قال القاضى – هو القاضى عياض – الأول عن رواية الأكثرين : ومعناه أنها لصرامتها وقوة نفسها تضاهى أعنتها بقوة جبذها لها ، وهى منازعتها لها أيضا ... قوله : " مصعدات : أى مقبلات إليكم ، متوجهات ، يقال : أصعد فى الأرض إذا ذهب فيها مبتدئا ، ولا يقال للراجع ... وفى بعض الروايات : " الأسد الظماء " بالدال : أى الرجال المشبهون بالأسد العطاش إلى دمائكم)[شرح النووى على مسلم : ١٦ / ٥٠ بتصرف] .

(٢) لسان العرب : (س ن ن) .

(٣) رواه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء ، باب قول الله تعالى " وإلى عاد أخاهم هودا " : جـ ١٠ ص ٦ حديث رقم : ٣٣٤٤ .

صحت هذه الرواية فمعناها : أمهن يضاهين قوامها واعتدالها) [1] أى أن الشاعر يشبه هذه الخيل فى حدتها وضمورها واعتدال قوامها بالرماح المصقولة المحكمة الصنع ، ولا شك فى أن ضمورها وخفتها واعتدال قوامها يجعلها أسرع وأقوى ؛ ولذا امتدح العرب الفرس الضامر ، لا سيما فى ميدان القتال ، بل كانوا يُضَمِّرُونَ الخيل عند التنافس والحروب ، (وتَضْمِيرُهَا أن تُشَدَّ عليها سُرُوجُها ، وتُجَلَّلَ بالأَجِلَّةِ حتى تَعْرَقَ تحتها ، فَيَذهبَ رَهَلُها ، ويَشتد لَحْمُها) [2] . وقد صور ذلك امرؤ القيس فشبه خاصرتى فرسه بخاصرتى الظبى لضمورهما وعدم انتفاخهما ، وشبه ساقية بساقى النعامة لصلابتهما وقصرهما ، وشبه سرعته بسرعة الذئب ، وشبه جريه بجرى ولد الذئب ، فقال فيه بيته المشهور :

له أَيْطَلَا ظَبيٍ ، وساقا نَعامَةٍ ، وإِرْخَاءُ سِرْحانٍ ، وتَقْرِيبُ تَتْفُلِ [3]

(والمصغيات : الموائلُ المنحرفاتُ للطعن) [4] ، وهذه الكلمة تصور ما يكون من الخيل وهى تنطلق نحو العدو انطلاق الرماح ، وتثبت للخيل فى انطلاقها فضلا زائدا على الأسنة ؛ لأن الأسنة تنطلق بسرعة فى اتجاه واحد مستقيم نحو هدف واحد لا غير ، بخلاف الخيل فهى فى انطلاقها وسرعتها التى تنافس فيها الأسنة تميل ذات اليمين وذات

---

(1) شرح النوى لصحيح مسلم : ١٦ / ٥٠ ، وابن الحذّاء ٣٤٧ – ٤١٦ هـ : محمد بنُ يحيى بن أحمد التميمى ، أبو عبد الله ، باحث أندلسى ، من العلماء بفقه الحديث والتاريخ والأدب ، من أهل قُرْطُبَةَ ، وَلِيَ فيها خُطة الوثائق السلطانية . وخرج منها فى الفتنة ، فاستُقْضِيَ بمدينة " تطيلة " ، ثم نُقِلَ إلى قضاء مدينة " سالم " ، وسار إلى " سَرَقُسْطَة " فتوفى بها . من كتبه " الاستنباط لمعانى السنن والأحكام من أحاديث المُوطَّأ " ثمانون جزءا ، و " التعريف بمن ذُكِر فى مُوطَّأ مالك من الرجال والنساء " ، و " البشرى فى تأويل الرؤيا " عشرة أجزاء ، و " الخطب وسِيَر الخطباء " مجلدان) (الأعلام للزركلى : ٧ / ١٣٦) .

(2) لسان العرب : (ض م ر) بتصرف .

(3) ديوان امرئ القيس : ص ١٥٥ .

(4) ديوان حسان : ص ٧٣ .

الشمال وتنحرف إلى هنا وهناك للطّعان والضرب ، فتقضى مهمتها فى عجل وإتقان ، ومع ذلك لا تسبقها الأسنة ، بل تظل فى سباق دائم معها .

وفى إيثار حسان التعبير بهذه الكلمة عطاء آخر ؛ لأنها تصور الخيول حين تميل رُؤوسَها للطّعان كأنها تسمع شيئا وتُصْغِى إليه : تسمع صوت القِرْن المُنازِل من العدو فتميل إليه فى اندفاعها وسَوْرتِها ، وتسمع أمر الفارس لها فتَمِيلُ حيث يُمِيلُها ، فهى خيول مع سرعتها وقوتها منقادة ذوات إحساس كبير بوقع العدو وبما يدور فى رحى الحرب . (يقال أَصْغت الناقةُ تُصْغِى : إذا أمالت رأسها إلى الرجل ، كأنها تستمع شيئا حين يَشُدُّ عليها الرَّحْلَ ؛ قال ذو الرُّمَّةِ يصف ناقته :

تُصْغِى إذا شَدَّها بالكُورِ جانِحةً ، حتى إذا ما استوى فى غَرْزِها تَثِبُ [1]

وقوله : (على أكتافها الأَسَلُ الظِّماءُ) [2] استخدم فيه حسان حرف الجر " على " للدلالة على تمكن الفُرسان من هذه الخيول واستعلائهم عليها ، فهم يمتطون صهواتها بمهارة وإتقان . ويقوى هذا التمكن تعبيره بـ " أكتافها " بدلا من " ظهورها " ، فكأن الفرس يحوط فارسه بكتفيه ؛ زيادة فى تمكينه منه واستوائه عليه .

وطوى حسان فى هذا الأسلوب ذكر الفُرسان الشجعان الذين يحملون الرماح ليستخدموها فى الحرب ، وخيل إلينا أن الناظر إلى هذه الخيل لا يرى عليها فُرسانا ، إنما يرى رماحا . ولما طوى ذكر الفُرسان أسبغ على الرماح شيئا من صفاتهم وخصائصهم وهو الظمأ ، فصارت الأسل ظماء على طريق الاستعارة المكنية فى لفظ " الأسل " ، وإثبات لازم المشبه به وهو الظمأ للرماح استعارة أخرى تخييلية .

---

(1) لسان العرب : (ص غ ا) .

(2) الكَتِفُ من الإبل والخيل والبغال والحمير وغيرها : ما فوق العضُدِ ، وقيل : الكتفان : أعلى اليدين ، والجمع : أكتاف . والأَسَلُ : نبات له أغصان يُخرِج قضبانا دقاقا ليس لها ورق ولا شوك إلا أن أطرافها محددة واحدته : أَسَلَة ، والأسل : الرماح ، على التشبيه به فى اعتداله وطوله واستوائه ودقة أطرافه ... ويطلق على النَّبل أيضا) [لسان العرب : ك ت ف ، أ س ل] . بتصرف .

ودلت الاستعارة فى هذا السياق على شدة شوق هؤلاء الفرسان المسلمين ، وقوة استعدادهم وتحفزهم ، حتى إن الرماح والنبال انفعلت لذلك فأصابها ما أصابهم فصارت ظماء إلى دماء العدو .

والاستعارة تحكى صورة غريبة لانراها إلا فى خيالات الشعراء وولائد أفكارهم : صورة الرماح العطشى التى لا يرويها إلا دماء المشركين .

وقد تآزرت الصورة البيانية فى هذا البيت لتبرز احتشاد الشاعر لوصف خيل المسلمين وقوتهم ، وهذا ظاهر فى تشبيه الخيل بالأسنة فى قوتها وسرعتها ، وأنها خيل ضامرة مدربة على الحروب ، وليست سمينة ممتلئة يعوقها امتلاؤها ليصور مدى سرعتها ومهارتها ، وظهر أيضا فى طى الشاعر الحديث عن الفرسان واستعارته " الأسل " لهم ، وجعل الأسل ظماء إلى دماء العدو .

والبيت الثالث فى وصف خيل المسلمين يوم الفتح هو قوله :

تَظَلُّ جِيادُنا مُتَمَطِّراتٍ ، تُلَطِّمُهُنَّ بِالخُمُرِ النِّساءُ [1]

وفى هذا البيت خَلَص حسان من وصف الخيل حال المعركة إلى وصفها عند النصر ودخولها مكة ، لا تجد أمامها إلا النساء اللاتى يلطمنها بالخُمُر لترجع ، بعدما هُزِم الرجال ودارت عليهم الدائرة .

---

(1) ذكر ابن دُريد (ت ٣٢١ هـ) أن الخليل بن أحمد كان يروى بيت حسان : " يُطَلِّمُهنَّ بالخمر النساء " ، وينكر " يلطمهن " ، " والطَّلْم " : ضربُك خُبزة المَلّة بيدك تنفُضُ ما عليها من الرماد ... والطلمة : خبزة الملة " (جمهرة اللغة لابن دريد : ص ١١٦ ط = دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ط . أولى ١٣٤٥ هـ) ، قال ابن فارس (ت ٣٩٥ هـ) : " وما أقرب ما بين الطَّلْم واللَّطْم ؛ والدليل على ذلك قول حسان تطلمهن بالخمر النساء ؛ فإن ناسا يرونه كذا ، وآخرون يرونه - تلطمهن - ؛ وذلك دليل على أن المعنى واحد . ويقال : إن الطلمة : الخبزة وإنما سميت بذلك لأنها تلطم " (مقاييس اللغة لابن فارس : ٣ / ٤١٥ ، ٤١٦ ت / عبد السلام هارون ط مصطفى الحلبى ط ثانية ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م) .

وفى التعبير بـ " تظل " وما فيها من معنى الاستمرار والدوام اللذين تؤكدهما صيغة المضارع ما ينبئ عن أن هذه الخيل تحتفظ بقوتها وسرعتها طوال المعركة ، لا ينالها إرهاق ولا نصب .

وإيثاره التعبير بالأفعال المضارعة فى وصف الخيل بقوله (تثير النقع - يبارين الأسنة- تظل جيادنا) يدل على مدى جد الخيل وتجدد صدور هذه الأفعال منها ، فهى ذوات قوة متجددة وطاقات لا تنتهى ، ونشاط وافر ، وحركة وثابة قوية .

ومن براعة حسان فى هذا البيت اختياره للفظ " الجياد " وهو تكرار لـ " خيلنا " فى أول وصفه للخيل بقوله " عدمنا خيلنا " ؛ فلما كرره ذكره باسم آخر يلائم استمرار المعركة ؛ وأنه كلما تجددت مراحلها ووقائعها تجدد عطاء هذه الجياد وقوتها ؛ لأنها تجود بمذخور قوتها ومهارتها ؛ وسمى الفرس جوادا لأنه (يجود بمُدَّخَر عَدْوِه) [1] .

و (مُتَمطِّراتٌ : خارجاتٌ من جُمهور الخيل من سرعتها ؛ يقال : تَمَطَّر الفرسُ أمام الخيل إذا سبقها خارجا منها) [2] ، وفى هذه الكلمة تصوير لما يكون بين الخيل من التنافس والتسابق. قال النووى : (أى : تظل خيولنا مسرعات، يسبق بعضها بعضا) [3] ؛ وبهذا يكون حسان قد أقام مسابقات ومباريات فى ميدان المعركة بين الخيل والأسنة مرة فى قوله : " يبارين الأسنة " ، وبين الخيل بعضها مع بعض مرة أخرى فى قوله " متمطرات " ، فملأ الميدان سرعة وحركة وحيوية .

وفى الكلمة أيضا تشبيه للجياد فى سرعتها وقوتها بالمطر المنصب الغزير ، وفيه إلماح إلى تكافؤ هذه الجياد فى السرعة والقوة ، حتى إنه إذا سبق بعضها بعضا فليس ذلك عجزا فى المسبوق ولا عيبا فيه ؛ لأن المسافة بينه وبين السابق قريبة جدا ومتلاصقة ، كما تسبق القطرة من المطر أختها ، فلا تلبث المسبوقة أن تقع فوق السابقة .

---

(1) المفردات فى غريب القرآن : (ج و د) .

(2) ديوان حسان : ص ٧٤ .

(3) النووى على مسلم : ١٦ / ٥٠ ، ٥١ وينظر لسان العرب : (م ط ر) .

وقوله : (تلطمهن بالخمر النساء) كناية بليغة عن تمام النصر ، لأن النساء لا يلطمن الجياد بالخمر إلا بعد هزيمة الرجال وخلو الساحة منهم ، وفيها مزيد تشنيع على الرجال المنهزمين وتعييرهم بالعجز والقهر والمذلة . وقد أجاد حسان فى هذه الصورة الكنائية حين اختار النساء وجعلهن ركنا أساسيا فيها ؛ لأن الرجال هم حماتهن والذائدون عنهن ، فإذا وقعت الهزيمة صرن سبايا وإماء بعد أن كن حرائر شريفات ، وهذا عند العرب أعظم من الهزيمة .

كما أجاد حين عبر بـ (تلطمهن) ؛ لأنه مشتق من اللطم : ضرب الخد بباطن الكف ، وهو فعل النساء ، فكان بهن أليق . كما أجاد أيضا حين جعل التلطيم بالخُمُر - جمع خمار وهو " ما تغطى به المرأةُ رأسَها " [1] - دلالة على سرعة مفاجأة الخيل لهن ، فلم يجدن شيئا يدفعن به الخيل إلا أغطية رؤوسهن . قال رواة الديوان : (يقول : فاجأتهم الخيل فخرج النساء يلطمن خدود الخيل يرددنها لترجع ... قال العدوى : جاء فى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حين رأى فى مكة نساء أهلها يضربن وجوه الخيل ، فقال - عليه السلام - : " صدَقَ حَسَّانُ ") [2] ، وقال ابن هشام : (بلغنى عن الزُّهْرِىِّ أنه قال : لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء يلطمن الخيل بالخمر تبسم إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه) [3] .

فلطم النساء خيل المسلمين بالخمر الغرض منه دفعها وردها لترجع ، وهو ما أميل إليه ؛ لأنه يمنح النساء قدرا من القوة يدافعن به عن أنفسهن بعدما عجز الرجال ، ولا يجعلهن مستسلمات خائرات عاجزات .

وجعل الإمام النووى (ت ٦٧٦ هـ) وابن منظور (ت ٧١١ هـ) الغرض من تلطيم النساء خيل المسلمين بالخمر الاعتزاز بهذه الخيل وإكرامها ؛ قال

---

(١) لسان العرب : (خ م ر) .

(٢) ديوان حسان : ص ٧٤ بتصرف .

(٣) السيرة النبوية لابن هشام بأعلى صحائف الروض الأنف : ٤ / ١٠٧ .

الإمام النووى : (" تلطمهن بالخمر النساء " : أى تمسحهن النساء بخمرهن – بضم الخاء والميم جمع خمار – أى : يُزِلْنَ عنهن الغبار ؛ وهذا لعزها وكرامتها عندهم . وحكى القاضى أنه روى بالخَمْر –بفتح الميم جمع خمرة – وهو صحيح المعنى ؛ لكن الأول هو المعروف ، وهو الأبلغ فى إكرامها) [1] .

ولا أميل إلى حمل الكلام على هذا الغرض ؛ لأن المقصود بالنساء هنا نساء المشركين الذين قتل منهم من قتل أثناء المعركة ، وجرح منهم من جرح ، فكيف تستقبل نساؤهم خيل الخصم بالإعزاز والتكريم فيمسحن عنهن الغبار بخمرهن ؟ . (إن مسح وجوه الخيل يكون عن تلطف بها ، ولا يعقل أن يكون هذا من نساء مكة لخيل غزاها) [2] .

* * *

وبعدما وصف حسان خيل المسلمين يوم فتح مكة بهذه الأوصاف فى أبيات ثلاثة جياد ، هى من أروع ما قالته العرب فى وصف الخيل فى المعركة ، وضَمَّن هذا الوصف معانى كثيرة كالافتخار بقوة المسلمين وشجاعتهم وتهديد المشركين ووعيدهم بالحرب – بعد ذلك التفت حسان إلى المقام الذى ينشد فيه القصيدة ، وهو " صلح الحديبية " عندما منع الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمون من أداء العمرة ، فهدد حسان المشركين بقوة المسلمين وشدة بأسهم ، ثم حدد موقف المشركين فى واحد من أمرين ، إما أن يعرضوا عن المسلمين ويخلوا بينهم وبين المسجد الحرام فيعتمروا وتنكشف بذلك هذه الغمة الجاثمة على الصدور ، وإما أن يرفضوا ذلك ويمنعوا المسلمين فينتظروا جلاد يوم عصيب :

فإمَّا تُعْرِضُوا عنا اعتمرْنا ... وكان الفَتْحُ ، وانكشفَ الغِطَاءُ
وإلاَّ فاصْبرُوا لجِلَادِ يَوْمٍ ... يُعِزُّ اللهُ فيه مَنْ يَشَاءُ

([1]) النووى على مسلم : ١٦ / ٥١ وينظر لسان العرب : (ل ط م) .

([2]) دراسات أدبية د / عبد المنعم يوسف : ص ١١٣ .

وفى هذين البيتين يظهر بجلاء تأثر حسان – رضى الله عنه – بلغـــة القــرآن الكريم فى ثلاثة مواضع :

الأول : قوله : " فإما تعرضوا عنا " ، تأثر فيه بقول الحق – جل جلالـــه – : (وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً) [١] .

والثانى : قوله " وانكشف الغطاء " ، تأثر فيه بقول الله – عز وجـــل –(لَقَدْ كُنْتَ فِى غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) [٢] .

والثالث : قوله " يعز الله فيه من يشاء " تأثر فيه بقول الله تعـالى : (تُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) [٣] .

وهذا التأثر يدل على امتلاء نفس الشاعر بمعانى القرآن الكـــريم وأســـاليبه ، (وكان حسان – بلا شك – أكثر أولئك الشعراء تأثرا بالإســـلام ، وأشـدهم فيـــه اندماجا ، فتأثر بذلك منهجه وأسلوبه) [٤] .

ومن النماذج الصادحة بتأثره بلغة القرآن الكريم فى شـعره [٥] قولـــه يحكـــى رسول الله صلى عليه وسلم :

عَزِيزٌ عليه أن يَجُوروا عن الهُدَى ، حَرِيصٌ على أن يَسْتَقِيموا ويَهْتَدُوا
عَطُوفٌ عَلَيهِم ، لا يُثْنَى جَنَاحَـه إلى كَنَـفٍ يَحْنُـو عَلَيهِمْ ويَمْهَدُ [٦]

أخذه من قوله تعالى فى وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم : (عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) [٧] .

---

(١) سورة الإسراء : ٢٨ .

(٢) سورة ق : ٢٢ .

(٣) سورة آل عمران : ٢٦ .

(٤) حسان بن ثابت د / محمد طاهر درويش " ٤٣٧.

(٥) يراجع فى ذلك المصدر السابق : ص ٤٢٩ ، ٤٤٣ .

(٦) ديوان حسان : ص ٣٧٩ .

(٧) سورة التوبة : ١٢٨ .

ومنها قوله :

نبىٌّ أتانا بعدَ يأسٍ وفَتْرةٍ   مِن الرُّسْل والأوثانُ فى الأرض تُعْبَدُ [1]

أخذ " فترة من الرسل " من قوله تعالى : (يا أهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنا يُبيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ) [2] .

وقوله :

فأمْسَى سِراجاً مستَنيراً وهادياً ،   يَلُوحُ كما لاحَ الصَّقِيلُ المُهَنَّدُ [3]

أخذ (سراجا مستنيرا) من قوله تعالى : (وَدَاعِياً إلى اللهِ بِإذْنِهِ وسِرَاجاً مُنِيراً) [4] .

و(إما) فى قوله : (فإما تعرضوا عنا اعتمرنا) دالة على التخيير كالتى فى قوله تعالى : (إمَّا أنْ تُعَذِّبَ وَإمَّا أنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً) [5] ، واستغنى عن تكرارها فى البيت الثانى بـ " إن " الشرطية مع " لا " النافية فى قوله : " وإلا فاصبروا لجلاد يوم " ، ونظيره قول المُثقب العَبْدِى :

فإمَّا أن تكُونَ أخِى بصِدْقٍ   فأعْرِفَ مِنكَ غَثِّى مِنْ سَمِينى

وإلا فاطَّرِحْنِى ، واتخِذْنى   عَدُوّاً ، أتقيكَ وتتَّقِينى [6]

ورتب حسان على إعراضهم عن المسلمين وتخليتهم الطريق لهم ثلاثة أمور :

أولها : أداء العمرة . وثانيها : حصول الفتح . وثالثها : كشف الغطاء وزوال الغمة التى نزلت بالمسلمين حين منعوا من البيت ، أو كشف الغطاء عما وعد الله نبيه فى الرؤيا بدخول المسجد الحرام .

---

(1) ديوان حسان : ٣٣٨ .

(2) سورة المائدة : ١٩ .

(3) ديوان حسان : ٣٣٩ .

(4) سورة الأحزاب : ٤٦ .

(5) سورة الكهف : ٨٦ .

(6) ينظر الجنى الدانى : ٥٣٠ - ٥٣٢ .

والترتيب بين هذه الأمور الثلاثة – فيما أرى – ترتيب عكسى ؛ لأنــــه إذا تم دخول المسلمين مكة ينكشف الغطاء عن وعد الله المحقق بالفتح ، ثم يــؤدى الرســول صلى الله عليه وسلم والمسلمون شعيرة العمرة ، ولعل حسان آثر تقــديم " اعتمرنــا " ليكشف عن عظيم الشوق إلى المسجد الحرام ، فتكون العمرة هى أول ما يبدءون بــه فى مكة لأنهم ما قصدوا مكة إلا لأجلها . وفيه أيضا دلالة على أنه ينبغى على المسلم حـال النصر ألا يأخذه الزهو به فيشغله عن عبادة الله وذكره والتقرب إليه .

وقوله : (وكان الفتح) يعنى : وجد وتحقق ، فـ " كان " تامة كالتى فى قوله تعــالى : (وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ) (١) . وإختيار " كان " التامة فى البيت يومئ إلى أن الفتح وجد وتحقق بقوة القادر الذى قال له " كن " فـ " كان " ، فمع افتخـار حسان بقوة المسلمين فى الأبيات السابقة وما أعدوا للعدو من العدة إلا أن الفتح لم يكـن بها وإنما كان من الله ... وفى " كان " هذه أيضا دلالة على طول التشوق إلى هذا الفتـح الذى كان أملا يراود المسلمين منذ أخرجوا من مكة وهم قليل مستضعفون فى الأرض .

وفى " كان الفتح " إيماء إلى استتباب هذا الفتح وتمكنه حتى أخبر عنه بـالفعل " كان " الذى هو رأس ما يدل على الماضى من الأفعال .

وليس المراد بالفتح هنا " فتح مكة " ؛ لأنه كان فى شهر رمضان مــن الســنة الثامنة للهجرة ، وأنشد حسان قصيدته بعد " بيعة الرضوان " وقبيل " صلح الحديبيــة " اللذين كانا فى شهر ذى القعدة من السنة السادسة للهجرة .

والمراد بالفتح فى القصيدة دخول مكة لأداء العمرة ، " دخولا سلميا يتحقق به وعد الله نبيه فى الرؤيا أن يدخلوا المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوســهم ومقصريــن ، وليس المقصود منه الفتح المعهود الذى تحقق فيما بعد بالغزو ، وهذا واضح من المقابلــة بينه وبين الجلاد فى البيت التالى) (٢) .

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٠ .

(٢) دراسات أدبية د . عبد المنعم يوسف : ص ١١٣ .

وجعل حسان الاعتمار فتحا تعظيما لهذا الحدث وإشادة بـــه ؛ علـــى طريـــق التشبيه ، أى كان كالفتح فى أننا سندخل مكة ونطوف بالبيت الحرام ونســـوق الهـــدى بعدما حرمنا من ذلك طوال ست سنوات ، كما أن هذا الاعتمار سيكون مقدمة للفتـــح الأعظم ، ومقدمة الشئ تأخذ اسمه ، على نحو ما سمى الله – عز وجل – صلح الحديبيـــة فتحا فى قوله تعالى (لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً) (١) .

قال ابن القيم : (كان صلح الحديبية مقدمة وتوطئه بين يـــدى هـــذا الفتـــح العظيم ، أمن الناس به ، وكلم بعضهم بعضا ، ودخل بسببه بشر كثـــير فى الإســـلام ؛ ولهذا سماه الله فتحا فى قوله : " إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً " (٢) ، نزلت فى شأن الحديبية ، فقال عمر : يا رسول الله ، أو فتح هو ؟ قال : نعم . وأعاد الله سبحانه ذكر كونه فتحـا فقال : " فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً " (٣) ؛ وهـــذا شـــأنه سبحانه يقدم بين يدى الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمداخل إليها المنبئة عليها ، كمـــا قدم بين يدى قصة المسيح وخلقه من غير أب ، وقصة سيدنا زكريا وخلق الولد له مـــع كونه كبيرا لا يولد لمثله ، وكما قدم بين يدى نسخ القبلة قصة البيت وبنائه وتعظيمـــه والتنويه به ، وذكر بانيه وتعظيمه ومدحه ، ووطأ قبل ذلك كله بذكر النسخ وحكمتـــه المقتضية له ... وكذلك الهجرة كانت مقدمة بين يدى الأمر بالجهاد . ومن تأمل أســـرار الشرع والقدر رأى من ذلك ما يُبْهِرُ حِكمتُه الألباب) (٤) .

---

(١) سورة الفتح : ٢٧ .

(٢) سورة الفتح : ١ .

(٣) سورة الفتح : ٢٧ .

(٤) زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم : ٢ / ١٨٧ ، ١٨٨ بتصرف .

ويجوز أن يراد بالفتح فى بيت حسان : البيان ؛ مشتق من الفَتَاحَةِ وهى أن تحكم بين خصمين [١] ومنه ما جاء فى حديث اللّعان من قوله صلى الله عليه وسلم : (اللّهُمَّ افْتَحْ) [٢] ، قال النووى : " معناه : بَيِّنْ لنا الحُكْمَ فى هذا " [٣] ، فمعنى بيت حسان على هذا : أنكم إن خليتم بيننا وبين المسجد الحرام اعتمرنا ، وكان فى ذلك فصل ما بيننا ، والبيان فى أمرنا وأمركم ، ويزول الغطاء عن هذه الغمة التى حدثت بمنعكم لنا واحتجازكم عثمان بن عفان رضى الله عنه وما نتج عن ذلك من بيعة الرضوان .

وقوله : " وانكشف الغطاء " أى : عن وعد الله بتحقيق رؤيا النبى صلى الله عليه وسلم بدخول المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسنا ومقصرين غير خائفين . وكأن هذا الوعد كان تحت غطاء ، فلما تحقق انكشف عنه الغطاء ، فاستعار الغطاء لعدم تحقق الرؤيا استعارة تصريحية أصلية أبرزت هذا المعنى العقلى فى صورة حسية تبرزه وتوضحه ، وتصور الشئ الغيبى الذى لم يتحقق بصورة جرم محسوس مسجى بغطاء ، فإذا آن أوان ظهوره من حجب الغيب انكشف عنه هذا الغطاء ؛ وفيه إشارة إلى أن الرؤيا محققة وثابتة ولم يبق إلا أن يكشف غطاؤها .

ونظير هذه الاستعارة قوله تعالى : (لَقَدْ كُنْتَ فى غَفْلَةٍ مِنْ هَذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ) [٤] قال الزمخشرى : " جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله ، أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لا يبصر شيئا ، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت الغفلة عنه وغطاؤها ، فيبصر ما لم يبصره من الحق ، ورجع بصره الكليل عن الإبصار لغفلته حديدا لتيقظه " [٥] .

والخيار الثانى الذى طرحه حسان على كفار قريش يصوره قوله :

---

(١) ينظر لسان العرب : (ف ت ح) .

(٢) رواه مسلم فى كتاب اللعان : ١٠ / ١٢٨ بشرح النووى .

(٣) شرح النووى على مسلم : ١٠ / ١٢٨ .

(٤) سورة ق : ٢٢ .

(٥) الكشاف : ٤ / ٧ .

وإلاَّ فاصْبِرُوا لجِلاَدِ يَـوْمٍ   يُعِزُّ اللّـهُ فيـه مَـنْ يَشـاءُ

" إلا " فى البيت مركبة من " إن " الشرطية ، و " لا " النافية ، واستغنى بـ " إلا " هذه عن " إما " المكررة ؛ لأن السياق هو : " فإما تعرضوا عنا ... وإما فاصبروا " .

وإذا استغنى بـ " إلا " عن " إما " فالغالب أن يأتى بعد " إلا " الخيار السيئ الذى لا يميل إليه المتكلم ؛ ولذا يؤخره ويغير معه أداة التخيير ليظهر فيها حرف النفى " لا " الدال على الرفض ، وهذا ظاهر فى بيتى حسان ، وفى بيتى المُثقِّب العبدى المذكورين آنفا .

وفى الجملة إيجاز بحذف فعل الشرط لدلالة ما قبله عليه ، والتقدير : " وإلا تعرضوا فاصبروا لجلاد يوم ... " ؛ وهذا الحذف كثير مع " إلا " المستغنى بها عن " إما " المكررة حتى كأن العبارة بنيت عليه .

و" اصبروا لجلاد يوم " بمعنى انتظروه ، وعبر " عن الانتظار بالصبر لما كان حق الانتظار ألا ينفك عن الصبر ، بل هو نوع من الصبر ، قال : " فاصبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ " (1) ، أى ، انتظر حكمه لك على الكافرين " (2) .

والجِلَادُ : مصدر " جَالَدَ " ، يقال : جَالَدْناهم بالسيوف مُجَالَدَةً وجِلاداً : ضاربناهم " (3) ؛ وفى تعبير حسان بهذا اللفظ دلالة على اشتداد الحرب وقوتها .

وفى تنكير " يوم " تعظيم له ، لما يكون فيه من أهوال ، فهو يوم عظيم الخطر كبير الشأن .

وقوله : " يعز الله فيه من يشاء " صفة لـ " يوم " تزيد خطورته وأهميته . و " يعز " رواية الإمام مسلم وابن عسكر ، وفى الديوان " يعين " وهى رواية سديدة ؛ لأن عز الله مسبب ومترتب على عونه سبحانه ، فلا يكون عز للعبد إلا بعون من الله جل جلاله .

---

(1) سورة القلم : ٤٨ وسورة الإنسان : ٢٤ .

(2) المفردات فى غريب القرآن : (ص ب ر) .

(3) لسان العرب : (ج ل د) .

وهذا الأسلوب أطلق عليه الإمام الزمخشرى " الكلام المنصف " وله فى قصيدة حسان هذه شاهد آخر أشهر وأظهر ، وهو قوله :

أتهْجُوهُ ولستَ له بِكُفءٍ ؟ فَشَرُّكما لخيرِكُما الفِدَاءُ !

" وطريقة الكلام المنصف تكون - غالبا - فى مقامات الحوار والجدل ، ولا شك أن فى إنصاف الخصم ما يستدرجه إلى الحق ويقوده إليه ، وقد اعتمد النبيون وأتباعهم فى أداء رسالاتهم على هذا الأسلوب المهذب " [1] .

ومن أشهر شواهده فى كتاب الله قوله تعالى : (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أَوْ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ) [2] قال الزمخشرى : (وهذا من الكلام المنصف الذى كل من سمعه من موال أو مناف قال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبك . وفيه دلالة خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو فى الضلال المبين ، ولكن التعريض والتورية أفضى بالمجادل إلى الغرض ، وأهجم به على الغلبة : مع قلة شَغَب الخَصْم ، وفَلِّ شوكته بالهُوَينا ، ونحوُه قول الرجل لصاحبه : عَلِمَ الله الصادق منى ومنك ، وإن أحدنا لكاذب ، ومنه بيت حسان :

أتهْجُوهُ ولستَ له بِكُفءٍ ؟ فَشَرُّكما لخيرِكُما الفِدَاءُ) [3] .

فقول حسان " يعز الله فيه من يشاء " من الكلام المنصف ، وفيه تلطف بالمخاطبين وأخذ لهم بالهوينا ، مع أنه يعلم علم اليقين أن الله يعز المسلمين ، ولكنه لو صرح بذلك فقال " يعزنا الله " لهجم على مراده ولقطع طريق الحوار بينه وبين خصمه ، وسد عليه أبواب التفكير فيمن هو أحق من الفريقين بعز الله ، وحكم عليه بالتعصب لدينه وإخوانه .

---

(1) البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى . د / محمد أبو موسى : ص ٣٨٢ نشر مكتبة وهبة ط ثانية ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ .

(2) سورة سبأ : ٢٤ .

(3) الكشاف : ٣ / ٢٨٩ .

فمن براعة حسان أنه (أبهم المفعول – من يشاء – وجعله محتملا أن يفسر بالمسلمين أو بالمشركين ليوهم أن تعيين المقصود من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى تنصيص ، وأنه من الأمور المعروفة التي يدركها معارضوه قبل غيرهم ، وهذا شأن كل واثق بنفسه عندما يتحدى خصمه : فإنه يستغنى عن التصريح بما يثق به من النصر مثلا ، ويؤثر الإبهام فيقول له : ستعرف أينا المنتصر ، أو ما أشبه ذلك من العبارات ، وسلوك مثل هذه الطريقة يكون بلا شك أوقع فى النفس ، وأقوى فى إثبات المراد من التصريح) [1] .

* * *

وبعدما كنى حسان عن أن النصر والعز سيكونان للمؤمنين وعرض بهزيمة المشركين سلك سبيل التفصيل لما أجمله فى قوله : يعز الله فيه من يشاء " ليبين أن بواعث النصر وأسبابه متحققه للمؤمنين ، سواء أكانت هذه البواعث والأسباب قوى روحية أم قوى مادية . فجمع القوى الروحية فى ثلاثة أبيات ، فقال :

١ - وجبريلٌ رسـولُ الله فينا ، ورُوحُ القُـدُسِ ، ليس لـه كِفَـاءُ
٢ - وقال الله ، قد أرسلتُ عَـبدًا يقـول الحـقَّ إن نَفَـعَ البَـلاءُ
٣ - شَهِدتُ به ، وقوم صدِّقُوه ، فقُلْتم ، لا نجيـبُ ، ولا نشـاءُ

وجمع القوى المادية فى ثلاثة أخرى ، فقال :

٤ - وقال الله ، قد يسرتُ جندًا ، هُـمُ الأنصارُ ، عُرْضَتُهـا اللقـاءُ
٥ - لنا فى كل يـومٍ مـن مَعَدٍّ قِتـالٌ ، أو سِبَابٌ ، أو هِجَـاءُ
٦ - فنُحْكِمُ بالقَوافى مَنْ هجانـا ، ونضرِبُ حين تختلِطُ الدِّمـاءُ

وترتيب هذه الأبيات الستة من أصعب شئ وأشقه على الباحث ؛ وقد وقفت فى ترتيبها على ثلاث روايات أصول :

الرواية الأولى : تقوم على الترتيب السابق ، وهى رواية ابن هشام ، وتبعه فيها ابن القيم ، وإن أسقط منها البيت الثالث . كما تبعه فيها بعض ناشرى الديوان كالأستاذ " عبد أ . مهنا " ، ونشرة دار ابن خلدون . كما تبعه فيها بعض من تناول هذه القصيدة من المعاصرين كشيخنا الجليل الدكتور عبد المنعم يوسف ، رحمه الله .

---

(١) دراسات أدبية د / عبد المنعم يوسف : ص ١١٤ .

والرواية الثانية : رواية الديوان بتحقيق الدكتور / سيد حنفي حسنين ، وقد انفرد بها ، وتبعه فيها بعض المعاصرين ممن درسوا القصيدة كالدكتور / عبد الحليم حفني ، وترتيب الأبيات في هذه الرواية على النحو التالي : (٤ ، ٥ ، ٦ ، ٢ ، ٣ ، ١) ونصها :

٤ - وقال الله ، قد يسرتُ جندا ، هُمُ الأنصارُ ، عُرْضَتُها اللّقاءُ
٥ - لنا في كل يومٍ من مَعَدٍّ قِتالٌ ، أو سِبَابٌ ، أو هِجَاءُ
٦ - فنُحْكِمُ بالقوافي مَنْ هجانا ، ونضربُ حين تختلِطُ الدِّماءُ
٢ - وقال الله ، قد أرسلتُ عَبداً يقول الحقَّ إن نَفَعَ البَلاءُ
٣ - شَهِدتُ به ، وقومي صدَّقوه ، فقُلْتم ، لا نُجِيبُ ، ولا نَشاءُ
١ - وجبريلٌ رسولُالله فينا ، ورُوحُ القُدُسِ ، ليس له كِفَاءُ

والرواية الثالثة : رواية الإمام مسلم ، وتبعه فيها ابن عساكر ، وهي على الترتيب التالي (٢ ، ٤ ، ٥ ، ١) وأضاف قبل البيت رقم (١) بيتا آخر ليس في الروايتين السابقتين ، ونص الرواية :

٢ - وقال الله ، قد أرسلتُ عَبداً يقول الحقَّ إن نَفَعَ البَلاءُ
٤ - وقال الله ، قد يسرتُ جندا ، هُمُ الأنصارُ ، عُرْضَتُها اللّقاءُ
٥ - لنا في كل يومٍ من مَعَدٍّ قِتالٌ ، أو سِبَابٌ ، أو هِجَاءُ
فمن يهجو رسول الله منكم ويمدحه وينصره سواء ؟
١ - وجبريلٌ رسولُالله فينا ، ورُوحُ القُدُسِ ، ليس له كِفَاءُ

ونقصت هذه الرواية عن الروايتين السابقتين البيتين الثالث والسادس .

فأما الرواية الأولى فهي – فيما أرى – الجديرة بالقبول من حيث المعنى وكثرة الرواية ، فمن حيث المعنى = لأنها قدمت في عد أسباب تفوق المؤمنين ذكر القوى الروحية على القوى المادية ، دلالة على أن المؤمنين إنما ينصرون أولا بقوة عقديتهم وصدق إيمانهم بالله تعالى وملائكته ورسله ، ثم يأتي بعد ذلك كثرة عددهم وعتادهم . كما أنها قدمت في ذكر القوى الروحية سيدنا جبريل – عليه السلام – وهذا أنسب وأجود ، لأنه لا كفاء له . = ومن حيث كثرةُ الرواية ؛ لأنها رواية ابن هشام وابن القيم

وبعض نشرات الديوان ودراسات المتذوقين من المعاصرين . ومن أجل هـذا خـالفتُ روايـة الديوان المحقق واخترت عليها هذه الرواية

وأما الرواية الثانية فهى عكس الرواية الأولى من حيث المعنى ومن حيث الرواية ، ولذا فهى – فيما أرى – مرجوحة لا راجحة .

وأما الرواية الثالثة فبادٍ عليها النقص والاضطراب .

* * *

وافتتح حسان أسباب النصر ووسائله الروحية بأن سيدنا جبريل ــ عليه السـلام ــ سيكون مع المؤمنين فى هذه المعركة ، وجبريل ليس له مماثل ولا مقاوم ، قال حسان :

وجِبْرِيلٌ رسولُ اللهِ [1] فينا ورُوحُ القُدُسِ ، ليس له كِفَاءُ

فأول مدد الله وعونه للمؤمنين فى المعركة هم الملائكة الكرام ، يقدمهم سيدنا جـبريل ــ عليه السلام ــ وهذا مستنبط من قول الله ــ جل جلالـه ــ (إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلى المَلَائِكَةِ أنى مَعَكُمْ فثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا) [2] .

وتقديم جبريل ــ عليه السلام ــ فى ذكر وسائل النصر لأنه مدد من عند الله ، يفـوق كل مدد ، وبشرى من الله تفوق كل بشرى ، وطمأنة للنفوس وتثبيت لا مثيل له .

وصياغة هذا البيت من بديع الصياغة ورائعها ، إذ يصلح فى فهم معناه أن تعتبر كـل واحد من الشطرين جملة مستقلة ، فيكون " وجبريل رسول الله فينا " جملة ، و "روح القـدس ليس كفاء " جملة أخرى ، كما يصلح فى البيت أن يقوم على جملتين أخريين ، فيكون قولـه " وجبريل رسول الله فينا وروح القدس " جملة ، وقوله " ليس له كفاء " جملة أخرى مسـتأنفة ، كما يصلح أن يكون البيت كله جملة واحدة ركناها المبتدأ " جبريل " والخبر " ليس له كفـاء " وما بينهما صفتان لجبريل ــ عليه السلام ــ . وحَمْلُ البيت على أكثر من وجه وقراءته علـى أكثر من صورة من أمارات ثرائه وخصوبته وكثرة مائه .

---

(1) فى رواية الديوان : " أمين الله " .

(2) سورة الأنفال : ١٢ .

وحرف الجر (فى) فى قوله : (وجبريل رسول الله فينا) دال على المصاحبة ، بمعنى "معنا" ، كما فى قوله تعالى : (ادْخُلُوا فى أُمَمٍ)[1]، (أى : مع أمم) [2] ، وآثر حسان التعبير بـ " فى " الدالة على الظرفية والوعاء تكريما لسيدنا جبريل ـ عليه السلام ـ بأنه يكون فى الصدر من جيش المؤمنين وهم وراءه ، فإذا جاء العدو كان جبريل ـ عليه السلام - أول من يلقاهم ، ولذا قال تعالى (إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذين آمَنُوا) [3] ، فالتعبير بهذا الحرف دل على أن جبريل ـ عليه السلام ـ سيكون فى صدر الجيش ، وأن المشركين سيقابَلُون من أول وهلة بما لا طاقة لهم به .. ولهذا لم يعبر بحرف المصاحبة " مع " لما يقتضيه من أن جبريل سيكون فى الحاشية من الجيش لا فى الصدر [4] .

وآثر حسان ـ رضى الله عنه ـ وصف جبريل عليه السلام بروح القدس لما فى هذا الوصف من معان حسنة تلائم المقام ، ومنها : بيان علو مرتبته عند الله . ومنها : أنه ـ عليه السلام ـ هو المتولى إنزال الوحى على الأنبياء ، فبه يحيا الدين كما يحيا البدن بالروح [5] . وتسميته روح القدس جرت على سبيل التشبية من حيث إن الروح كما أنه سبب لحياة الرجل فكذلك جبريل ـ عليه السلام ـ سبب لحياة القلوب بالعلوم) [6] .

وتنكير " كفاء " فى قوله :"ليس له كفاء " يفيد العموم والشمول ، أى : ليس له أى مماثل ولا مقابل ، ولذا قدمه حسان .

* * *

ثم ذكر حسان العُدَّة الثانية وهى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أشجع العرب وأقواهم ، الصادق القول الأمين ، فقال :

وقال الله ، قد أرسلتُ عَبداً ، يقول الحقَّ إن نَفَعَ البَلاءُ

---

(1) سورة الأعراف : ٣٨ .

(2) الجنى الدانى : ص ٢٥٠ .

(3) سورة الحج : ٣٨ .

(4) ينظر من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم د/ محمد الأمين الخضرى : ص ١٥٥ نشر مكتبة وهبة ط أولى : ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م .

(5) مفاتيح الغيب للرازى : ٢٤٣/٢ ط دار الغد العربى .

(6) المصدر السابق : ٢٤٤/٢ .

ويلاحظ أن حسان غير طريقة نظم الكلام فى هذا البيت عنه فى البيت السابق ، فلم يقل هنا " وأحمد ذا نبى الله فينا " كما قال آنفاً : " وجبريل رسول الله فينا " ، وفى هذا تلوين للأداء وتفنن فيه ، وسلوك بالعبارة مسلك الحكاية من أولها من يوم قال الله قد أرسلت عبدا فآمنا به وكفرتم ، وصدقناه وكذبتم ، ودافعنا عنه وآذيتموه . وهذا المسلك أحرى بتنشيط السامع وإثارة انتباهه ليتابع القصة من بدايتها ويعرف الحكاية من أولها .

وعناصر التوكيد فى هذا البيت بارزة جداً ، منها إسناد الفعل " قال " إلى لفظ الجلالة ، تأكيداً لرسالته صلى الله عليه وسلم وتشريفا له بأن رسالته كانت بقول الله وكلمته . ومنها حرف التحقيق " قد " .

وبناء هذا البيت من النمط العالى الذى يأخذ بمجامع الألباب لما فيه من بلوغ غاية التشريف والتكريم فى التعبير بـ " أرسلت " ، لأن الرسالة شرف ما فوقه شرف ، ثم بلوغ غاية التذلل والخضوع فى التعبير بـ " عبداً " إشارة إلى أن العبودية الكاملة لله المفادة من تنكير (عبداً) هى مناط التشريف والتكريم ، وهى طريق الرسالة ، ولما أراد المولى – عز وجل – تكريم رسوله صلى الله عليه وسلم وصفه بالعبودية فقال : (سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ) [1] ثم رجع الأسلوب إلى نمطه الأول فاشتد ، واحترس عما قد يفهم من العبودية من اللين والضعف فقال " يقول الحق " ، فهو عبد لله قوى فى الحق لا يهاب أحداً إلا الله ، والجملة الفعلية تدل على التجدد والاستمرار ، أى أنه يصدع بالحق فى كل مقام ، فهذا القول يتجدد منه كلما تجددت دواعيه ومقاماته ، وفى تعريف " الحق " دلالة على الكمال ، أى أنه يقول الحق الكامل التام الذى لا يلتبس بشوب من النقصان ولا يقترب منه الباطل أبداً ، (وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْىٌ يُوحَى) [2] .

وقيد الفعل " يقول " بالجملة الشرطية " إن نفع البلاء " مع أنه صلى الله عليه وسلم يقول الحق فى كل حال سواء فى الشدة أو الرخاء من باب التعبير بالصورة العليا ليندرج تحتها ما هو أقل منها ، فقيد هنا قول الحق بحال شدة البلاء واستحكامه ليندرج تحتها ما هو أقل منها ،

---

(1) سورة الإسراء : ١ .

(2) سورة النجم : ٣ ، ٤ .

ونظيره قوله تعالى : (وَإذَا حَضَرَ القِسْمَةَ أُولُوا القُرْبَى وَاليَتَامى والمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً) [١] فإنه سبحانه " خص صورة حضورهم وإن كانت العليا بالنسبة إلى غيبتهم ليبعثهم بذلك على إعطاء ذى الرحم حضر أو غاب " [٢] .

وبقوله " إن نقع البلاء " [٣] يصل البيت إلى غاية الشدة والارتقاء الصاعد بعد قوله " يقول الحق " ، لأن قول الحق وإن كان شديداً إلا أنه عند استحكام البلاء وإحاطة المصاعب أشد .

والنقع فى الأصل يستعمل لاجتماع الماء فى المَسيل وثباته فيه ، ويستعار لاستحكام الشر ودوامه فيقال : نَقَعَ له الشرَّ ، إذا أثبته وأدامه " [٤] ؛ وعلى هذا فالنقع فى بيت حسان مستعار لثبات البلاء ودوامه . وفيه أن ثبات الماء ودوامه فى المستنقع كفيلان بتغيره وإفساده وإحالته بطول المكث إلى ماء آسن عفن .. وكذلك ثبات البلايا ودوامها كفيلان بتغير النفوس وزحزحتها عن الثبات على الحق إلى تزيين الباطل والقول به والانحراف إلى التيارات الفاسدة ، بعد فساد الضمير وتشويش الفكر .. لكن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الثابت على الحق ، الصادع به مهما نقع البلاء ، واشتد ، واستحكم .

******

ثم ذكر حسان العُدَّة الثالثة للنصر ، وهى إيمان المسلمين بالرسول صلى الله عليه وسلم وبرسالته ، ودفاعهم عنه بأموالهم وأنفسهم ، وتلك دعامة مهمة من دعائم النصر ، لأنها تصور فى جوهرها قناعة المقاتل فى الميدان بالقضية التى يحارب من أجلها ويَفْدِيها بحياته ، وهذه القناعة متحققة على أكمل وجه فى أنصاره صلى الله عليه وسلم ، وغير متحققة فى المشركين ، لأن عدم إيمانهم بالرسول صلى الله عليه وسلم تركهم خَوَاءً بدون قضية يدافعون عنها ولا مبدأ يعيشون له ، قال حسان :

شَهِدتُ به ، وقَومى صدَّقُوه ،   فقُلْتم ، لا نُجِيبُ ، ولا نَشاءُ

---

(١) سورة النساء : ٨ .

(٢) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير : ١/٤٩٥ ، ٤٩٦ بتصرف .

(٣) وفى نسخة شيخنا الدكتور عبد المنعم يوسف ـ رحمه الله ـ إن نفع البلاء " بالفاء، ووجهه على معنى " إن نفعكم الاختبار عرفتم أنه يقول الحق ؛ أو اهتديتم إلى ما يقول من حق ، أو ما أشبه ذلك " (دراسات أدبية : ص ١١٥) .

(٤) ينظر أساس البلاغة ولسان العرب : (ن ق ع) .

ولايزال الأسلوب يمضى على طريق الحكاية التى ابتدأها حسان فى البيت الماضى ، ويصور البيت بشطريه موقفين متقابلين أتم التقابل ، موقف المسلمين من الرسول صلى الله عليه وسلم وموقف المشركين منه ، ولذا قام على أسلوب المقابلة ، فقابل معنيين فى الشطر الأول بضديهما فى الشطر الثانى ، وإن تكن الضدية هنا فيها شئ من المسامحة ، فقابل " شهدت به " بـ " لا نجيب " ، وقابل " قومى صدقوه " بـ " لانشاء " ، وصورت هذه المقابلة بُعْدَ ما بين الفريقين .

وفى تقديم شهادة حسان بالنبى صلى الله عليه وسلم على تصديق قومه به فى قوله : " شهدت به وقومى صدقوه " دلالة على أن إيمانه ناشئ عن يقين واقتناع لا عن تقليد واتباع ، وكذا كل من آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم وصدقه من قوم حسان ... وفى التعبير بـ " شهدت " دلالة على أن الإيمان به نابع عن مشاهدة ورؤية تكشف للرائى جوانب العظمة والإعجاز التى منحها الله لأحب خلقه إليه وأكرمهم عليه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وذلك أن الشهادة مشتقة من الشهود .

وحُذِف مفعولاً " نُجيب – ونشاء " والتقدير : لا نجيبه أو لا نجيب دعوته ، ولانشاء تصديقه ، قصداً من الشاعر إلى إثبات أن هؤلاء المشركين لم تكن منهم إجابة ولا مشيئة بغض النظر عمن تقع عليه هذه الأفعال ، وكأنهم بادروا بالرفض دون أن يفكروا فى جوهر ما رفضوه وصموا آذانهم عن سماعه ، وأغلقوا قلوبهم بأقفالها ، مع أنه هو الهدى كله ، والخير كله ، والنور كله ... وهكذا عقول أهل الشرك والغفلة تبادر إلى الهروب من كل خير قبل أن تبصره وتتفكر فيه ، وكأن الهروب والإعراض ديدنها ، ولذا كان حذف المفعولين هنا كاشفا عن تلك الصفات الرديئة والطبائع السقيمة .

البيت فى جوهره مقابلة بين أولئك الذين يفتحون عقولهم وقلوبهم وآذانهم لنور الله ويتفكرون فيه ، ويهتدون بهديه المستقيم ، وبين هؤلاء الشاذين عن منطق الفطرة ، الذين يقابلون كل خير بالإعراض دون أن ينظروا فيه ، ويواجهون كل نور بالعمى دون أن يفتحوا عيونهم على إشراقه وبهائه .

ويروى الشطر الأول فى الديوان " شهدت به ، فقُومُوا صدقود " ، ولا أميل إلى هذه الرواية لأن المقام للمقابلة بين الفريقين فناسبه الكشف عن أن قوم الشاعر صدقوا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا ما أبانته رواية " وقومى صدقوه " ، ولذا اخترتها وإن لم تود إلا فى

نسخة من مخطوطات الديوان ذكرها المحقق فى الهامش ولم يعتمدها فى المتن ، ولم تذكرها أيضاً رواية ابن هشام .

ويروى الشطر الثانى " فقلتم : ما نحب وما نشاء " [1] ولا أميل إليها ، لأنهم كافرون به معرضون عنه فكيف يحبونه ؟ إنما يأتى الحب مع القبول والطاعة .!

******

بهذه الأبيات الثلاثة السابقة حدد حسان القوى الروحية للنصر ، ثم بدأ فى الحديث عن القوى المادية له ، فقال :

وقال الله ، قد يسرتُ جندا ، هُمُ الأنصارُ ، عُرْضَتُها اللّقاءُ

ووصل حسان هذا البيت بما قبله فى سوقه له على سبيل الحكاية ، واتفاقه معه فى طريقة التركيب اللغوى من حيث تصدير البيت بـ " قال الله " كما فعل فيما سبق ، واستخدام " قد " التحقيقية أيضاً يتبعها الفعل المضارع ثم المفعول مُنكّرا ، فالتشابة ظاهر جدا بين قوله : (وقال الله : قد أرسلت عبدا) ، وقوله (وقال الله : قد يسرت جندا) ، ولكنه غير هنا تركيب الشطر الثانى عن نظيره السابق فى قوله (يقول الحق إن نفع البلاء) فأتى هنا بجملتين اسميتين (هم الأنصار ، عرضتها اللقاء) .

وإذا كان لفظ " عبد " فى قوله : " وقال الله قد أرسلت عبدا " يصور غاية الخضوع لله ، فإن لفظ " جند " هنا فيه معنى القوة والغلظة والتجمع ، فإنه يقال : (للعسكر الجُندَ اعتباراً بالغلظة ، من الجُنْدِ : أى الأرض الغليظة التى فيها حجارة ، ثم يقال لكل مجتمع " جند " نحو : الأرواح جنود مجندة ") [2] .

وعند ابن هشام : " أرسلت جندا " ويروى " سَيَّرتُ جُنداً " وفى الديوان وعند الإمام مسلم وابن عساكر " يَسَّرتُ جُنداً " وهو ما أميل إليه لما فيه من الدلالة على أن هؤلاء الأنصار ميسرون ليكونوا جندا لله ومهيؤون منذ نشأتهم لتلك الرسالة ، وكأن الله خلقهم لها وجندهم فى سبيلها ، و " كلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له " [3] أى مهيأ له ومعد غاية الإعداد ، ويؤيد هذه المعنى

---

(1) هذه الرواية اعتمد عليها الدكتور / عبد المنعم يوسف ، ولم أقف لها على أصل .

(2) المفردات فى غريب القرآن : (ج ن د) .

(3) رواه الإمام أحمد فى المسند : ٤ / ٦٧ حديث ذى اللحية الكلابى رضى الله عنه .

رواية اللسان " وقال الله : قد أعددتُ جندا " (١) أى : صنعتهم على عينى ورعايتى ، قال النووى : " يسرت جندا : أى هيأهم وأرصدهم " (٢) ... ولذا كان " رجال الأنصار أشجع الناس ، قال عبد الله بن عباس : ما استُلت السيوف ، ولازَحَفت الزُّحوف ، ولا أُقيمت الصفوف ، حتى أسلم ابنا قَيْلَةَ : يعنى الأوس والخزرج ، وهما الأنصار " (٣) .

وتنكير " جندا " يدل على تعظيم شأن هؤلاء الجند الذين هُيِّئوا لهذه الرسالة السامية وصنعوا على عين الله ورعايته .

ولما بلغ حسان فى وصف الجند إلى هذا الحد أحس أن السامع يتشوق إلى معرفتهم : من هم ؟ فقال : " هم الأنصار " ، وفصل الجملة عن التى قبلها كما يفصل الجواب عن السؤال مراعاة لهذا المعنى الذى أثاره الوصف السابق وأغرى به .

والأنصار : مشتق من النُّصْرَة وهى العون والمساعدة ، يطلق على كل من نصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، سواء كانوا من أهل المدينة أم غيرهم ، ثم صار هذا الوصف اسما لأهل المدينة المنورة الذين نصروا الرسول صلى الله عليه وسلم : حَدَّث (غيلانُ بنُ جَرير قال : قلتُ لأنسٍ : أرأيتَ اسمَ الأنصارِ : كنتم تُسَمَّون به أم سماكم الله ؟ قال : بل سمانا الله) (٤) ، قال ابن حجر : " هو اسم اسلامى سمى به النبى صلى الله عليه وسلم الأوس والخزرج وحلفاءهم " (٥) .

وقوله " عُرْضَتُها اللقاء " أى : أقوياء عليه ، " يقال : بعير عُرْضَةٌ للسفر ، إذا كان قويا عليه ، وفلان عُرْضَةٌ للخصومة إذا كان مطيقا لها ، وفلانة عُرْضَةٌ للزواج : إذا أدركت له " (٦) ، وهذه الكلمة تدل على كثرة تعرضهم للقتال وتمرسهم على فنونه وخوضهم غمراته وشدائده ؛ ولذا " قيل : الأصل فى العُرْضَةِ أنه اسم للمفعول المعترض مثلُ الضُّحْكَةِ والهُزْأَة :

---

(١) اللسان : (ع ر ض) .

(٢) النووى على مسلم : ١٦ / ٥١ .

(٣) العقد الفريد : ١ / ١١٠ .

(٤) رواه البخارى فى كتاب المناقب باب مناقب الأنصار : ١١ / ٨٧ ، ٨٨ برقم : ٣٧٧٦ ط دار الغد العربى .

(٥) فتح البارى : ١١ / ٨٧ .

(٦) ديوان حسان : ص ٧٤ .

الذى يُضْحَكُ منه كثيرا ويُهْزَأُ به ، فتقول : هذا الغرض عُرْضَةٌ للسهام : أى كثيرا ما تعترضه ... فتصير العرضة بمعنى النَّصْبِ ... كقولك : هذا الغرضُ نَصْبٌ للرُّمَاةِ كثيرا ما تعترضه " [1] .

وبعدما ذكر حسان قوة المسلمين على سبيل الإجمال بينها بقوله :

لنا فى كل يـــومٍ مـــن مَعَدٍّ قِتالٌ ، أو سِبَابٌ ، أو هِجَـــاءُ
فنُحْكِمُ بالقَوافى مَنْ هجانـــا ، ونضرِبُ حين تختلِطُ الدِّمـــاءُ

لما أجمل وصفهم بالقوة فى قوله " عرضتها اللقاء " أخذ فى تفصيل هذه الصفة فذكر أن لهم فى كل يوم قتالا مع " معد " أو سبابا أو هجاء . والكلية التى عبر عنها بلفظ " كل يــوم " تفصيل لكونهم عرضة للقاء أى غرضا منصوبا له ، فهم فى قتـال كـل يـوم ، وهـذا أبـين لشجاعتهم وفَرْطِ قوتهم .

ولما قصد حسان تفصيل هذه القوة ساق كلامه فى أسلوب الالتفات من الغيبة فى قولـه " هم الأنصار عرضتها اللقاء " إلى التكلم فقال : لنا فى كل يوم ... " إدلالا بالقوة وافتخـارا بالشجاعة التى إذا فصلها المتكلم أضافها إلى نفسه بصيغة التكلم اعتزازا ومباهاة ؛ ولو جـرى على طريق الغيبة لقال : " لهم فى كل يوم ... " وما كسر له وزن ، هذا فضلا عما فى الالتفـات من إثارة وتنشيط للسامع ودلالة على أهمية ما يلقى عليه .

وعند ابن عساكر [2] :

يُلاَقُوا كلَّ يومٍ من مَعَدٍّ سباب ، أو قتال ، أو هجاء

وليس فيه جمال الالتفات الذى فى روايتى ابن هشام والديوان ، فضلا عما كان يجب فيه من نصب " سباب – وقتال – وهجاء " وما يترتب عليه من الإقواء .

و (مَعَدٌّ) هو ابنُ عَدْنَانَ ، وعَدْنانُ جَدُّ عرب الحجاز ، الذى ينتهى إليه نسب النـبى صلى الله عليه وسلم ؛ وإلى ولده " معد " ينسب كثير من العرب ، ومنهم قريش [3] .

ولو قال حسان " لنا فى كل يوم من قريش " لكان صحيحا ولم يكسر له وزن ، ولكنـه أراد بذكر " معد " الدلالة على عموم تمرسهم بالحرب وكثرة تجاربهم وشدة بلائهم ، فلـم تقتصـر حروبهم على قريش وحدها ، بل ما من قبيلة من العرب أو بطن من بطونها ينتهى نسبها إلى معد

---

(1) لسان العرب : (ع ر ض) بتصرف .

(2) تهذيب تاريخ دمشق : ٤ / ١٣١ .

(3) ينظر البداية والنهاية لابن كثير : ١ / ٦١٤ نشر الغد العربى ط أولى ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م .

بن عدنان إلا ولهم معها لقاءات ومواقع ؛ وهذا تفسير ظاهر لقوله قبل ذلك " عرضتها اللقاء " ؛ ولذا أرى أن الشيخ البَرْقُوقى - رحمه الله - ضيق هذا المعنى الواسع حين فسر " معد " بـ " قريش " فقط ، فقال " قوله : من معد : يريد قريشا ؛ لأنهم عدنانيون " [1] .

وقدم حسان القتال على السباب والهجاء ؛ لأن القتال أقواها وأشدها وأدلها على الشجاعة والبطولة .

وعند ابن هشام " سباب أو قتال أو هجاء " بتوسط القتال بين السباب والهجاء ، ورواية الديوان بتقديم القتال وهى أقوى وأولى لما سبق .

وفى ذكر السباب والهجاء دلالة على أنهم لم يتمرسوا على الحرب بالسلاح فقط ، بل تمرسوا أيضا على الحرب باللسان لبلاغتهم وقوة عارضتهم عند الخصومة واللدد وطلاقة ألسنتهم فى باب الهجاء والحرب الكلامية ... وبهذا جمع حسان للمسلمين الشجاعة من بابيها : شجاعة السيف ، وشجاعة اللسان ، وجعل شجاعة اللسان وقوة منطقه قوة مادية أخرى تضاف إلى قوة السلاح والسنان .

والسباب والهجاء : الشتائم وعد المعايب ، ولكن الهجاء غَلَب على ما يكون شعرا [2] .

واستدل الدكتور عبد الحليم حفنى بهذا البيت وبالذى قبله على (عنصرية حسان وعصبيته القبلية ضد قريش ... ففى البيت السابق تحدث عن أن الذين يتوعدون قريشا هم الأنصار ، وليس هذا بحق ، فالمتوعدون هم المسلمون عامة ، وليسوا الأنصار خاصة ، وأين المهاجرون إذن ؟ ولكن حسان يفكر من زاوية العصبية قبل زاوية الدين ، وفى هذا البيت يصرح بأن مصدر العداء لقريش هو كونها من معد بن عدنان وهو قحطانى يمنى الأصل ، بينما كان ينبغى أن يكون مصدر العداوة كون قريش على الكفر ، وهو على الإسلام ، وإلا فإن المهاجرين القرشيين الذين يقاتلون مع الأنصار هم أيضا من معد بن عدنان ، هل هم أيضا أعداؤه ؟) [3] .

---

[1] ينظر شرح ديوان حسان للشيخ عبد الرحمن البرقوقى : ص ٥٩ ط . دار الكتاب العربى .

[2] ينظر دراسات أدبية د / عبد المنعم يوسف : ص ١١٧ .

[3] الشعراء المخضرمون : ص ٢٤٨ ، ٢٤٩ بتصرف .

ولست مع الدكتور فيما ذهب إليه من رمى حسان بالعصبية ، وإنما هو اعتزاز بالأنصار ، ولا يتعرض للمهاجرين ، وأما كون عدائه لقريش سببه أنها من " معد " فيدفعه أنه لو كان صحيحا لقال " من قريش " دون أدنى إخلال بوزن البيت ، ولكنه آثر التعبير بـ " معد " لما ذكر آنفا .

وقوله :

فنُحْكِمُ بالقَوافى مَنْ هجانا ، ونضرِبُ حين تختلِطُ الدِّماءُ

يرتبط بالبيت السابق ارتباطا وثيقا عن طريق أسلوب اللف والنشر ، الذى جعل البيتين كأنهما جملة واحدة ، يتصل آخرها بأولها ، فقوله " فنحكم بالقوافى من هجانا " يرجع إلى قوله فى البيت السابق " سباب أو هجاء " . وقوله " ونضرب حين تختلط الدماء " يرجع إلى قوله " قتال " ، فالنشر على خلاف ترتيب اللف ، إشارة إلى أنهم متمرسون فى الضربين : القتال بالسلاح والقتال باللسان سواء تقدم أحدهما على صاحبه أم تأخر عنه .

ولاشك فى أن أسلوب اللف يعتمد على فطنة السامع وذكائه وقدرته على ربط أطراف الكلام وجمع أَزِمَّةِ المعانى ليلتئم منها سلك واحد وحبل متين .

وإذا جاء النشر على خلاف ترتيب اللف - كما هنا - كان أحوج إلى مزيد من الفطنة والتنبه ، بعكس ما لو جاء على وفق ترتيبه ؛ لأن رد الثالث إلى الأول والرابع إلى الثالث وإن كان عجيبا إلا أن رد الرابع إلى الأول والثالث إلى الثانى أعجب لبعد ما بين الرابع والأول ، وكلما بعدت الشقة بين اللفظين مع ارتباط أحدهما بالآخر كان أمتع للنفس وأيقظ للحس وأدل على طول نفس الشاعر وامتلاكه ناصية البيان .

وللقرآن الكريم فى هذا الفن تصرف باهر يأخذ بمجامع القلوب والألباب ، وهو موضوع دراسة تحتاج إلى من يصبر لها ويتأنى فى رصد صورها واستنباط أسرارها ولطائفها ، وحسب هذا الفن شرفا أن تقوم عليه سور بأكملها كسورة الواقعة التى يعد تلازم سياقها وترابطه من أروع شواهد اللف والنشر وأغزرها عطاء وثراء .

وفى البيت دلالة على أن النهج الغالب فى حرب المسلمين سواء كانت بالكلمة أم بالسيف أنها حرب دفاعية لا هجومية ، فهم لا يبدءون بالهجاء ، وإنما يهجون (من هجاهم) ، ولا يضربون بالسلاح إلا حين لا يكون ثمة مفر من القتال ، ولا يكون ثمة علاج سواه ؛ ولذا قال حسان : (ونضرب حين تختلط الدماء) .

وقوله (فنحكم بالقوافى) قال رواة الديوان " نُحْكِمُه : نَكُفُّه ونمنعُه ، ومن هذا سمى القاضى حاكما ؛ لأنه يمنع الظلم ، وحَكَمَةُ اللِّجامِ من هذا ؛ لأنها تكف من غَرْبِ الدابة ، وقد حَكُمَ الرجلُ إذا عَقَل وكَفَّ وانتهى وأَسَنَّ ... ومنه قول القائل : حكِّمِ اليتيمَ كما تُحَكِّمُ ولدَكَ " (١) .

وفى الأسلوب تصوير بيانى خالب يشبه القوافى ، وهى القصائد فى منعها لمن يهجوهم وكفها إياه عن الهجاء بحكمة اللجام بالنسبة للدابة ؛ لأنها تكفها وتمنعها من الشرود والجموح ، وتجعلها مذللة منقادة لراكبها ، ثم حذف المشبه به ورمز له بلازم من لوازمه وهو " نحكم " على سبيل الاستعارة المكنية التى تصور استحكام قدرتهم على رد هجاء المشركين بصورة حسية ، أبانت عن أن هجاء شعراء المسلمين لأعدائهم يُلْجِمُهم ويَأْسِرُهم ويحوطهم من كل جهة كما أن حكمة اللجام تحيط بفم الدابة إحاطة تامة ، فكذلك هجاء المسلمين لعدوهم يجعلهم كالخرس لا يَبْسُون بِبِنْتِ شَفَةٍ .

وقد أوجز السهيلى البيان عن هذه الصورة فقال " نحكم : أى نرد ونَقْرَعُ ، وهو من حَكَمَةِ الدابة ، وهو لِجَامها ، ويكون المعنى أيضا : نُفْحِمُهم ونُخْرِسُهم ، فتكون قوافينا لهم كالحَكَمات للدواب " (٢) .

وفى هذه الاستعارة تصوير " من هجاهم " بصورة الدواب التى لا عقل لها ، لأنهم لو كانت لهم عقول يفكرون بها لأبصروا الحق وما أقدموا على هجاء الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، وقد صور القرآن الكريم الكفار بالدواب والأنعام فقال سبحانه : (أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ) (٣) ، (أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً) (٤) ، (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ) (٥) .

---

(١) ديوان حسان : ص ٧٤ ، ٧٥ بتصرف .

(٢) الروض الأنف : ٤ / ١١٨ .

(٣) سورة الأعراف : ١٧٩ .

(٤) سورة الفرقان : ٤٤ .

(٥) سورة الأنفال : ٥٥ .

وقول حسان : " ونضرب حين تختلط الدماء " كناية عن شدة الحرب واشتعالها ؛ لأن اختلاط الدماء فى الحرب لا يكون إلا بعد أن تلقى الحرب رداءها وتخترط السيوف ويحمى الوطيس ، فيتبادل الفريقان الضرب والطعن فتسيل الدماء ويختلط بعضها ببعض .

ولطالما تفنن الشعراء فى الكناية عن شدة الحرب ، فقال قيس بن الخطيم :

وقد جَرَّبتِ مِنى لَدى كلّ مأْقِطٍ ... دَحىً إذا ما الحربُ ألقتْ رداءَها [1]

وقال الفرزدق :

يَحمِى - إذا اخترِط السيوفُ - نِساءَنا ... ضَرْبٌ تُطِيرُله السَّواعِدُ أرعَلُ

وقال القطامى :

لم تُلْقَ قَوماً هُمُ شرٌّ لإخوتِهم ... منا عَشيةَ يَجْرِى بالدمِ الوادى

نُقْرِيهمُ لَهْذميَّاتٍ نَقُدّ بهـا ... مـا كان خَاطَ عليهم كُلُّ زَرَّادِ

فإذا أضيف بيت حسان إلى هذه الشواهد الثلاثة لأعطتنا أربع كنايات لشدة الحرب ، تصور كل منها درجة من درجات هذه الشدة ، فأول درجاتها كناية قيس " إذا ما الحرب ألقت رداءها " ، فإلقاء الرداء كناية عن التهيؤ وشدة الحمية ، كما يقولون : ألقى فلان رداءه يريدون أنه تهيأ واستعد للأمر ، وفيها تصوير الحرب بصورة الإنسان ذى الرداء [2] . وثانى درجاتها كناية الفرزدق " إذا اخترِط السيوف " ، فاختراط السيوف : سَلُّها وتهيؤها للنزال ، أراد أن يبرز صعوبة ذلك الوقت الذى يحمى الضرب الأرعل فيه النساء ، وأنه وقت يصاب فيه غيرهم بالدهش والفجاءة [3] وثالثها كناية حسان " حين تختلط الدماء " ، لأنها تعنى أن الحرب قد اشتدت وأن القتلى والجرحى قد سقطوا مضرجين بدمائهم ، وأن سقوطهم كان على غير نظام بسبب تطاير أشلائهم ثم سيلان الدماء واختلاطها . ورابعها كناية القطامى : " يجرى بالدم الوادى " ، فإنها أعلى من كناية حسان ؛ لأنها صورت دماء الجرحى والقتلى وقد امتلأ بها الوادى وغص حتى جرى بها ، وإسناد الجرى إلى الوادى مجاز إسنادى من إسناد الفعل إلى

---

(1) (المَأْقِطُ : المضيق فى الحرب ، وجمعه المَآقِطُ . والمَأْقِطُ : الموضع الذى يقتتلون فيه . والدُّحَيَّةُ : رئيسُ الجند ومُقدَّمُهم ، وكأنه من دحاه يدحوه إذا بسطه ومهده ؛ لأن الرئيس له البسط والتمهيد) [اللسان : أ ق ط ، د ح ا] .

(2) ينظر التصوير البيانى : ص ٣٩٣ ، ٣٩٤.

(3) خصائص التراكيب : ٨٤ بتصرف .

مكانه ، " ووراء هذا المجاز إشارة إلى عموم الدم وشموله المكان كله ، وفيه دلالة على صعوبة الموقف وعرامة الحرب ، وإذا كانت الطعنات مسددة ومتمكنة فى هذا الوقت الشديد كان ذلك دليل صدق البطولة وقوة القلب ، ورباطة الجأش " [1] .

فالكنايات الأربع أقواها وأشدها كناية القطامى ، تليها كناية حسان ، ثم كناية الفرزدق ، ثم كناية قيس بن الخطيم .

ويلاحظ فى قول حسان " ونضرب حين تختلط الدماء " أنه حذف مفعول " نضرب " إشارة إلى أن الضرب فى هذه الحال الشديدة الصعبة لا يفرق بين مضروب وآخر ، فهم يضربون من أعدائهم كل ما تطوله سيوفهم ، وهكذا حال من اندفع فى صنع شئ وأتقنه يستوى عنده كل ما يقع تحت يديه مما يصنع ، فهو به خبير . فضلا عما فى هذا الحذف من دلالة على جسارة قلوبهم ، وقوة بطشهم ؛ لأن الفارس الذى يحسن تسديد الضرب حين تختلط الدماء وتتراكم جثث القتلى والجرحى فارس مغوار ، وبطل صنديد .

وفى هذا البيت من براعة حسان جمعه السكون إلى الغاية والحركة إلى الغاية فى بيت واحد ، ففى الشطر الأول نرى قوافى شعراء المسلمين تُخرِس الهجائين من شعراء العدو وتلجمهم بلجام شديد فتتركهم ساكتين صامتين لا ينطقون ، وفى الشطر الثانى نرى الضرب السريع الطائش الذى تطير به الرقاب وتختلط منه الدماء فى حركة هائجة وصراع دائم وثاب .

---

(1) التصوير البيانى د / محمد أبو موسى : ص ٢٢٣ .

٢٣ - ألا ، أبْلغْ أبـا سُفْيانَ عَـنّى ... مُغَلْغَلَـةً ، فقد بَـرِحَ الخَفـاءُ
٢٤ - بأن سُيوفَنا تركتـك عَبْداً ، ... وعبدُ الـدَّار سـادَتُها الإمـاءُ
٢٥ - هَجَوتَ مُحمَّداً ، فأجَبتُ عنه ، ... وعِنـدَ اللهِ فـى ذاكَ الجـزاءُ
٢٦ - أتَـهْجُوهُ ولسـتَ لـه بِكُـفءٍ ؟ ... فشَـرُّكما لخيرِكُمـا الفِـداءُ!
٢٧ - هَجَوتَ مباركا ، برا ، حنيفـاً ، ... أمِينَ اللهِ ، شِـيمتهُ الوفـاءُ؟
٢٨ - أمَـنْ يَـهجُو رسـولَ الله منكـم ... ويَمدَحُـه وينْصُـرُهُ سَـواءُ؟
٢٩ - فـإنَّ أبـى ووالِـدَهُ وعِرْضِـى ... لعِـرْضِ مُحمَّـدٍ مِنْكُـمْ وِقَـاءُ
٣٠ - فإمَّا تثقَفَـنَّ بنُـو لُـؤَىٍّ ... جُذَيمـةَ ، إنَّ قَتْلَـهُمُ شِـفَاءُ!
٣١ - وحِلْفُ الحـارثِ بن أبى ضِرار ... وحِلْـفُ قُرَيظَـةٍ فينـا سَـواءُ
٣٢ - أولئكَ مَعْشَرٌ ألَبـوُا علينا ، ... ففـى أظْفارنـا مِنـهُمْ دِمـاءُ
٣٣ - لِسَـانى صَارِمٌ ، لا عَيبَ فيـه ، ... وبَـحْرِى لا تُكَـدِّرُه الدِّلاءُ

هذا هو القسم الرابع والأخير من القصيدة ، انصرف فيه حسان إلى هجاء أبى سُفْيَانَ بنِ الحارثِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ ، الذى كان يهجو - قبل إسلامه - رسولَ الله صلى عليه وسلم ، مع أنه ابن عمه [(1)] .

وقد أحسن حسان التخلص إلى هذا القسم ، لأنه مهد له من قبل بقوله :

لنا فى كل يـومٍ مـن مَعَدٍّ ... قِتالٌ ، أو سِبَابٌ ، أو هِجَـاءُ
فنُحْكِمُ بالقَوافى مَنْ هجانـا ، ... ونَضرِبُ حين تَختلِطُ الدِّمـاءُ

وجاء هجاؤه لأبى سفيان بن الحارث نموذجا تطبيقيا مبينا قدرة شعراء المسلمين على إلجام من هجاهم من الشعراء وإخراسهم وإفحامهم . واختار أبا سفيان لأنه كان - قبل إسلامه - من أشد الشعراء هجاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

---

(1) أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمى ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخوه من الرضاعة . أرضعتـه حليمـة السعدية ... اسمه المغيرة ؛ وقيل اسمه كنيته ... وكان ممن يشبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، روى هشام بن عروة عن أبيه قال : قـال صلى الله عليه وسلم : " أبو سفيان بن الحارث سيد فتيان أهل الجنة " ، قال يحلقه الحلاق بمنى وفى رأسه ثؤلول . فقطعه فمات ، فـال فيرون أنه مات شهيدا " قال ابن حجر : هذا مرسل رجاله ثقات ، وكان أبو سفيان ممن يؤذى النبى صلى الله عليه وسلم ويهجوه ويؤذى المسلمين ، وإلى ذلك أشار حسان بن ثابت فى قصيدته المشهورة :

هجوت محمدا فاجبت عنه . ... وعند الله فى ذاك الجزاء

وأسلم أبو سفيان فى الفتح ، لقى النبى صلى الله عليه وسلم وهو متوجه إلى مكة فأسلم . وشهد حنينا فكان ممن ثبت مع النبى صلى الله عليه وسلم (الإصابة فى تمييز الصحابة : ٢ / ٨٦ بتصرف) .

وعدد أبيات هذا القسم وترتيبها يختلف اختلافا كثيرا فى كتب السيرة ودواوين الأدب عنه فى ديوان الشاعر .

وقد وقفت فى ترتيبها على ثمان روايات :

١ - رواية ابن هشام (ت ٢١٣ هـ) ، وتبعه فيها ابن القيم (٧٥١ هـ) ، وتتكون من الأبيات ٢٣ إلى ٢٩ ثم البيت ٣٣ ، ولم تثبت الأبيات الثلاثة ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ وهى الأبيات التى زادها أبو عمرو الشيبانى ، وأثبتتها روايات الديوان .

٢ - رواية الديوان عن الأثرم (٢٣٠ هـ) ومحمدبن حبيب (٢٤٥ هـ) وغيرهما ، بتحقيق د / سيد حنفى حسنين ، وترتيب الأبيات فيها على النحو التالى (٢٣ ، ٢٨ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٩) ثم زادت على رواية ابن هشام ثلاثة أبيات هى : (٣٠ ، ٣١ ، ٣٢) ، ثم ختمت بالبيت رقم (٣٣) ، ونقصت عن رواية ابن هشام البيتين (٢٤ ، ٢٧) ، وهذا نص الرواية :

٢٣ - ألاَ ، أبْلغْ أبــا سُفْيَانَ عَــنِّى ... مُغَلْغَلَةً ، فقـد بَـرِحَ الخَفـاءُ
٢٨ - أمَنْ يَهجُو رسولَ الله منكـم ... ويَمدَحُـه وينصُـرُه سَـواءُ؟
٢٥ - هَجَوتَ مُحمَّداً ، فأجَبتُ عنه ، ... وعِنـدَ اللهِ فــى ذاكَ الجَـزاءُ
٢٦ - أتَـهْجُوهُ ولستَ لـه بِكُـفءٍ ؟ ... فَشَرُّكما لخيرِكُمـا الفِـداءُ !
٢٩ - فـإنَّ أبـى ووالِـدَهُ وعِرْضِـى ... لعِرْضِ مُحمَّـدٍ مِنكُـمْ وِقـاءُ
٣٠ - فإمَّا تُثْقَفُـنَّ بنُــو لُــؤَىٍّ ... جُذَيمةَ ، إنَّ قَتْلَـهُمُ شِـفَاءُ !
٣٢ - أولئكَ مَعْشَرٌ البَـوُا علينا ، ... ففـى أظْفارِنـا مِنـهُمْ دِمـاءُ
٣١ - وحِلْفُ الحـارِثِ بن أبى ضِرارٍ ، ... وحِلْـفُ قُرَيظَـةٍ فينـا سَـوَاءُ
٣٣ - لِسَانى صَارمٌ ، لا عَيبَ فيـه ، ... وبَحْرِى لا تُكَـدِّرُه الـدِّلاءُ !

وف هذه الرواية نظر من حيث ترتيب أبياتها وتسلسل معانيها ، ومن حيث النقص والزيادة فى عدد الأبيات عن رواية ابن هشام .

فأما من حيث ترتيبُ الأبيات وتسلسلُ المعانى - فإن وضع قوله : (فمن يهجو رسول الله منكم ... البيت " بعد : " ألا أبلغ أبا سفيان ... البيت " : قلق جدا ومضطرب أشد اضطراب ؛ لأنه لم يذكر قبله هجاء أبى سفيان للرسول صلى الله عليه وسلم وإجابة الشاعر له حتى تصح المقابلة بين من هجاه ومن مدحه فى قوله :

فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء ؟

والموقع اللائق بهذا المعنى أن يكون فى الخاتمة لا فى الصدر ، فيوضع قبل قوله (فإن أبى ووالده وعرضى ... البيت) ، وهو ما جرت عليه رواية ابن هشام ، وتؤيده روايتا العقد الفريد وشرح أبيات المغنى للبغدادى .

- وأما من حيث النقصانُ ، فقد نقصت رواية الديوان بيتين ، أولهما :

بأن سُيوفَنا تركتــــك عَبْداً ، وعبدُ الدَّار سادَتُها الإماءُ

وهو أول خبر يريد الشاعر ممن يخاطبه أن يبلغه أبا سفيان بن الحارث ، وسياق الكلام (ألا أبلغ أبا سفيان عنى ... بأن سيوفنا تركتك عبدا ...) فحذف البيت يخل بالمعنى .

وثانيهما قوله :

هَجَوتَ مباركا ، براً ، حنيفـــاً أمينَ اللهِ ، شِيمتهُ الوفَاءُ

وهو البيت الوحيد فى هذا القسم الذى يعدد من الشمائل المحمدية التى تنأى بالرسول صلى الله عليه وسلم عن أن يكون غرضا لسهام الهجائين ، كما أنها تسفه من يهجوه ، وتصفه بالكذب فى هجائه ؛ لأن مَنْ هذه شمائله لا يُهجَى .

كما أن هذا البيت وقع موقعا حسنا بعد قوله :

أتَهْجُوهُ ولستَ له بِكُفءٍ ؟ ! فَشرُكما لخيرِكُما الفِدَاءُ

فجاء البيت يعدد شمائله صلى الله عليه وسلم التى تقطع بأنه خيرهما ... وهذا ينسجم من منهج حسان قبل ذلك حين قال :

وإلا فاصبروا لجِلادِ يـــومٍ يُعِزُّ الله فيه مَنْ يَشاءُ

أى من يشاء من المؤمنين أو الكافرين ، ثم ذكر من صفات المؤمنين ما يقضى بأن العزة لهم وبأن الذلة والصغار للمشركين ، وذلك فى قوله :

وجبريلٌ رسولُ فينـــا ورُوحُ القُدُسِ ، ليس له كِفاءُ

.... (الأبيات)

هذا فضلا عن أن البيت ثابت فى روايات الإمام مسلم وابن عساكر وابن القيم ، ومحب الدين أفندى صاحب " تنــزيل الآيات على الشواهد من الأبيات " .

= وأما من حيث الزيادة ، فقد زادت رواية الديوان ثلاثة أبيات ، وهى قوله :

٢٠ - فإمَّا تُثقَفَنَّ بنُــو لُـــؤَىٍّ جُذيمةَ ، إنَّ قَتْلَهُمْ شِفَاءُ !

٢٢ - أولئكَ مَعْشَرٌ البَـــوُا علينا ، ففى أظْفارِنا مِنهُمْ دِماءُ

٢١ - وحِلْفُ الحـــارثِ بن أبى ضِرار وحِلْفُ قُرَيظَةٍ فينا سَوَاءُ

وهى زيادة من رواية أبي عَمرو الشَّيباني [1] نبه عليها الإمام السهيلى ، فقال : (وزاد الشيبانى فى روايته أبياتا فى هذه القصيدة ، وهى :

وهَاجَتْ دُونَ قَتْلِ بنـى لُـؤَىٍّ ... جَذِيمَةُ ، إن قَتْلَهُمُ شِفَاءُ
وحِلْفُ الحـارثِ بن أبى ضِرارٍ ... وحِلْفُ قُرَيظَةٍ فينا سَـوَاءُ
أولئكَ مَعْشَرٌ الَبـوُا علينـا ، ... ففى أظْفارنا مِنهمُ دِمـاءُ
ستُبْصِرُ كيف نفعلُ بابنِ حَرْبٍ ، ... بمولاكَ الذين هُمُ الرِّداءُ) [2]

والفرق واضح جدا بين نقل رواة الديوان زيادة أبي عمرو وبين نقل السهيلى لها ، ففى نقل السهيلى بيت رابع ليس فى نقلهم ، فضلا عن الاختلاف الكبير فى روايات الألفاظ وترتيب الأبيات الثلاثة الأوائل ، وأرجح الظن عندى أن كلا منهما اعتمد على نسخة من رواية أبي عمرو لشعر حسان غير التى اعتمد عليها الآخر .

وإن كان نقل السهيلى لتلك الرواية أعطى فائدة فسرت ما وقع فيه أديبنا الكبير الأستاذ العقاد حين ذكر أن المهجو بهذا الشعر هو أبو سفيان بن حرب [3] ، فلعله نظر إلى ذلك البيت الأخير من رواية السهيلى ، وهو قوله (ستبصر كيف نفعل بابن حرب ...) فلفظ السهيلى " بابن حرب " بباء الجر ، وليس " يا ابن حرب " بـ " يا " النداء على نحو ما ذكر محقق الديوان [4] ، فلما رأى الأستاذ العقاد فى هذا البيت " ابن حرب "وقبله " أبلغ أبا سفيان " ظن أن القصيدة هجاء لأبي سفيان بن حرب .

---

(1) هو إسحاقُ بنُ مِرار – بكسر الميم – الشيبانى ، مولى لهم ، وكان يؤدب فى أحياء بنى شيبان فنسب إليهم بالولاء ويقال بالمجاورة وبالتعليم لأولادهم ، وكان راوية واسع العلم باللغة ، ثقة فى الحديث كثير السماع ، وأخذ عنه دواوين أشعار القبائل كلها ، وله بنون وبنو بنين يروون عنه كتبه ، ومن الكتب التى رويت عنه : كتاب الخيل ، وكتاب غريب المصنف ، وكتاب اللغات ، وكتاب النوادر ، وكتاب غريب الحديث ، وكتاب النحلة ، وكتاب خلق الإنسان ، وكتاب الحروف ، وكتاب شرح كتاب الفصيح . وكان يلزم مجلسه الإمام أحمد بن حنبل ، وكتب عنه حديثا كثيرا . ولما جمع أشعار العرب كانت نيفا وثمانين قبيلة ، فكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها إلى الناس كتب مصحفا وجعله فى مسجد الكوفة حتى كتب نيفا وثمانين مصحفا بخطه ، وبلغ أبو عمرو الشيبانى مائة وعشر سنين أو ثمانى عشر ومات سنة ٢٠٦ هـ وكان يكتب بيده إلى أن مات . (الفهرست لابن النديم : ص ١٠٣ بتصرف) .

(2) الروض الأنف : ١١٨ .

(3) ينظر " أبو الشهداء الحسين بن على " للأستاذ العقاد :ص ٤٣ .

(4) ديوان حسان : ص ٧٣ .

ومهما يكن من شيء فهذه الأبيات الزوائد من رواية الشيبانى لها رحم تمس بها الى هذا القسم من القصيدة ، وذلك أن حسان لما مهد له بقوله :

لنا فى كل يوم من معـد　　　قتال ، أو سباب ، أو هجاء

فنحكم بالقوافى من هجانا ،　　　ونضرب حين تختلط الدماء

ذكر فى البيت الأول منهما أمرين : القتال والهجاء ، وبنى البيتين على اللف والنشر ، فأعـاد قوله (فنحكم بالقوافى من هجانا) إلى (الهجاء)، وأعاد قوله (ونضرب حين تختلط الدمـاء) إلى (القتال) ، ثم أراد فى هذا القسم أن يضرب نماذج تطبيقية على الأمرين ، فذكر من الهجـاء هجاءه أبا سفيان بن الحارث ، وذكر من القتال قتالهم جذيمة وحلف الحارث بـن أبى ضـرار وحلف قريظة ، وكان هذا البيان التطبيقى لفا ونشرا آخرين مرتبين ، فالأبيـات فى هجـاء أبى سفيان تعود إلى قوله (فنحكم بالقوافى من هجانا) والأبيات فى قتل جذيمة والحلفين المذكوريـن ترجع إلى قوله (ونضرب حين تختلط الدماء). وهذا فهم يكشف عن فروع المعانى وأنسابها ، ويفسح لأبيات الشيبانى بابا تلتحم به مع رواية ابن هشام ، وهو تلاحم عجيب ، ولا أراه بعيدا !

٣- الرواية الثالثة ، وهى الجمع والتلفيق بين الروايتين السابقتين ، وقد اعتمدت علـى هـذه الطريقة نشرة الأستاذ " عبدأ . مهنا " ونشرة " دار ابن خلدون " ، حيث مزجتا بين الروايتين ، ولكن دون إشارة أو تنبيه ، فاعتمدتا فى هذا القسم على رواية ابن هشام بترتيبـها ثم أضافتـا إليها أبيات الشيبانى على ترتيبها السابق عند الأثرم وابن حبيب .

وهذا التلفيق ـــ فيما أرى ـــ لا معابة عليه إلا ترك الإشارة والتنبيه على المصدر عنـد الانتقال من رواية إلى أخرى .

وقد اعتمدت على هذا المنهج فى هذا القسم ، فأوردت رواية ابن هشام كما هـى فى الأبيات (٢٣-٢٩) ثم أتبعتها بزيادة الشيبانى على ترتيب السهيلى مع خلاف فى بعض الألفـاظ ومع إسقاط البيت الرابع منها ، وهو قوله حسان :

ستُبْصِرُ كيف نفعلُ بابنِ حَرْبٍ ،　　　بمولاك الذين هُمُ الرِّداءُ

لأن هذا البيت لم يرد إلا فى تلك الرواية ، كما أن فيه عودا ـــ على غير طريقة حسان فى بنـاء القصيدة ـــ إلى خطاب أبى سفيان بن الحارث ، وتوعده بما يفعله المسلمون بمولاه أبى سفيان بـن حرب ، الذى لم يجر له ذكر إلا فى هذا البيت ، ولذا لم أطمئن إلى نسبة هذا البيت إلى حسـان ،

فأبعدته من القصيدة ، وإن كنت قد أفدت منه فى تفسير ما وقع فيه أديبنا الكبير الأستاذ العقاد من سهو حين قال إن القصيدة هجاء لأبى سفيان بن حرب ، ثم ختمت أبيات هذا القسم والقصيدة كلها بما خُتِمت به عند ابن هشام وعند رواة الديوان جميعا .

أما ما عدا ذلك من روايات هذا القسم فلا تخلو من أن تكون مجرد شواهد يُستشهَد بها لغرض من الأغراض الدينية = كما هو الحال عند الإمام مسلم (ت ٢٦١ هـ) ، حيث أورد الإمام منها الأبيات أرقام (٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩) فقط[١] = أو الأغراض التاريخية كما عند ابن عساكر (ت ٥٧١ هـ) الذى أورد أبيات الإمام مسلم نفسها وزاد عليها البيت رقم (٢٦) [٢] = أو لغرض من الأغراض اللغوية كما هو الحال عند عبد القادر البغدادى (ت ١٠٩٣ هـ) فى شرح أبيات المغنى ، حيث أورد منها بعض الأبيات مرتبة على النحو التالى (٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٨ ،٢٩) [٣] وكما هو الحال عند محب الدين أفندى فى شرح شواهد الكشاف الذى ساق منها الأبيات (٢٥ ، ٢٧ ، ٢٦) [٤] = وقد تكون بعض هذه الروايات مختارات يختارها العلماء من شعر الشاعر عند الترجمة الأدبية له ، كما هو الحال عند ابن عبد ربه الذى رتب ما اختاره من هذا القسم على النحو التالى (٢٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ،٢٨) ، ثم أقحم البيت رقم (٢٠) ثم أتى بالبيتين (٢٩ ،٣٠) [٥] ، وهو ترتيب فى غاية الاختلال . (وصاحب العقد لم يبن كتابه على الرواية ، وهو ليس من الرواة فى شىء ، إنما كان أديبا شاعرا متخيرا ، وكان أندلسيا مضطرب المعرفة برواية أهل المشرق ، وأكثر تعويله على ما وقع إليه من الكتب)[٦] ، وكما هو الحال عند صاحب الأغانى الذى استشهد فى موضع من ترجمته لحسان بالأبيات الثلاثة (٢٥،٢٩،٢٦) [٧] . وفى موضع آخر بالبيتين (٢٥،٢٩) [٨] .

---

(١) ينظر صحيح مسلم : ٤٩/١٦ ، ٥٠ .

(٢) ينظر تهذيب تاريخ دمشق : ١٣٠/٤ .

(٣) ينظر شرح أبيات مغنى اللبيب للبغدادى : ٣٠٧/٧ .

(٤) ينظر تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات : ٣١٧/٤ .

(٥) ينظر العقد الفريد : ٢٦٠/٥ .

(٦) غلط صعب ، وغلط مخيف للأستاذ / محمود شاكر ــ رحمه الله ــ ص : ١٢٧ .

(٧) ينظر الأغانى : ١٣٩/٤ .

(٨) ينظر الأغانى : ١٦١/٤ ، ١٦٣ .

وقد أفدت من هذه الروايات فى تحليل الأبيات وإيثار بعض ألفاظها على بعض ، وتفضيل ترتيب بعض الأبيات على بعض ، كما سبق فى تفضيل ترتيب رواية ابن هشام على رواية الديوان المحقق .

وافتتح حسان هذا القسم بقوله :

٢٢- ألاَ ، أبْلغْ أبا سُفْيَانَ عَنِّى ... مُغلْغَلَةً ، فقد بَرِحَ الخَفَاءُ

٢٤- بان سُيوفَنا تركتكَ عَبْداً ... وعبدُ الدَّار سادَتُها الإمَاءُ

وهو افتتاح قوى ممتلىء بسورة الغضب وسخط النفس الشاعرة حين يهاج عليها فتستهاج . ومن دلائل هذه القوة التعبير بـ " ألا " التنبيهية الدالة على أهمية ما يذكر بعدها وخطورته . ومنها اللجوء إلى أسلوب الخطاب فى قوله " أبلغ " دون تحديد مخاطب مأمور بالتبليغ ليعم الأمر كل من يتأتى منه الإبلاغ فيكون أشد شيوعا للمبلغ به وأكثر ذيوعا ، (وذلك مرشد إلى العناية بالفعل ، وإلى أنه جدير بأن يخاطب به كل أحد ، ومن ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : بشرِ المشَّائِين فى الظُّلَمِ إلى المسَاجِدِ بالنُّور التامِّ يومَ القيامة " [١] ، لايريد عليه السلام بذلك مخاطبا معينا ، وإنما يريد عموم الأمر وذيوعه ، حتى كأن كل فرد من أفراد هذه الأمة مبشر لهؤلاء المشائين إلى المساجد بالنور التام ، وفيه تكريم لهؤلاء وتنويه برضا الله عليهم وقبوله لهم ، وإشارة وتعريف بهذا النعيم الذى أُعِدَّ لهم عند الله) [٢] .

وفى التعبير بـ " أبلغ " أيضا قوة ليست فى " أخبر " ونحوه ، لأنه مشتق من البلوغ والبلاغ : وهو الانتهاء إلى أقصى المقصد والمنتهى مكانا كان أو زمانا أو أمرا من الأمور المقدَّرة " [٣] .

والمُغَلْغَلَة : " الرسالة تُحمَلُ من بلد إلى بلد" [٤]، فكأنها تتغلغل فى البلاد وتضرب فى الآفاق ، فيعرف بها الغادى والرائح والقاصى والدانى ، لشيوعها وانتشارها ، وفيه دلالة على أن هجاء حسان له ينغل فى كل بلد ويدخل كل مكان ، وفى هذا من التشهير بالمهجو والنكاية به ما فيه !

---

(١) رواه أبو داود فى سننه : كتاب الصلاة باب ما جاء فى المشى إلى الصلاة فى الظلم ١ / ١٥١ برقم ٥٦١ وفى الترغيب والترهيب للمنذرى ١ / ١٢٩ كتاب الصلاة (الترغيب فى المشى إلى المساجد) برقم ٢٠ رواه الترمذى وقال (حديث غريب) قال المنذرى : (ورجال إسناده ثقات ، ورواه ابن ماجه بلفظه من حديث أنس) .

(٢) دلالات التراكيب د / محمد أبو موسى : ٢٥٦ ، ٢٥٧ .

(٣) المفردات فى غريب القرآن : (ب ل غ) .

(٤) شرح أبيات مغنى اللبيب : ٣٠٧/٧ وينظر لسان العرب : (غ ل ل) .

وفى الكلمة أيضا معنى السرعة فى السير ، أى أنها تطوى البلاد وتجوبها بلدا إثر بلد فى سرعة خاطفة ، وهذا أدعى إلى سرعة تناقل الهجاء على الألسنة وسيرورته ، إذ "الغَلْغَلَةُ : سرعة السير " [1] ، وفيها كذلك إشارة إلى أن هذه القصيدة تنطوى على ما تحمله نفس الشاعر للمهجو من غل لهجائه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعداوته للإسلام ، فأراد الشاعر أن يزيحه عن صدره فدسه فى هذه المغلغلة ، ويؤيد تلك الإشارة ما أنشده ابن بَرّى من قول الشاعر : أبلغْ أبا مالكٍ عن مُغَلْغَلَةً ، وفى العِتابِ حَياةٌ بينَ أقْوامِ [2]

ففى قوله " وفى العتاب " دليل على أنه بث غله وغضبه فى تلك المغلغلة ؛ لأن العتاب لا يكون حياة إلا إذا أخرج كل من المتعاتبين ما فى نفسه من الغل والغضب وواجه بهما صاحبه .

"وبَرِحَ الخفاءُ : زالت الخُفْيَةُ ، فظهر الأمر " [3] ، وقال البغدادى عن الجواليقى : (انكشف السِّتر ، واتضح الأمر ، وهو مَثَل ، والخفاء : مصدر خَفِيَ الأمرُ خَفاءً : إذا اكتتم) [4] ، وهو من الأمثال ، قال المَيدانى : (بَرِحَ الخَفاءُ : أى زال ... والمعنى : زال السرُّ فوضَح الأمر ، وقال بعضهم : الخَفاءُ : المُتَطْأطِيء من الأرض ، والبَرَاحُ : المرتفع الظاهر ، أى : صار الخفاء بَرَاحا ، وقال :

بَرِحَ الخَفاءُ ، فبُحْتُ بالكِتْمانِ ، وشَكَوتُ ما ألقَى إلى الإخوانِ
لو كان ما بى هَيِّناً لكَتَمتُـهُ ، لكِنَّ مابى جَلَّ عن كِتْمَانِ) [5]

وقد استعار حسان ـ رضى الله عنه ـ هذا المثل لما (يريده من أن أمر أبى سفيان قد اتضح وهو بصدد أن يكشفه للناس بهذه الرسالة) [6] .

---

(1) لسان العرب : (غ ل ل) .

(2) المصدر السابق .

(3) أساس البلاغة : (خ ف ى) .

(4) شرح أبيات مغنى اللبيب للبغدادى : ٣٠٨/٧ .

(5) مجمع الأمثال للميدانى : ١٦٥/١ ، ١٦٦ .

(6) دراسات أدبية : ص ١١٨ .

ويروى الشطر الثاني في الديوان " فأنت مُجَوَّفٌ ، نَخِبٌ ، هَوَاءُ) والخطاب في قوله ، " فأنت " لأبي سفيان بن الحارث على سبيل الالتفات من الغيبة إلى الخطاب موجهة له بما يكره ، ولو جرى على طريق الغيبة لقال :" بأنَّهُ مجوف .. " بتخفيف " أن " لئلا يختل الوزن .

وفي رواية " فأنت مُجَوَّفٌ ، نَخِبٌ ، هواءُ " ثلاثة تشبيهات للجبان في غاية من القوة والسداد ، وكل تشبيه يعطي صورة للجبان تختلف عن الآخر ، فـ"الرجل الأجوفُ والمُجَوَّف : الجبان الذي لا فؤاد له .. النَّخِبُ والمَنخُوبُ والنخيبُ : الذي لا فؤاد له كأنه نُخِبَ قلبُه أي نُزِع .. والهواء : الخالي القلب عن الجرأة " [1] . فالتشبية الأول يصور الجبان بصورة غريبة ، وهي صورة رجل مخلوق بلا قلب ، وفيها دلالة على أن الشجاعة هي القلب ، ولذا فالجبان لا قلب له . والتشبية الثاني يصور الجبان برجل ذي قلب ، ولكنْ نُخِبَ قلبُه أي نُزِع من موضعه ، لأن أمرا مهولا أو خطرا لا قبل له به قد نزع قلبه وأطاح به ، والثالث يصوره بمن فرغ قلبه وخلا من كل شيء فليس فيه إلا الهواء .

فهي صور وإن تواردت على معنى واحد إلا أن لكل منها حسا مختلفا ، (ومن عادة العرب أن يسموا الجبان : يَرَاعةَ جَوفاءَ = أي ليس بين جوانحه قلب ، وإنما وصف الجبان بأنه لا قلب له ، لأن القلب محل الشجاعة ، وإذا نفى المحل فأولى أن ينتفى الحالُ فيه ، وهذا على المبالغة في صفتة بالجبن = ويسمون الشيء إذا كان خاليا هواء ، أي : ليس فيه ما يشغله إلا الهواء ، وعلى هذا قول الله تعالى :" وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً " [2] أي خاليا من التجلد ، وعاطلا من التصبر [3] .

ومما جاء في أسلوب القرآن الكريم من هذه التشبيهات قوله تعالى :" وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ" [4] ، أي خالية ذاهلة ، وقد استشهد بعض المفسرين في تأويل هذا التشبيه ببيت حسان [5] ، كما استشهدت به بعض معاجم اللغة [6] .

---

(1) أساس البلاغة : (ج و ف ـ ن خ ب ـ هـ و ى) بتصرف .

(2) سورة القصص : ١٠ .

(3) تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف المرتضى : ص ١٣٣ .

(4) سورة إبراهيم : ٤٣ .

(5) ينظر على سبيل المثال الكشاف : ٢٨٢/٢ ، والقرطبي ٣٦٠٦/٥ .

(6) ينظر أساس البلاغة ولسان العرب : (ج و ف) .

وقوله :

بانَّ سيُوفَنا تَركَتْكَ عَبداً ، وعَبدُ الدار سَادتُها الإماءُ

هو أول خبر يريد من مخاطبه أن يبلغه أبا سفيان بن الحارث ، والغرض منه تعييره بما لحقه من الذلة والعار لفراره يوم بدر ، وتعييره أيضا بسقوط لوائهم يوم أحد من بنى عبد الدار فلم ترفعه إلا أمرأة منهم .

وجمع " سيوفنا " جمع كثرة ، للدلالة على كثرها وإحاطتها به ومحاصرته من كل جهة ، فلا يجد أنى ذهب إلا سيوف المسلمين .

وإسناد " تركت " إلى ضمير السيوف إسناد مجازى ، من إسناد الفعل إلى أداته الفاعلة إظهارا لأثرها وخطرها .

وفى " تركتك عبدا " تشبية مفرد ، أى تركتك كالعبد فى الذلة والهوان ، فنزعت سيوفنا عنك السيادة والشرف . والموت أهون عند الحر من ذاك . وتنكير المشبه به " عبدا" يقوى معنى التشبيه ويؤكده ، أى : تركتك سيوفنا عبدا نكرة لا يعرفه أحد ولا يلتفت إليه ، بعدما كان سيدا ملء السمع والبصر .

وإذا كانت سيوف المسلمين يوم بدر تركت أبا سفيان بن الحارث – وهو من أشراف قريش وسادها – فى هذه الحال الذليلة الصاغرة فكيف بمن هم دونه فى الشرف والسيادة ؟

وقوله " وعَبدُ الدار سادتها الإماء " : " عَبدُ الدار " : بطن من سادة قريش ، كانوا أصحاب لوائها فى الحروب ، حملوه يوم بدر فهزموا ، فلما أرادوا حمله يوم أحد قال لهم أبو سفيان بن حرب يحرضهم على القتال : " يابنى عبد الدار ، قد وُلّيتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رأيتم ، وإنما يُؤتَى الناسُ من قِبَلِ راياهم : إذا زالت زالوا ، فإما أن تَكْفُونا لواءنا ، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه ؟ فهَمُّوا به وتواعدوه ، وقالوا : نحن نُسْلِمُ إليك لواءنا ؟ ستعلم غدا إذا التقينا كيف نصنع ؟ وذلك الذى أراد أبو سفيان " [1] .

وبنو عبد الدار هم الذين عنتهم هِندُ بنتُ عُتْبَةَ ومن معها من نساء قريش حين ضربن الدفوف خلف الصفوف وقلن :

---

(1) البداية والنهاية : ٤٢٣/٢ .

وَيْهاً بَنِى عَبْدِ الدَّارْ !

وَيْهـــاً حُماةَ الأَدْبَارْ !

ضَرْبـــاً بِكُلِّ بَتَّارْ " [١]

والإماء : ضد الحرائر ، وحسان يعير أبا سفيان بن الحارث وكفار قريش بما حدث للوائهم يوم أُحُد ، " حين أصاب المسلمون أصحاب اللواء ، فسقط ، حتى ما يدنو منه أحد منهم .. فلم يزل اللواء صريعا حتى أخذته عَمْرَةُ بنتُ عَلْقَمَةَ الحارِثِيَّةُ فرفعته لقريش ، فلاثوا به .. وقال حسان – أيضا – فى رفع عَمْرَةَ بنتِ علقمةَ اللواء لهم :

فلولا لِواءُ الحارثِيَّةِ أصبَحُوا يُبَاعونَ فى الأسواقِ بيعَ الجَلائبِ [٢]

فجملة " وعبد الدار سادتها الإماء " خبرية أريد بها تعيير أبى سفيان بن الحارث وقريش بتلك الحادثة .

وفى البيت صنعة بديعية لطيفة ، حيث ذكر لفظ " عبد " مرتين بمعنيين مختلفين ، فالأول " عبد " ضد الحر ، والثانى " عبد الدار " حملة اللواء ، ففى اللفظين جناس ، وبين " عبدا " و " سادتها " طباق ظاهر ، وكذا بين " سادتها " و " الإماء " ... وتتابع هذه الألفاظ فى البيت يدل على شيوع الذلة والرق ، وقلب موازين العدو ، فالرجال عبيد ، والنساء إماء ، والإماء هم سادة الرجال ، فقلبت سيوف المسلمين المعايير ، وغيرت طبقات المجتمع المشرك فصار العبد سيدا والسيد عبدا ، وصارت الأمة حرة ، بل وسيدة .

وبعدما افتتح حسان هذا القسم من القصيدة بذلك الافتتاح القوى فى البيتين السابقين توجه بالخطاب مباشرة إلى أبى سفيان بن الحارث مبينا أنه – مع ما هو فيه من الذلة والصغار هو وكفار قريش – هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا شئ عجاب ، أهاج شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم فرد قائلا :

٢٥ - هَجَوتَ مُحمَّداً ، فأَجَبتُ عنه ، وعبدُ الدَّار سادَتُها الإماءُ

ورد حسان على هجاء أبى سفيان رد هادئ رزين ، يزن الأمر بميزان دقيق حساس بلا تهور ولا عنف ولا اندفاع ولا إقذاع فى الهجاء ، وهو ظاهر فى البيت والأبيات الأربعة التى تليه .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق : ٤٣١/٢ .

وآثر حسان التعبير بصريح اسمه صلى الله عليه وسلم (محمد) دون صفته ، فلم يقل " هجوت نبينا أو رسولنا " – مع أن الوزن فيهما لا يختل – تعريضا بخطأ الهاجى وجنايته ؛ لأن " محمدا : اسم مفعول من حمد فهو محمد ، إذا كان كثير الخصال التى يحمد عليها ... ولهذا – والله أعلم – سمى به فى التوراة لكثرة الخصال المحمودة التى وصف بها هو ودينه وأمته فى التوراة ، حتى تمنى موسى – عليه الصلاة والسلام – أن يكون منهم " [1] ؛ وعلى هذا فهل يكون محقا من يهجو محمدا الذى اجتمعت فيه الخصال المحمودة والخلق العظيم ؟ فكان فى التعبير بـ " محمد " دليل – من لفظه – على كذب الهاجى وافترائه .

وقوله " فأجبت عنه " يروى بواو العطف وفائه ، وبأيهما روى فهو دال على الترتيب [2] ؛ إشارة إلى أن حسان – رضى الله عنه – أجاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عقب هجاء أبى سفيان مباشرة وبدون مهلة ؛ لشدة حبه ودفاعه عنه من ناحية ، ولقوة شاعريته وقريحته الوقادة من ناحية أخرى ، حيث أجاب عن الهجاء مباشرة بدون مهلة يجمع فيها خواطره ويثقف أبياته وينقح ألفاظه ويزن معانيه ؛ لأن مهارته وحذقه لا يحوجانه إلى ذلك .

وقوله " فأجبت عنه " كناية عن إعراضه صلى الله عليه وسلم عن أن يجيب من هجاه مباشرة ، وتنزيه له عن أن يخوض لسانه فى هذا الباب ، فهو أرفع من ذلك وأجل صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن سبابا ولا لعانا ولافاحشا ، وإنما تولى الرد على الهجائين أعلام من شعراء الصحابة لينالوا بذلك شرف الدفاع عنه ، وأنعم به وأكرم !

وقوله : " وعند الله فى ذاك الجزاء " تعريض بأبى سفيان ، ومنشأ هذا التعريض أن حسان لا يبغى من وراء إجابته جزاء ولا شكورا ، فجزاؤه عند الله ، وهذا دليل على صدقه فى الإجابة ، بخلاف أبى سفيان الذى بعثه على الهجاء العصبية والبغض والرغبة فى الشهرة وعلو المنزلة عند المشركين أو نحو ذلك ، وهذا دليل على كذبه فى هجائه .

---

(1) زاد المعاد : ١ / ٣٥ بتصرف .

(2) استشهد النحاة برواية الواو على أنها تدل على الترتيب ، قال البطليوسى : " قوله : هجوت محمدا وأجبت عنه : كذا الرواية ، وفيه شاهد على أن المعطوف بالواو قد يكون مرتبا بعدما عطف عليه ، لا ينوى به التقديم والتأخير إذا كان فى الكلام دليل على الترتيب . فإن لم يكن فى الكلام دليل على الترتيب ، جاز أن يكون كل واحد من الاسمين هو المبدوء به ، ومثل هذا قوله تعالى (إذا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَها وأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا) [سورة الزلزلة : ١ ، ٢] – فإخراج الأرض أثقالها إنما هو بعد الزلزلة " [الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب : ٣ / ٣٧] .

وأكد حسان هذه الجملة حين بناها على أسلوب القصر بتقديم الظرف " عند الله " وهو الخبر المقدم على المبتدأ " الجزاء " ، فقصر جزاءه على كونه عند الله ، ونفاه عن أن يكون عند أحد سواه ؛ طمعا فيما عند الله سبحانه ، وإيثارا للآجلة على العاجلة ، فإن ما عند سواه ينفد وما عنده سبحانه باق ، " ما عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ " (١) .

وآثر حسان التعبير بالظرف " عند " لما فيه من معنى الادخار ، فكأنه يدخر ثواب ذلك عند الله ادخارا ناميا مضاعفا .

وفى استخدام اسم الاشارة " ذاك " الذى يستعمل للبعيد ، دون " هذا " الذى يستعمل للقريب – مع استقامة الوزن بأيهما – دلالة على تعظيم تلك الإجابة ، وأنها من جلائل الأعمال التى ترجى عند الله .

ويرى البغدادى أن الإشارة بـ " ذاك " تعود إلى الطرفين : من هجا ومن أجاب ، قال : (وقوله : وعند الله فى ذاك الجزاء : كان الظاهر أن يقول : " فى ذينك " أى : عند الله جزاء هجوك ، وجزاء إجابتى ومدافعتى عنه ، لكنه بتقدير : " ذلك المذكور " كما قيل فى قوله تعالى " عَوَانٌ بَينَ ذَلِكَ " (٢)) (٣) ، وعليه ففى الأسلوب وعد لحسان ووعيد وتهديد لأبى سفيان .

وهذا الوجه ذكره من قبل الزمخشرى وأبو حيان فى تفسير قوله تعالى :" إِنَّهَا بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ ولا بِكْرٌ عَوَانٌ بَينَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ " (٤) قال الزمخشرى : (فإن قلت " بين " يقتضى شيئين فصاعدا ، فمن أين جاز دخوله على " ذلك " ؟ قلت : لأنه فى معنى شيئين ، حيث وقع مشارا به إلى ما ذكر من الفارض والبكر . فإن قلت : كيف جاز أن يشار به إلى مؤنثين ، وإنما هو للإشارة إلى واحد مذكر ؟ قلت : جاز ذلك على تأويل " ما ذكر وما تقدم من اختصار فى الكلام " كما جعلوا (فَعَلَ) نائبا عن أفعال جمة تذكر قبله ، تقول للرجل : " نعم ما فعلت " ، وقد ذكر لك أفعالا كثيرة وقصة طويلة ، كما تقول له : " ما أحسن ذلك " ، وقد يجرى الضمير مجرى اسم الإشارة فى هذا ، قال أبو عبيدة : قلت لرُؤْبَةَ :

فيها خُطوطٌ من سَوادٍ وبَلَقْ ، كأنه فى الجِلْدِ تَوليعُ البَهَقْ

---

(١) سورة النحل : ٦٩ .

(٢) البقرة : ٦٨ .

(٣) شرح أبيات مغنى اللبيب : ٧ / ٣٠٨ .

(٤) البقرة : ٦٨ .

: إن أردت الخطوط فقل : " كأنها " ، وإن أردت السواد والبلق فقل : " كأنهما " ؟ فقال : أردت : " كأن ذلك " ، ويلك ! والذى حسن منه أن أسماء الإشارة : تثنيتها وجمعها وتأنيثها ليست على الحقيقة ، وكذلك الموصولات ؛ ولذا جاء " الذى " بمعنى الجمع) [1] .

وذكر أبو حيان هذا الوجه ، ثم ذهب مذهبا آخر ، قال : (والذى أذهب إليه غير ما ذكروا ، وهو أن يكون ذلك مما حذف منه المعطوف لدلالة المعنى عليه ، والتقدير : " عَوانٌ بين ذلك وهذا " ، أى بين الفارض والبِكْر ، فيكون نظير قول الشاعر :

فما كان بينَ الخيرِ لو جاء سالماً أبو حُجْرٍ إلا لَيالٍ قَلائلُ

أى : فما كان بين الخير وباغيه ، فحذف لفهم المعنى : " سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ " [2] أى : و البرد) [3] .

وأرى أن كلا الوجهين السابقين سواء ما ذكره الزمخشرى وتبعه فيه البغدادى أو ما ذهب إليه أبو حيان إنما هو توجيه لصحة الأسلوب حتى يكون جائزا وموافقا لما عليه قواعد النحو ، وليس فيه كشف عن سر استعمال اسم الإشارة المفرد " ذا " فى موضع المثنى " تين " فى آية البقرة ، و " ذين " فى بيت حسان .

ولعل النظر فى سياق آية البقرة يكشف عن سر من أسرار هذا الإفراد ، فإن اسم الإشارة لم يذكر فى آيات أمر بنى إسرائيل بذبح بقرة إلا فى هذه الآية ، وهى أول علامة يسألونها لتميز هذه البقرة ، (قَالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لنا مَا هِىَ قَالَ إِنَّه يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فَارِضٌ ولاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بينَ ذلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ) [4] ، ويلاحظ أن الله تعالى لم يكثر لهم أوصاف هذه البقرة ، بل اكتفى بأنها (لا فارض ولا بكر) ، فناسب هذا الاكتفاء الموجز فى تحديد البقرة المطلوبة إفراد اسم الإشارة ؛ دلالة على ظهورها كما يظهر المفرد المشار إليه ظهورا لا يدع مجالا لسؤال آخر أو شك فى تحديد المطلوب مرة ثانية ، ولكنهم مع هذا الظهور تعاموا وتمادوا فى السؤال ، فأجابهم الله فى تحديد لونها بثلاثة أوصاف (صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَونُها تَسُرُّ

---

(1) الكشاف : ١ / ٢٨٧ ، وينظر البحر المحيط : ١ / ٤٠٦ .

(2) سورة النحل : ٨١ .

(3) البحر المحيط : ١ / ٤٠٧ .

(4) البقرة : ٦٨ .

النَّاظِرِينَ) [١] ، ثم أجابهم فى تحديد طبيعة عملها بخمسة أوصاف (لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرضَ ولا تَسْقِى الحَرْثَ مسلَّمةٌ لا شِيَةَ فِيها) [٢] ، فلما كثرت الأوصاف بعد السؤال الأول ترك اسم الإشارة تصويرا لتعاميهم عن الحق وكثرة تعنتهم فى السؤال .

ولعل مجئ اسم الإشارة مفردا فى بيت حسان فيه إضراب وسكوت عن أمر من هجا ، وهو أبو سفيان لظهور جزائه ، ولأنه – آنذاك – لا يصح أن يوضع فى موازنة بجوار من مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ولذا سكت عن أمر الهاجى وجئ باسم الإشارة مفردا ليعود إلى إجابة حسان وحده ؛ لأنها هى المقصد الأهم والعمل المعتبر الذى له قيمة عند الله . ويؤيد هذا المعنى ما روى من أن حسان لما أنشد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا البيت قال له النبى صلى الله عليه وسلم : (جَزاؤُكَ على الله الجَنَّةُ يا حَسَّانُ) [٣] ، فاقتصر على ذكر جزاء حسان وحده ، وسكت عن ذكر جزاء أبي سفيان بن الحارث لما سبق . وفيه أدب جم من الحبيب صلى الله عليه وسلم لسكوته عن التصريح بجزاء ابن عمه ولو صرح به لوجب ، ولكنه رحمة الله للعالمين ، كما أنه صلى الله عليه وسلم كان يأمل فى إسلام أبي سفيان فترك له الباب مفتوحا ليدخل فى الإسلام ، وقد دخل قبيل فتح مكة ، وبشره الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل الجنة .

وذكر البَطَلْيَوسِىُّ (٤٤٤ – ٥٢١ هـ) أن حرف الجر " فى " فى قول حسان " وعند الله فى ذاك الجزاء " معناه " على " ، قال : (معناه : على ذاك ؛ لأنك إنما تقول : جازيته على كذا ، ولا تقول : جازيته فى كذا . فهذا مكان " على " ، لا مكان " فى ") [٤] .

ولعل السر فى ذلك الإشارة إلى أن الجزاء مظروف فى هذه الإجابة التى كأنها ظرف يحيط به ووعاء له ، فجزاؤه سبحانه لحسان كامن فى كل حرف من حروف إجابته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا يضيع منها حرف ، فهى مدخرة عنده سبحانه بكل حروفها ، وفى كل حرف جزاء .

---

(١) البقرة : ٦٩ .

(٢) البقرة : ٧١ .

(٣) ورد هذا الحديث فى الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب : ٣ / ٣٧ وتنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات : ٤ / ٣١٧ . ولم أقف على تخريجه من كتب السنة .

(٤) الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب : ٣ / ٣٨ .

ومن هذا القبيل قول الحبيب صلى الله عليه وسلم : (دخلت امرأةٌ النارَ في هِرةٍ ربطتها ، فلا هي أطعمتْها ، ولا هي أرسلتها تأكلُ من خشاشِ الأرض حتى ماتت)[1] ، قال " في هرة " ولم يقل بسببها ، إشارة إلى أنها دخلت النار مظروفة بداخل هذه الهرة التي حبستها ... وكأن الأعمال تصير أوعية لأصحابها ، فإذا كانت خيرا دخلوا فيها الجنة مكرمين فرحين بها ، وكأنها الموكب المبارك الذي يقلهم إلى الجنة ، وإن كانت شراً دخلوا فيها النار ، مقبوحين بفعلها ، وكأنها تبتلعهم في أجوافها حتى تكبهم في النار ... ففي التعبير بحرف الجر في هذه المقامات الثرية تنبيه على خطورة العمل وزجر عن مغبة التقصير والتفريط ، ليبادر كل فرد بفعل الخير ويبحث له عن عمل يدخل فيه الجنة ، فمن الناس من يدخلها في هرة ، ومنهم من يدخلها في صدقة ، ومنهم من يدخلها في كلمة طيبة ، ومنهم من يدخلها في سرور أدخله على عباد الله ...

وبعد هذا البيت أنكر حسان على أبي سفيان أن يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

٢٦ - أتهْجُوهُ ولستَ له بكُفءٍ ؟ فَشرُّكما لخيرِكُما الفِداءُ !

والاستفهام في " أتهجوه ولست له بكفء ؟ " إنكاري استبعادي توبيخي ، ينكر عليه هجاءه للرسول صلى الله عليه وسلم ، لأنه ليس كفأ لهجائه ، ولا يفهم من هذا القيد – وهو قوله " ولست له بكفء " – أنه لو كان كفأ له لما أنكر عليه حسان أن يهجوه . وهذا من باب انتفاء الحكم لانتفاء مقدماته ، فكأن حسان - رضي الله عنه - وضع مقدمات فقال : إنك هجوته ، ولا يهجوه إلا من كان كفأ له ونداً يماثله ، وليس له بين البشر ند ، إذا فالنتيجة أنه لا يصح لبشر أن يهجوه .

والإنكار في هذا الاستفهام موجه إلى الفعل وهو إنكار أن يهجى بصرف النظر عن (الفاعل) الهاجي : من هو ؟ فهو كقول امرئ القيس[2] :

أيَقتُلني والمَشرَفيُّ مُضاجِعي ، ومَسنُونةٌ زُرقٌ كأنيابِ أغوالِ

أراد أنه ليس أهلا لأن يقتل بصرف النظر عن القاتل من هو ، حتى ولو كان أشجع الناس وأقواهم ؛ لأن عدته معه لا تفارقه ... وإذا كان امرؤ القيس علل إنكاره أن يُقتَل بقوته

---

(1) الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده : ٢ / ٢٦٩ مسند أبي هريرة رضي الله عنه .

(2) ديوان امرئ القيس بشرح السندوبي : ص ١٦١ .

وعدته الملازمة له – وهى عدة تملأ نفس القاتل رعبا وهولا – فإن حسان علل إنكاره أن يهجى الرسول صلى الله عليه وسلم بعلة أقوى وأبرع ، وهى أنه لا يهجوه إلا من كان كفأ له ، وليس له فى الخلق كفء ، فلذا لا يُهجَى أصلا .

والباء فى " بكفء " - وهى التى يحكم عليها فى مثل هذا الأسلوب بأنها زائدة - لتوكيد حكم النفى المستفاد من الجملة ، (فليست الباء فى ذلك المقام لأفادة معنى من معانيها الأصلية ، التى هى الإلصاق والاستعانة والسببية وما إليها ، على أن يكون جزءا من مقومات أصل المعنى المراد من التركيب ، وإنما هى لتوكيد حكم النفى المستفاد من ذلك التركيب ، بسبب لمح أصل مناسب من تلك المعانى يساعد على إفادة التقوية والتأكيد) (١) .

وقوله : " فشركما لخيركما الفداء " مما استوقف العلماء ؛ لأن لفظ " شر " من أساليب التفضيل ، وهذا يعنى أن كلا من المفضل والمفضل عليه اشتركا فى تلك الصفة إلا أن أحدهما زاد على الآخر فيها ، وهذا لا يصح فى حق النبى صلى الله عليه وسلم ؛ ولذا قال السهيلى : (وفى ظاهر اللفظ بشاعة ؛ لأن المعروف ألا يقال : هو شرهما إلا وفى كليهما شر ، وكذلك : شر منك ، ولكن سيبويه قال فى الكتاب : تقول : مررت برجل شر منك ؛ إذا نقص عن أن يكون مثله ، وهذا يدفع الشناعة عن الكلام الأول ، ونحو منه قوله عليه السلام : " شَرُّ صُفُوفِ الرِّجالِ آخِرُها " (٢) ، يريد نقصان حظهم عن حظ الأول ، كما قال سيبويه .ولا يجوز أن يريد التفضيل فى الشر . والله أعلم) (٣) .

وهذا الأسلوب مما أطلق عليه الإمام الزمخشرى " الكلام المنصف " ، واستشهد له ببيت حسان (٤) ، وسماه السكاكى " سوق المعلوم مساق غيره لنكتة " وسماه الخطيب " تجاهل العارف " (٥) ، وهى التسمية التى اشتهر بها .

---

(١) بحوث قرآنية للشيخ عبد الرحمن تاج : ص ١٤١ ، ١٤٢ .

(٢) رواه مسلم فى كتاب الصلاة برقم ٤٤٠ والحديث بتمامه : " خَير صُفوفِ الرجال أوّلُها ، وشَرُّها آخِرُها ، وخَيرُ صُفوفِ النساء آخِرُها وشَرُّها أوّلُها " .

(٣) الروض الأنف : ٤ / ١١٨ وينظر شرح أبيات مغنى اللبيب للبغدادى : ٧ / ٣٠٨ .

(٤) ينظر الكشاف : ٣ / ٢٨٩ . ويراجع ص من البحث .

(٥) ينظر الإيضاح مع البغية : ٤ / ٦٦ .

وقال العلماء بالشعر إن هذا البيت هو أنصف بيت قالته العرب [1] ، وإنه فى ذلك يضرب به المثل [2] . وقد أنصف حسان أبا سفيان بن الحارث فى هذا البيت أيما إنصاف ؛ فلم يواجهه مباشرة بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم خير منه ، وأن أبا سفيان فداء له ، بل لجأ إلى هذا النمط العالى من الكلام المنصف ، ليدل دلالة منطقية على هذا المعنى ؛ لأن كل من يسمع " شركما لخيركما الفداء " يقول إن هذا الحكم يشهد به العقل السليم ، والفطرة السوية ، ولا يقوله إلا من يثق بأن الفضل لمن أراد ، وأن الحكم على ما حكم ، حتى إن الخصم لو رجع إلى نفسه وتفكر لعلم أن محمدا صلى الله عليه وسلم هو الخير كله ، وأنه كان ينبغى على الهاجى أن يفديه بنفسه .

وذكر الخطيب أن هذا الأسلوب فيه تعريض بالخصم وأنه على الضلال والشر وأن صاحبه على الهدى والخير [3] .

وقوله " فشركما لخيركما الفداء " خبر " الغرض منه الدعاء بأن يذهب شر الرجلين فداء لخيرهما " [4] .

ولما أوهم حسان بهذه الجملة أنه يعقد مفاضلة بين الطرفين مع أن الفاضل فيها معلوم سلفا ، ذكر من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم ما يؤكد أنه هو الفاضل وأنه هو الخير كله ، فقال :

٢٧ - هَجَوتَ مباركا ، برًا ، حنيفــًا ،   أمينَ اللهِ ، شيمتهُ الوفاءُ ؟ [5]

وهذا هو النهج نفسه الذى نهجه حسان قبل ذلك حين توعد كفار قريش فى قوله :

وإلاَّ فاصْبِرُوا لجِلَادِ يَــــوْمٍ   يُعِزُّ اللــهُ فيـه مَــنْ يَشـاءُ

ثم ذكر بعده من صفات المؤمنين ما يؤكد أن العزة لهم ، وذلك فى قوله (فى البيت ١٨) :

وجِبريلٌ رســـولُ الله فينا ،   ورُوحُ القُـدْسِ ، ليس له كِفَاءُ

إلى آخر البيت رقم ٢٢ .

---

(١) ينظر ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى : ١/١٩١ ، وأمالى المرتضى : ١/٦٣٢ وتنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات : ٤/ ٣١٨ .

(٢) ينظر الشعر والشعراء لابن قتيبة : ١ / ٣٠٨ .

(٣) ينظر الإيضاح ومواهب الفتاح : ٤ / ٤٠٥ ، ٤٠٦ ضمن شروح التلخيص .

(٤) دراسات أدبية د / عبد المنعم يوسف : ص ١٢٠ بتصرف .

(٥) هذه رواية ابن هشام وابن القيم ، وفى رواية الإمام مسلم وابن عساكر : " رسول الله " بدل " أمين الله " ، (والبر – بفتح الباء – الواسع الخير ، وهو مأخوذ من البر – بكسر الباء – وهو الاتساع فى الإحسان ، وهو اسم جامع للخير ... وأما الحنيف فقيل هو المستقيم ، والأصح أنه المائل إلى الخير ، وقيل : التابع ملة إبراهيم صلى الله عليه وسلم . وقوله : شيمته الوفاء : أى خلقه) [شرح النووى لصحيح مسلم : ١٦ / ٥٠ بتصرف] .

ووحدة المنهج الذى يبنى عليه الشاعر قصيدته مما يملأ النفس روعة بسطوة المعنى واستحكامه فى نفس الشاعر ، والقدرة الفائقة للشاعر على إخضاع ألفاظه وأنغامه لسطوة هذا المعنى حتى تبين عنه وتكون خدما له ودلائل عليه .

وعلى ذلك فقوله " هجوت مباركا ، برا ، حنيفا ...) امتداد لقوله " فشركما لخيركما الفداء " وتفصيل له بذكر طرف من صفاته صلى الله عليه وسلم وشمائله الشاهدة بأنه الخير والأفضل وأنه ليس له كفء يكافئه ولا ند يماثله حتى يصح له أن يهجوه .

وذكر حسان من الشمائل المحمدية خمس صفات (مباركا ، برا ، حنيفا ، أمين الله ، شيمته الوفاء) وترك عطف بعضها على بعض بالواو إشارة إلى أنها " مجتمعة فيه ، وكأنها صفة واحدة ... وأن هذه الصفات كأنها تلاقت من داخلها ، وشكلت صفة واحدة تشتمل عليها ، دون أن يكون هناك إشعار بأنها صفات متغايرة ، وإن كانت كذلك فى الواقع ، ولو أن الشاعر أتى بالواو لأعلنت بتغاير هذه الصفات واستقلالها ، وأنها تتلاقى فيه كما تتلاقى الأشياء المتعددة ، والتى يجمعها شئ خارج عنها " [1] .

وهذه الصفات الخمس جمعت له صلى الله عليه وسلم ما وصف به القرآن الكريم رسل الله من لدن نوح إلى عيسى – عليهما السلام – ، ووصف نوح – عليه السلام – بالأمانة فى قوله تعالى " إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ . إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ " [2] ، ووصف بها كذلك هود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسى [3] – عليهم السلام – وبالحنيفية والوفاء وصف سيدنا إبراهيم [4] – عليه السلام . وبالبرِّ وصف يحيى وعيسى [5] – عليهما السلام – وبالمبارك وصف سيدنا عيسى [6] – عليه السلام . ووصف رسولنا صلى الله عليه وسلم بالحنيفية [7] .

---

(1) دلالات التراكيب د / محمد أبو موسى : ص ٢٨١ ، ٢٨٤ بتصرف .

(2) سورة الشعراء : ١٠٦ ، ١٠٧ .

(3) ومن ذلك الآيات الكريمة : ١٢٥ ، ١٤٣ ، ١٦٢ ، ١٧٨ من سورة الشعراء . والآية ١٨ من سورة الدخان .

(4) سورة الأنعام : ٧٩ ، وسورة النجم : ٣٧ .

(5) فى الآيتين : ١٤ ، ٣٢ من سورة مريم .

(6) فى الآية : ٣١ من سورة مريم .

(7) فى الآيتين : ١٠٥ من سورة يونس ، ٣٠ من سورة الروم .

وعلى هذا فقد جمع حسان للرسول صلى الله عليه وسلم صفات الأنبياء على الوجه الأتم الأكمل ؛ بيانا لشئ من عظيم منزلته وقدره ، وتبشيعا لجرم من هجاه ؛ لأنه هجا من اجتمعت فيه كمالات الأنبياء وصفاتهم .

وصاغ حسان هذه الصفات صياغة بليغة تؤدى معانيها على الوجه الأتم الأكمل بما يليق بمقام المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ففى وصفه بـ " مبارك " راعى فيه معنى الاطلاق ولم يقيده ، بل جعل البركة فيه عامة تامة ، متأسيا بقوله عز وجل فى وصف سيدنا عيسى – عليه السلام – " وَجَعَلَنِى مُبَارَكاً أَيْنَمَا كُنتُ " [1] ، وكذا فى وصفه بـ " بر " أطلق ولم يقيده بأحد ليعم بره كل أحد ، فلم يقل : برا بوالديه ، على نحو ما قال المولى سبحانه فى وصف يحيى وعيسى عليهما السلام ، ففى وصف يحيى قال : " وَبَرًّا بِوَالِدَيهِ " [2] ، وفى وصف عيسى قال : " وَبَراً بِوَالِدَتِى " [3] .

ولما وصفه حسان بالأمانة لم يطلق هذا الوصف على نحو ما صنع فى " مباركا وبرا " فلم يقل " أميا " ، بل اختار من صور الأمانة أهمها وأخطرها وأعظمها شأنا وهى " أمين الله " أى أمانة الوحى وتبليغ الرسالة ، لأنه لا يطلع على أداء هذه الأمانة على النحو الأتم الأكمل إلا الله – جل جلاله – ، فإذا كان أمينا فى أمر لا يعلمه إلا علام الغيوب ، فأمانته فيما يطلع عليه الناس محققة بلا ريب ، ومعلومة لكل الناس ، فهو الملقب عندهم قبل بعثته بالصادق الأمين . وجعل ابن القيم " الأمين " اسما من أسماء المصطفى صلى الله عليه وسلم قال (وهو أحق العالمين بهذا الاسم ، فهو أمين الله على وحيه ودينه ، وهو أمين من فى السماء ، وأمين من فى الأرض) [4] .

ولما أراد حسان وصفه صلى الله عليه وسلم بالوفاء عدل عن صيغة الصفة المشبهة التى اعتمد عليها فى قوله (برا ، حنيفا ، أمين الله) إلى التعبير بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والدوام فقال : (شيمته الوفاء) ، وبهذا نرى أن حسان دل على ثبوت الصفات التى وصف بها الرسول صلى الله عليه وسلم واستقرارها وتأصلها ودوامها بثلاث طرق : باسم المفعول

---

(١) سُورة مريم : ٣١ .

(٢) سورة مريم . ١٤ .

(٣) سورة مريم : ٣٢ .

(٤) زاد المعاد : ١ / ٣٨ .

" مباركا " ، وبالصفة المشبهة التى لا تستعمل إلا فى الصفات اللازمة ـــ لأنها لإفادة الأوصاف باعتبار قرارها وثبوتها لحالها من غير نظر إلى حدوث وتجدد [1] ـ وذلك فى قوله (برا ، حنيفا ، أمين الله) ، ثم بالجملة الاسمية فى قوله (شيمته الوفاء) ثم بالتعبير فى هذه الجملة بكلمة " شِمته " بمعنى "خلقه وطبيعته التى جُبِلَ عليها " [2] : الوفاء .

والبيت إنشائى ، لأنه يدل على الاستفهام الإنكارى التوبيخى ، فهو امتداد لمعنى الاستفهام فى قوله (أتهجوه ولست له بكفء ؟) ، إلا أن الاستفهام هنا بغير أداة ، ومن شواهده قوله تعالى (وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ)[3] فهو استفهام بغير أداة ، يدل عليه قوله فى موضع آخر (فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ) [4] ويدل عليه أيضا أن فرعون أجاب عن الاستفهام فى الموضعين بـ " نعم " ففى جواب الأول (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) [5] وفى جواب الثانى (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) [6] .

و يلحظ فى بيت حسان أن الاستفهام فيه لإنكار للفعل الماضى (هجوت) وفيه مع الإنكار معنى التوبيخ والاستبعاد ، أى : هجوت من هذه صفاته العظيمة وأخلاقه النبيلة ؟ ولا شك فى أن لذكر الصفات التى هى مفاعيل للفعل المنكر أثرا كبيرا فى الكشف عن معنى الاستفهام ، والفرق كبير بين أن نقول : آذيت جارك ؟ و : آذيت جارك المسلم ، الفقير ، المسكين ، الضعيف ؟ لاشك فى أن ذكر الصفات أعطى الاستفهام زيادة فى الإنكار والتفظيع ، وملأ النفس نفورا وسخطا ممن آذى جارا هذه صفاته .

ولعل فى حذف الاستفهام ما يدل على امتلاء نفس الشاعر ، وكأن شدة غضبه من هجاء أبى سفيان جعلته يبين عن هذا الاستفهام بنبرة صوته دون أن يستخدم له أداة . ومثل هذا

---

(1) الوسيلة الأدبية للمرصفى : ١٥٦/١

(2) ينظر لسان العرب : (ش ى م)

(3) سورة الأعراف : ١١٣.

(4) سورة الشعراء : ٤١.

(5) سورة الأعراف : ١١٤ .

(6) سورة الشعراء : ٤٢

الحذف كثير فى المقامات الممتلئة بالغضب ، كما فى حذف "لا" النافية من " تفتأ " فى قول إخوة يوسف لأبيهم (تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الهَالِكِينَ) [1] أى : لاتفتأ .

كما يدل حذف الأداة فى الآية السابقة وفى بيت حسان على غرابة مدخولها ، ففى الآية (جاء حذف حرف النفى – وهو خلاف الأصل – متلائما مع هذا السياق الغريب ، ويرمز فى خفاء إلى حاجتهم ، وهو نسيان يوسف وإبعاده من قلب أبيهم .. وليس فى مخالفة المألوف أدخل من هذا) [2] ، وفى بيت حسان دل حذف أداة الاستفهام على أن هجاء الرسول صلى الله عليه وسلم الذى يتصف بمكارم الأخلاق والفضائل أمر غريب جدا ، ومخالف للمألوف ، كأنه يمثل خرقا فى قانون الفطرة والطبيعة ، ولذا ناسبه ترك الأصل فى صياغة الاستفهام ، فجاء الاستفهام بدون أداة .

ثم يواصل حسان استخدام طريقة الاستفهام الإنكارى التوبيخى الاستبعادى ، فيقول :

٢٨ - أَمَنْ يَهجُو رسولَ الله منكم ويَمدَحُه وينصُرُه سَواءُ ؟

وهو ثالث أبيات متتاليات صاغها على أسلوب الاستفهام ، وتكرار الاستفهام يدل على أن هجاء الرسول صلى الله عليه وسلم من الأمور التى تنكرها النفوس والعقول وتثار حواليها كثير من علامات الاستفهام المتتالية التى تكشف عن وجوه الغرابة والنكران لهذا الهجاء .

والبيت فى جملته تعريض بخسران أبى سفيان – قبل إسلامه – لهجائه الرسول صلى الله عليه وسلم وبفوز حسان لمدحه الرسول صلى الله عليه وسلم .

وبنى البيت على فنون بديعة من الحذف ، منها ذلك اللون الذى يطلق عليه بعض علماء البلاغة " الحذف المقابلى " [3] ويسمه بعضهم " الاحتباك " [4] ، وحاصله : " أن يجمع فى الكلام متقابلان ، فيحذف من واحد منهما مقابله؛ لدلالة الآخر عليه " [5] ، وتفصيل ذلك : أن حسان أقام بيته على أسلوب المقابلة ، والأصل قبل الحذف أن يقال : " أمن يهجو رسول الله منكم ، ويحاربه ، ومن يمدحه منا وينصره سواء ؟ " ، فقابل حسان " يهجو " فى الطرف الأول بـ " يمدح " فى الثانى ، وذكر فى الثانى " ينصره " وحذف مقابله من الأول وهو " يحاربه " ،

---

(1) سورة يوسف :٨٥

(2) خصائص التراكيب د محمد أبو موسى : ص ١١٥ بتصرف .

(3) ينظر البرهان للزركشى : ٣ / ١٢٩ – ١٣٤ .

(4) ينظر الوسيلة الأدبية للمرصفى : ٢ / ١٤٥ ، ١٤٦ .

(5) البرهان : ٣ / ١٢٩ .

وذكر فى الأول " منكم " وحذف مقابله فى الثانى وهو " منا " [1] ، فقابل ثلاثة معان بثلاثة ، ولكنه حذف من الأول معنى اكتفاء بذكر مقابله فى الثانى ، وحذف من الثانى معنى اكتفاء بذكر مقابله فى الأول ، وفى هذا إيجاز لطيف يثير العقول ويبعث على التفكر والفطنة وإعمال الذهن استدلالا بالمذكور على المحذوف وبالحاضر على الغائب .

وهذا الفن فى القرآن الكريم كثير [2] ، ومنه قوله تعالى : (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ) [3] ، قال الزركشى : (الأصل : فإن افتريته فعلى إجرامى وأنتم برآء منه ، وعليكم إجرامكم وأنا برئ مما تجرمون ، فنسبة قوله تعالى " إجرامى " ، وهو الأول إلى قوله " وعليكم إجرامكم ، وهو الثالث كنسبة قوله " وأنتم برآء منه " وهو الثانى إلى قوله تعالى : " و أنا برئ مما تجرمون " وهو الرابع ، واكتفى من كل متناسبين بأحدهما) [4] .

وروى ابن عبد ربه الشطر الثانى : " ويطرية ويمدحه سواء " [5] ، ولم أقف على هذه الرواية عند غيره ، وهى تضيع فن الاحتباك وما ينثره على البيت من روعة ، وقد أجمعت المصادر على الرواية الأولى ولذا أختارها .

ومن بديع الحذف فى البيت حذف الاسم الموصول وبقاء صلته ، إذ التقدير : " أمن يهجو رسول الله منكم ومن يمدحه وينصره سواء ؟ " ، فحذف " من " فى " ومن يمدحه " لدلالة الأول عليه ؛ وهو من شواهد العربية على جواز هذا الحذف [6] ، وللنحاة فيه خلاف

---

(1) (وأفاد الجواليقى كون الهاجى والمادح من المشركين ، وروى البيت : " فمن يهجو رسول الله " بالفاء موضع همزة الاستفهام ، وقال فى تقرير معناه : يقول : هجوكم لا ينقصه ، كما أن مدحكم لا يرفعه " [شرح أبيات مغنى اللبيب : ٧ / ٣٠٧] . وهذا يقتضى أن يتعلق " منكم " بالفعل " يهجو " ويتعلق مثله بالفعل " يمدح " ، (وذلك غير جائز ؛ حيث لم يكن فى القرشيين حينذاك من يمدح الرسول ، وفى جعله حالا - يعنى من " رسول الله " - ملحظ دقيق يبين وجه توبيخه لقريش ، فهو يسفههم على أن يتساوى عندهم من يهجو محمدا ومن يمدحه ، مع أن محمدا منهم فنصره من نصرهم ، وشرفه برسالة الله شرف لهم . وإذن فما كان ينبغى أن يسووا بين خاذليه وناصريه ، فضلا عن أن يحتضنوا هؤلاء الخاذلين المهاجين) [دراسات أدبية د / عبد المنعم يوسف : ص ١٢٠ ، ١٢١] .

(2) ينظر الوسيلة الأدبية : ٢ / ١٤٦ .

(3) سورة هود : ٣٥ .

(4) البرهان : ٣ / ١٢٩ .

(5) العقد الفريد : ٥ / ٢٦٠ .

(6) ينظر أمالى المرتضى : ٢ / ١٨٢ والكشاف : ٣ / ٢٠٣ ، وشرح أبيات مغنى اللبيب : ٧ / ٣٠٥ الشاهد رقم (٨٥٤)

مشهور حتى إن أبا العلاء ذكره فى رسالته فى مساق ذكر ما أشكل من شعر حسان ، وسأل حسان عنه فى الجنة فقال له : (يذهب بعضهم إلى أن " من " محذوفة من قولك :" ويمدحه وينصره " على أن ما بعدها صلة لها . وقال قوم : حذفت على أنها نكرة ، وجعل ما بعدها وصفا لها فأقيمت الصفة مقام الموصوف ؟) (1) ، ولم يذكر أبو العلاء لذلك جوابا .

ولعل ذكر الموصول فى جانب " من يهجو رسول الله ... " وحذفه فى جانب من " يمدحه وينصره ... " فيه إشعار بأن الهاجى دفعه إلى هجائه الرسول صلى الله عليه وسلم اعتداده بذاته وتضخيمة لها كبرياء وأنفة حتى ظن نفسه كفأ له وندا ، ولذا ناسبه أن يذكر معه اسم الموصول ، بخلاف مادحه صلى الله عليه وسلم ، فإنه نظر إلى الممدوح فرأى فيه الكمال البشرى والشمائل العليا والخلق العظيم ، فاستصغر نفسه دونه ومحاها وذاب فى محبة الممدوح وكماله ؛ ولذا ناسبه أن يحذف معه الاسم الموصول .

ويمكن أن تنطبق هذه النكتة أيضا على حذف الموصول فى قوله تعالى : (وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (2) التقدير - كما قال الزركشى : (بالذى أنزل إلينا والذى أنزل إليكم) (3) ، وحذف الموصول مع " أنزل إليكم " إشارة إلى أنه صار منطويا تحت لواء القرآن الكريم الذى أنزله الله مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ؛ وهذا يعنى أن أهل الكتاب إذا آمنوا بالقرآن الكريم فقد آمنوا بكتابهم لأن القرآن الكريم مصدق له ، وهذا أنجح للجدل وأحسن فيه ، ولذا نهانا الله عن جدالهم إلا بالتى هى أحسن .

واستشهد الزمخشرى بهذا البيت عند تفسير قوله تعالى : (وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) (4) ، فحكى رأى من قال إن فى الآية موصولا محذوفا ، والتقدير : ولا من فى السماء بمعجزين (5) ، (قال الطيبى : فالموصول المحذوف عطف على " أنتم " ، وقوله :

---

(1) رسالة الغفران : ص ٢٣٦ ، والتقدير على أن المحذوف هو الموصوف وقامت صفته مقامه : " أواحد يهجو رسول الله ، وآخر يمدحه وينصره سواء ؟ " [شرح أبيات مغنى اللبيب : ٧ / ٣٠٦] .

(2) سورة العنكبوت : ٤٦ .

(3) ينظر البرهان : ٣ / ١٥٨ .

(4) سورة العنكبوت : ٢٢ .

(5) ينظر الكشاف : ٣ / ٢٠٣ .

أمن يهجو " أى : ومن يمدحه ، وقيل : ولو لم تقدر "من" لكان " يمدحه "عطفا على " يهجو " ، وكان داخلا فى حيز الصلة ، فكان الهاجى والمادح شخصا واحدا ، وفسد المعنى . ولا يصح قوله : " سواء ") [1] .

وبعد الاستفهامات الثلاثة السابقة أجاب حسان عن الاستفهام الأخير بقوله :

٢٩ - فإنَّ أبى ووَالِدَهُ وعِرْضِى   لعِرْضِ مُحمَّدٍ مِنْكُمْ وقَاءُ

وسلك حسان فى الجواب مسلك التصريح بعدما سلك فى الاستفهام مسلك التعريض ، فلما عرض فى البيت السابق بخسران من يهجو الرسول صلى الله عليه وسلم وفوز من يمدحه – صرح هنا بأنه من المادحين الناصرين الذين يقون رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنفسهم وآبائهم وأجدادهم . روى أن سيدنا حسان لما أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم القصيدة وانتهى إلى هذا البيت قال له الرسول صلى الله عليه وسلم : (وَقَاكَ اللهُ يا حَسَّانُ النَّارَ) [2] .

وعُنِىَ حسان بهذا الجواب فساقه فى أسلوب خبرى يحكى صورة مشرقة لحبه صلى الله عليه وسلم المشرق نوره فى قلوب المؤمنين حكاية تروى على مر العصور ؛ ولذا آثر حسان الأسلوب الخبرى لأنه بالحكاية والقص أولى وأشهر .

ولما أراد أن يخلد هذا الخبر صبه فى قالب الجملة الاسمية ليدل على أن حبه للرسول صلى الله عليه وسلم ووقايته إياه ثابتان دائمان راسخان فى أعماق القلب مستقران فى قرار النفس لا يغيرهما شئ .

وذكر الشاعر فى البيت لفظ (عرض) مرتين بمعنيين ، فهو فى قوله (وعرضى) بمعنى (نفسى) ، وفى قوله : (لعرض محمد) من العرض الذى هو موضع المدح والذم من الإنسان [3] ؛ دلالة على

---

(1) شرح أبيات مغنى اللبيب : ٧ / ٣٠٦ ، ٣٠٧ .

(2) الحديث فى الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب : ٣ / ٣٧ . ولم أقف على تخريجه فى كتب السنة .

(3) اختلف فى المراد بكلمة " عِرضْ " الأولى ، فذهب ابن قتيبة إلى أنه النفس خاصة وتبعه ابن الأثير ، فكأن حسان قال : فإن أبى وجدى ونفسى وقاء لنفس محمد صلى الله عليه وسلم ، وذهب اللحْيانى : إلى أن العِرض هنا هم الآباء والأسلاف ، وأن حسان أراد : فإن أبى ووالده وآبائى وأسلافى فأتى بالعموم بعد الخصوص . ورجح المرتضى : أن العرض هو موضع المدح والذم من الإنسان [ينظر تفصيل ذلك فى أمالى المرتضى : ١ / ٦٣٣ ولسان العرب : " ع ر ض "] واخترت من هذه الآراء الرأى الأول فى تفسير كلمة العرض الأولى ، واخترت ما رجحه المرتضى فى تفسير العرض الثانية .

بلوغ الغاية فى وقاية المعصوم صلى الله عليه وسلم من أن يتعرض له أحد بكلمة ذم أو مساءة ؛ فإن الشاعر يجعل أباه وجده ونفسه دروعا واقية للرسول صلى الله عليه وسلم من تلك الكلمة الخبيثة ، فكيف إذا تعرض أحد للرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ؟ !

وفى البيت تشبيه لأبيه وجده ونفسه بالدروع الواقية ، وقد نقلنا بهذا التشبيه من ميدان الدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم بالكلمة إلى ميدان الدفاع عنه بالأسلحة والدروع ؛ إشارة إلى أن الدفاع عنه بالكلمة لا يقل قدرا عن الدفاع عنه بالسلاح .

وحذف أداة التشبيه خيل أن المشبه هو عين المشبه به ، فهم ليسوا كالدروع ، وإنما هم دروع على الحقيقة ، فهم (الوقاء بعينه ؛ مبالغة فى المعنى ، كما تقول للرجل : ما أنت إلا مخلوقٌ من الكرم : إذا كَثُرَ ذلك منه ، ومثله قوله تعالى " خُلِقَ الإنسَانُ مِنْ عَجَلٍ " [1]) [2] .

ومن الإجحاف بحق الشعر أن يقال : (التقدير : ذو وقاء . فحذف المضاف) وهو وجه أجازه البَطَلْيَوسيُّ ، بل هو أول الوجوه عنده قدمه على ما ذكر آنفا [3] ، وهو ظلم كبير ، لو قلنا به (أفسدنا الشعر على أنفسنا ، وخرجنا إلى شئ مَغْسُولٍ ، وإلى كلام عامى مَرْذُول) [4] ، كما قال الإمام عبد القاهر ، فبيت حسان فى الحكم على فساد هذا التقدير فيه نظير بيت الخنساء :

تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ ، حَتى إذا ادّكَرَتْ فإنّما هِيَ إقْبَالٌ وإدْبَارُ

قال الإمام عبد القاهر : (جعلتها لكثرة ما تقبل وتدبر ، ولغلبة ذلك عليها ، واتصاله منها ، وأنها لم يكن لها حالٌ غيرَهما ، كأنها قد تجسمت من الإقبال والإدبار) [5] ، وأنكر الإمام تقدير حذف مضاف فى بيت الخنساء كأنها قالت : " فإنما هى ذات إقبال وإدبار " .

وتنكير المشبه به (وقاء) يدل على تعظيم هذا النوع من الوقاية وأهميته فى الدفاع عن الرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته . ومن براعة حسان أنه حول (وقاء) - وهى نكرة - لتؤول بمعرفة دالة على الجنس ؛ وذلك أنه لما أخر النكرة صارت (اللام فى قوله " لعرض محمد " فى موضع نصب على الحال من الوقاء ، وهى حال لنكرة تقدمت عليها ؛ لأنه لو قال :

---

(1) سورة الأنبياء : ٣٧ .

(2) الاقتضاب : ٣ / ٣٨ .

(3) ينظر المصدر السابق .

(4) دلائل الإعجاز : ٣٠٢ .

(5) المصدر السابق : ٣٠٠ .

وقاء لعرض محمد ، لكان المجرور فى موضع الصفة لوقاء ، فلما تقدم صار فى موضع نصب على الحال) [1] ؛ وهذا يعنى أن وقاء مع أنها نكرة بلغت مبلغ المعرفة فى أداء معناها والدلالة على جنس الوقاية .

وتقديم الجار والمجرور (منكم) فى قوله (منكم وقاء) يفيد تقوية المعنى وتوكيده ، ولا يفيد القصر ؛ لأنه لو أفاد القصر لدل على أن أباه وجده ونفسه وقاء لعرض الرسول صلى الله عليه وسلم منهم دون غيرهم ، وهذا فاسد ؛ لأن المراد أنهم وقاية لعرض الرسول صلى الله عليه وسلم منهم ومن سواهم ممن أراد الرسول لى الله عليه وسلم بسوء .

والأصل فى الجار والمجرور السابق أن يتعلق بـ (وقاء) أى (وقاء منكم) كما تقول : وقيته بنفسى من المكروه ، فلما قدمت لم يصح تعلقه بها ، ووجب أن يقدر فعل محذوف من لفظها ، كأنه قال : يقونه منكم وقاء [2] ، وفى هذا تقوية أخرى للمعنى بالتكرار ؛ لأن المقدر فى حكم المذكور .

وهذا البيت من أقوى أبيات القصيدة ، وتبدو فيه حرارة العاطفة الصادقة فى أسمى صورها وأنبلها وأشرفها ؛ وأحسن " حنا الفاخورى " – على كثر إساءته إلى حسان فى ترجمته له – حين قال : (وإننا لنلمس فى شعر النضال الدينى والسياسى هذا صدق اللهجة . وحرارة الرجل الذى يدافع عن أمر يجعل نفسه فداء له :

فإنَّ أبى ووَالِدَهُ وعِرْضِى ... لعِرْضِ مُحمَّدٍ مِنْكُمْ وقَاءُ) [3] .

****

وبعد هذه الأبيات السبعة التى ضربها حسان مثلا لاقتداره فى فن الهجاء وإلجام خَصْمِه الحجة ، وجعلها تفصيلا لما أجمله فى قوله فى الشطر الأول من البيت الحادى والعشرين (فنُحْكِمُ بالقوافى مَنْ هجانا) – ذكر ثلاثة أبيات ضربها مثلا لشجاعة المسلمين فى ميدان القتال ، وجعلها هى الأخرى تفصيلا لما أجمله فى قوله فى الشطر الثانى من البيت الحادى والعشرين : (ونَضرِبُ حين تَخْتلِطُ الدماءُ) فقال :

٢٠ - فإمَّا تَثْقَفَنَّ بنُو لُؤَىٌّ ... جُذَيمةَ ، إنَّ قَتْلَهُمُ شِفَاءُ !
٢١ - وحِلْفُ الحارثِ بن أبى ضِرارٍ ... وحِلْفُ قُرَيظَةٍ فينا سَوَاءُ
٢٢ - أولئكَ مَعْشَرٌ البَوُا علينا ، ... ففى أظْفارنا مِنهُمْ دِماءُ

---

[1] الاقتضاب : ٣ / ٣٧ ، ٣٨ .

[2] ينظر المصدر السابق : ٣ / ٣٨ .

[3] تاريخ الأدب العربى لحنا الفاخورى : ص ٢٣٧ . المطبعة البولسية ط . ثامنة .

وبهذا يكون حسان قد استوفى البيان عن فنى القتال : القتال بالكلمة ، والقتال بالسلاح ، وضرب لكل منهما مثلا دالا على براعة المسلمين فيه ، وهذا تسلسل دقيق يضبط حركة المعنى فى القصيدة ويجمع معاقده .

وشجاعة المسلمين فى ميدان القتال التى صورها حسان فى هذه الأبيات الثلاثة تصور بطولاتهم فى معاركهم مع " جَذِيمة " ، و " حلف الحارث بن أبى ضرار " ، " وحلف قريظة " ، وكانوا جميعا أعوانا لكفار قريش ، فبطش بهم المسلمون وجعلوهم لمن خلفهم آية ؛ ولذا يهدد حسان كفار قريش بمثل ما حل بأعوانهم هؤلاء .

وفقه هذه الأبيات التى زادها أبو عمرو الشيبانى فى روايته من أصعب شئ وأشقه ، ولذا وقع فى فقهها اضطراب وخلط كبيرين ، وبخاصه فى التعريف بـ " جذيمة " الذى ذكره حسان فى البيت الأول ؟ وفى تحديد المقصودين بـ " بنى لؤى " : أهم المسلمون القرشيون المهاجرون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أم كفار قريش ؛ إذ كل منهما ينتهى نسبه إلى " لُؤَىّ " ؟ وحلف الحارث بن أبى ضرار أهو نفسه " جَذِيمَةُ " المذكور فى البيت الأول أم غيره ؟ هذا فضلا عن الاختلاف فى ترتيب الأبيات ، ورواية الألفاظ . وهذا كله مشكل جدا .

فأما (جَذِيمَةُ) فهو المُصْطَلِقُ بنُ سَعدِ بنِ عَمرو ، وهو الذى ينسب إليه بنو المُصْطَلِق ، فهم بَنُو جَذِيمَةَ ، وهم الذين أوقع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم " يوم المُرَيْسِيع " ، وهو اليوم المشهور فى تاريخ المسلمين بـ (غزوة بنى المصطلق) [1] ، وكان قائد بنى المصطلق فيه الحارث بن أبى ضرار ، وهو أبو جويرية بنت الحارث أم المؤمنين التى تزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت من سبايا هذه الغزوة ، والمُرَيْسِيعُ ماء من مياههم لقيهم عنده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهزم الله بنى المصطلق ، وقتل منهم من قتل ، ونَفَّلَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه [2] .

---

(1) كانت غزوة بنى المصطلق فى شهر شعبان سنة ست من الهجرة ، وكان صلح الحديبية فى شهر ذى القعدة من السنة ذاتها ، أى أن الغزوة كانت قبله بشهرين تقريبا .

(2) ينظر السيرة النبوية لابن هشام مع الروض الأنف : ٤ / ٦ – ٩ , والمعارف لابن قتيبة : ص ١٣٨ والبداية والنهاية لابن كثير : ٢/. ٥٨٥ – ٥٩٨ ، وديوان حسان : ص ٧٦ ، ٧٧ .

وهذا يعنى أن المراد بـ " جَذِيمَةُ " و " حلف الحارث بن أبى ضرار " واحد ؛ وأن تخصيص حلف الحارث بالذكر مع أنه من جَذِيمة من باب ذكر الخاص بعد العام ؛ لأن الحارث هو الذى جمع الجموع حوله ، وكان قائدهم ، فهو الذى تولى كبر هذه الحرب منهم .

وأما (لُؤَىٌّ) – وفى رواية الديوان " لُوَىٌّ " بدون الهمزة [1] – فهو لُؤَىُّ ابنُ غالبِ بن فِهْرِ بنِ مَالكٍ ، وفِهْرٌ هو جِذْمُ قريشٍ كلِّها (يعنى أصلها) ، فبنو لؤى هم القرشيون عامة . ورُفِعَ بنو لؤى على أنه فاعل ، وجذيمة مفعوله . وبنو لؤى يحتمل أن يكون المقصود بهم المسلمين القرشيين المهاجرين مع الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وعليه يكون المعنى : إذا ثَقِفَ المسلمون جَذِيمة فليقتلوهم ؛ فإن قتلهم شفاء . ويحتمل أن يراد بهم المشركون من قريش فى مكة ، فيكون المعنى : إذا ثقف كفار مكة جذيمة ورأوا بطش المسلمين بهم فليعتبروا ؛ فإن مصيرهم – إن لم يخلوا بيننا وبين العمرة – كمصيرهم . وهذا – فيما أرى – هو الوجه اللائق والملائم لنسق القصيدة وغرضها العام ، كما أن الاحتمال الأول يعكر عليه ، بل يفسده ، أن زمن إنشاء القصيدة متأخر بشهرين تقريبا عن زمن قتل بنى جذيمة ، فغزوة بنى المصطلق كانت قد حدثت بالفعل وقتل المسلمون منهم من قتلوا ، فكيف يأمر الشاعر المسلمين إذا ثقفوا بنى المصطلق أن يقتلوهم وقد حدث ذلك بالفعل ؟

ويرى الدكتور / عبد الحليم حفنى أن (جذيمة فرع من الأنصار ، والمراد : أن قريشا إذا قاتلتنا فى الحرب فإن قتل قريش يشفى نفوسنا) [2] ، ولو كانت جذيمة فرعا من الأنصار لصح له ما رأى ، ولكنها ليست كذلك ، كما أن مساق الأبيات لضرب أمثله حدثت بالفعل تنبئ عن قوة المسلمين فى قتال أعدائهم على نحو ما صنعوا مع بنى المصطلق وبنى قريظة .

واستهل حسان هذه الأبيات باقتباسين من الذكر الحكيم يناسبان المقام :

---

(1) ينظر العقد الفريد : ٣ / ٢٦٧ ، ٢٧٧ قال ابن منظور : " لؤى بن غالب أبو قريش ... والعامة تقول لوى – بدون همز – قال على بن حمزة : العرب فى ذلك مختلفون : من جعله من اللأى همزه ، ومن جعله من لوى الرمل لم يهمزه . ولوى الرمل : ما التوى منه ، وقيل هو مسترقه ، وقيل هو منقطع الرمل " [ينظر اللسان " ل أ ى " و " ل و ى] .

(2) الشعراء المخضرمون : ص ٢٤٤ .

الاقتباس الأول : فى قوله " فإما تثقفن بنو لؤى " أخذه من قول الحق سبحانه (فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) [١] .

والاقتباس الثانى : فى قوله " إن قتلهم شفاء " ، أخذه حسان من قول الله تعالى : (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ) [٢] .

واستخدم حسان الفعل (ثَقِفَ) دون " لَقِىَ " ونحوه ، فلم يقل : " فإما تَلْقَيَنَّ ، أو تَظْفَرَنَّ " ؛ لما فى هذا الكلمة من دعوة كفار قريش إلى الحذق والتأمل فيما حدث لجذيمة لما قاتلهم المسلمون ، فينبغى عليهم ألا يمروا عليهم وهم عنهم غافلون ؛ فإنه يقال : " ثَقِفَ الشئَ ثَقْفاً وثِقافاً وثُقُوفَةً : حَذَقَهُ ... ورجل ثقف لَقْفٌ : إذا كان ضابطا لما يحويه قائما به " [٣] .

وفى الكلمة أيضا معنى السرعة فى الإدراك لشدة الفطنة وقوة الذكاء [٤] . وفيها إشارة إلى أن ما أصاب بنى المصطلق من غزو الرسول صلى الله عليه وسلم لهم ، كان آية باهرة على قوة المسلمين وشجاعتهم ، وعبرة ظاهرة لكل جاحد أو معاند .

و " إما " شرط زيد عليه " ما " ، وحذف جوابه ، والتقدير : (فليتعظوا بهم ؛ أو فليعلموا أن مصيرهم كمصيرهم ، أو ما أشبه ذلك ، ودليله جملة : " إن قتلهم شفاء ") [٥] ، وفى حذف الجواب دلالة على هول ما نزل بجذيمة ونكارته ، بحيث لا يحيط به الوصف ، وكأن

---

(١) سورة الأنفال : ٥٧ . قال القرطبى : " نزلت الآية فى بنى قريظة والنضير ، نقضوا العهد فأعانوا مشركى مكة بالسلاح ، ثم اعتذروا فقالوا : نسينا ؛ فعاهدهم – عليه السلام – ثانية ، فنقضوا يوم الخندق " [تفسير القرطبى " ٤ / ٢٨٦٩] .

(٢) سورة التوبة : ١٤ . " قال مجاهد : يعنى خزاعة حلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ... قال القرطبى : فإن قريشا أعانت بنى بكر عليهم ... فأنشد رجل من بنى بكر هجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له بعض خزاعة : لئن أعدته لأكسرن فمك ، فأعاده ، فكسر فمه ، وثار بينهم قتال ، فقتلوا من الخزاعيين أقواما ، فخرج عمرو بن سالم الخزاعى فى نفر إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأخبره به ، فدخل منزل ميمونة و قال : " اسكبوا إلى ماء " ، فجعل يغتسل وهو يقول : " لا نصرت إن لم أنصر بنى كعب " – يعنى قوم عمرو وهم من خزاعة – ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتجهز والخروج إلى مكة ، فكان الفتح " [تفسير القرطبى : ٤ / ٢٩٢٦ بتصرف] .

(٣) لسان العرب : " ث ق ف " بتصرف .

(٤) ينظر المصدر السابق .

(٥) دراسات أدبية د / عبد المنعم يوسف : ص ١٢١ .

مجرد رؤية ما نزل بهذه القبيلة يكفى لأخذ العظة والعبرة ويملأ قلوب الأعداء رعبا وخوفا أن يصيبهم مثل ما أصابهم .

وجملة (إن قتليهم شفاء) دليل على جواب الشرط المحذوف ، وتعليل له ، وفيها تشبيه حذف وجهه وأداته ، أى : قتلهم كالشفاء لما فى صدور المؤمنين ؛ لأنهم أعانوا كفار قريش عليهم فى غزوة الأحزاب ، ثم جمعوا بعد ذلك الجموع لحرب المسلمين ، فكثر شرهم ؛ وعم ضرهم . والتشبيه يصور أن شوق المسلمين إلى قتلهم كشوق المريض إلى الشفاء ، وكأنهم لو لم يقتلوهم لظل المرض ملازما لهم ينخر فى عظامهم .

وحذف حسان متعلق (شفاء) إذ التقدير : " شفاء لصدورنا " ، وهو ما صرحت به الآية الكريمة (وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) [1] ، ولعل حسان قصد بجوار المحافظة على القافية الدلالة على عموم الشفاء بقتلهم ، وكأن قتلهم كان شفاء للبشرية كلها من هذه القبيلة الآثمة الخائنة . ولا شك فى أن تطهير الحياة من الأئمة الخونة شفاء للأحياء جميعا وتطهير لهم .

وبعد هذا البيت فى رواية الديوان من زيادة أبى عمرو :

٢١ - أولئك معشر نصروا علينا ، ففى أظفارنا منهم دماء

٢٢ - وحِلْفُ الحارث بن أبى ضِرار ، وحِلْفُ قُرَيظةٍ فينا سواء

وفى رواية السهيلى :

وحلف الحارث بن أبى ضرار ، وحلف قريظة فينا سواء

أولئك معشر ألبوا علينا ، ففى أظفارنا منهم دماء

ورواية السهيلى أحق بالمعنى لثلاثة أمور :

الأول : أن حلف الحارث بن أبى ضرار هو نفسه (جذيمة) المذكور فى البيت السابق ، وإنما خص هذا الحلف من عموم القبيلة لما سبق ذكره ؛ وحق الخاص إذا ذكر بعد العام أن يكون رديفه بلا فاصل .

والثانى : أن جذيمة والحلفين المذكورين اشتركوا جميعا فى شئ واحد واجتمعوا عليه ، وهو نصرة كفار قريش يوم الأحزاب والتأليب على المسلمين ، وحق هذا الاشتراك فى الوصف أن تعود الإشارة فى قوله :

أولئك معشر ألبوا علينا ، ففى أظفارنا منهم دماء

---

(1) سورة التوبة : ١٤ .

تعود عليهم جميعا كما فى رواية السهيلى ، لا على جذيمة وحدها كما فى رواية الديوان .

والثالث : أن بشاعة الاستئصال والقتل التى صورها قوله (ففى أظفارنا منهم دماء) تنطبق أكثر ما تنطبق على " بنى قريظة " الذين (حكم فيهم سَعْدُ ابنُ مُعاذ بأن تُقْتَل مقاتلتهم ، وتُسْبَى ذراريهم ونساؤهم) [1] ، فلم يبق من مقاتليهم رجل واحد ، بخلاف جذيمة وحلف الحارث بن أبى ضرار ، فقد بقيت من رجالاتهم بقية ، من عليهم المؤمنون فأعتقوا رقابهم ؛ تكريما لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين صاروا أصهاره من أم المؤمنين جُوَيرِيَةَ بنت الحارث بن أبى ضرار ؛ قالت السيدة عائشة – رضى الله عنها – : (فلقد أُعْتِقَ بتزويجه إياها مائةُ أهل بيت من بنى المصطلق ؛ فما أعلمُ امرأةً كانت أعظمَ على قومها بَرَكةً منها) [2] .

والإشارة فى قوله " أولئك " (لتمييز المشار إليه أكمل تمييز لصحة احضاره فى ذهن السامع بوساطة الإشارة إليه حسا) [3] ، أى أن هؤلاء القبائل الذين كانوا معلمين مميزين بتأليبهم الأعداء على المسلمين صاروا بعدما انتقم منهم المسلمون مميزين بين الناس بما نالهم من صغار وهوان ، بحيث يعرفهم بسيماهم كل من لقيهم .

وفى التعبير بـ (معشر) دون " فرقة " ونحوها دلالة على أن هؤلاء القبائل والأحلاف تكثر بعضهم ببعض حتى صاروا كالعشيرة الواحدة فى اتحاد كلمتهم على خيانة الرسول صلى الله عليه وسلم ونصر أعدائه عليه ؛ إذ (العشيرة أهل الرجل الذين يتكثر بهم ، أى يصيرون له بمنزلة العدد الكامل ؛ وذلك أن العشرة هو العدد الكامل) [4] ، وفيه – أيضا – إشارة إلى أن أساس العشرة بينهم كان بغض الرسول صلى الله عليه وسلم والتأليب عليه ، فمن بالغ منهم فى ذلك كان أدخل فى العشيرة وأوثق فى العشرة ، ومن شذ عنه كأنما مرق منهم .

وقوله (أَلَبُوا علينا) صفه لـ (معشر) ، يقال : (أَلَبَ إليكَ القومُ : أتوك من كل جانب . وأَلَبْتُ الجيشَ إذا جمعته . وتألَّبوا : تَجمَّعوا . والأَلْبُ : الجمع الكثير من الناس ... وفى

---

(1) البداية والنهاية : ٢ / ٥٤١ .

(2) السيرة النبوية لابن هشام مع الروض الأنف : ٤ / ٩ .

(3) الإيضاح مع البغية : ١ / ٩٠ .

(4) المفردات فى غريب القرآن : (ع ش ر) .

الحديث : إن الناس كانوا علينا إلْباً واحداً . الأَلْبُ – بالفتح والكسر – : القوم يجتمعون على عداوة إنسان ... قال رُؤْبَةُ :

قـد أصْبحَ الناسُ علينـا إلْبَا

فالناسُ فى جَنْبٍ ، وكُنَّا جَنْبَا) [١] .

والكلمة تصور حال هؤلاء الأحلاف أفضل تصوير ، فهم أتوا من كل جانب حتى أحاطوا بالمسلمين ، ولم يكتفوا بأنفسهم فقط بل جمعوا الجموع وأعانوا أعداء المسلمين ... وفى الكلمة أيضا معنى السرعة ؛ إذ (الأَلُوبُ : الذى يُسْرِع) [٢] ، وفيها معنى الكَيد فى خفاء ، لأن (الأَلْبَ : التدبيرُ على العدو من حيث لا يعلم) ، وفيها معنى انصياع الناس لهم ، وأن الناس يجتمعون بأمرهم دون تفكير أو مراجعة كأنهم قُطعان الإبل إذا سيقت انساقت ؛ يقال (أَلَبَ الإبلَ يَأْلِبُها ويَأْلُبُها أَلْباً : جـمعها وساقها سوقا شديدا) [٣] . فالكلمة حمالة لتلك المعانى التى تصور حال هؤلاء الأحلاف أبرع تصوير ؛ ولذا فإنى أختار هذه الرواية على رواية الديوان : (نصروا علينا) ؛ فضلا عن أن حسان استعمل كلمة " أَلَبُوا " يوم الخندق ، وكذا كعب بن مالك ، فهى من الألفاظ التى كثر استعمالها فى هذا المعنى ، قال حسان يوم الخندق :

سَارُوا بأجْمَعِهِمْ إليه ، وأَلَّبُوا   أَهْلَ القُرَى وبَوَادِىَ الأَعْـرابِ [٤]

وقال كعب بن مالك :

لقد عَلِمَ الأَحْزابُ حِينَ تَأَلَّبُوا   عَلينا ورَامُوا دِينَنا ما نُوَادِعُ [٥]

وقوله : (ففى أظفارنا منهم دماء) صورة بيانية تملأ النفس هولا ورعبا ، وتكشف عن قوة البطش... حيث شبة المسلمين بالأسود فى افتراسهم لعدوهم [٦] ، ثم حذف المشبه به ، ورمز له بالأظفار على سبيل الاستعارة المكنية التى تصور قوة الافتراس وشدة البطش دون

---

(١) لسان العرب : (أ ل ب) بتصرف .

(٢) لسان العرب : (أ ل ب) .

(٣) المصدر السابق .

(٤) البداية والنهاية لابن كثير : ٢ / ٥٥٩ .

(٥) المصدر السابق : ٢ / ٥٦١ .

(٦) ينظر الشعراء المخضرمون : ٢٤٤ .

تميز ، فكما أن هم الأسد هو التهام فريسته وعدم الإبقاء على شئ منها ، فكذلك المسلمون ... ثم بنى على هذه الاستعارة (كناية عن صفة ، وهى قتلهم والإيقاع بهم ، وهذا يوضح ضراوة انتقامهم ، وأنهم بطشوا بهم بطشة الأسود) [1] .

* * *

وبعدما ضرب حسان مثلين : مثلا لقدرة شعراء المسلمين على هجاء من هجاهم وإفحامه ، ومثلا لقوة المسلمين وشجاعتهم فى القتال حين تختلط الدماء – ختم القصيدة ببيت مفرد ، قال فيه :

٢٢ - لِسَانى صَارِمٌ ، لا عَيبَ فيهِ ، وبَحْرِى لا تُكَدِّرُه الدِّلاءُ !

وكان اللائق بهذا البيت أن يقع فى تسلسل المعانى خاتمة للأبيات التى ضربها حسان مثلا لقدرة شعراء المسلمين على هجاء من هجاهم ، فيقع بعد قوله :

فإنَّ أبى ووَالِدَهُ وعِرْضِى لعِرْضِ مُحمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

وهذا هو ترتيبه فعلا فى رواية ابن هشام الذى لم يثبت الأبيات الثلاثة التى زادها أبو عمرو الشيبانى ، وقد أحسن رواة الديوان حين وضعوا زيادة الشيبانى قبل رقم (٣٣) وجعلوه هو خاتمة ؛ وبذا تتفق الروايتان وأكثر ما وقفت عليه من روايات القصيدة على ختمها بهذا البيت ليكون هو النغمة الأخيرة التى ترنم بها الشاعر وأتم بها حماسته الثائرة المهددة لقريش ولأبى سفيان بن الحارث وغيره من الشعراء الذين تسول لهم أنفسهم هجاء الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

ولا أعتد برواية صاحب " العقد الفريد " التى ختمها بقول حسان :

فإنَّ أبى ووَالِدَهُ وعِرْضِى لعِرْضِ مُحمَّدٍ مِنْكُمْ وِقَاءُ

لأن صاحب العقد إنما هو مختار ينتقى بعض الأبيات ، وليس من همه ضبط الرواية ، ومراعاة أنساب المعانى ، ولذا وردت الأبيات التى اختارها من القصيدة على ترتيب فى غاية من

---

(1) دراسات أدبية د / عبد المنعم يوسف : ص ١٢٢ بتصرف .

الاختلاط والاختلال [1] .

والبيت فى جملته فخر من الشاعر بلسانه وشاعريته فى شتى ضروب الشعر وأوديته ولاسيما فن الهجاء الذى ورد فى مساقه ، روى (محمد بن سيرين أن حسان أخذ يوما بطرف لسانه ، وقال : يا رسول ، ما يَسُرُّنى أن لى به مِقْوَلاً بين صَنْعاءَ وبُصْرَى ، ثم قال :

لسانى مِغْوَلٌ ، لا عَيبَ فيه ،   وبَحْرِى ما تُكَدِّرُهُ الدِّلاءُ) [2]

وفى قوله (لسانى صارم) : شبه لسانه بالسيف القاطع فى القوة والمضاء ، يريد أنه لا يثبت أمام شعره شئ لذلاقة لسانه وفصاحة بيانه وقوة منطقة ، فهو كالسيف الصارم يمضى فى كل شئ (وكان حسان يضرب بلسانه رَوْثَةَ أنفه من طوله ، ويقول : ما يسرنى به مِقْوَلُ أحد من العرب ، والله لو وضعتُه على شَعَرٍ لَحَلَقَه ، أو على صَخْرٍ لفَلَقَه) [3] .

ولما كان السيف الصارم عُرضة لأن ينثَلِم حَدُّه (أى ينكسر حرفه) فلا يكون قاطعا ماضيا فى الضريبة – احترس حسان من هذا الوصف أن يصيب لسانه ، فقال (لا عيب فيه) ؛ أى : إذا كان السيف عُرضة للمعابة بذلك فلسانى ليس عرضة لهذا العيب ؛ لأنه صارم أبدا . ويقابل هذا الاحتراس فى المشبه دفع ما قد يتوهم من صرامة لسانه من معنى الإفحاش والخوض فى الباطل وهجر القول وما شابه ذلك ، فقال (لا عيب فيه) لينفى هذه الصفات ، وذلك من فطنة الشاعر وصدق موهبته ، وإحساسه بما قد يثيره الكلام فى نفس السامع من معان تعكر صفو ما يريد ، فيبادر هو بنفيها وإزالتها .

---

(1) ينظر العقد الفريد : ٥ / ٦٠ وترتيب الأبيات التى اختارها على هذا النحو :

ألا ، أبلغ أبا سفيان عنى   مغلغلة ، فقد برح الخفاء
هجوت محمدا ، فأجبت عنه ،   وعند الله فى ذاك الجزاء
أتهجوه ولست له بكفء ؟   فشركما لخيركما الفداء !
فمن يهجو رسول الله منكم   ويطريه ويمدحه سواء ؟
لنا فى كل يوم من معد   سباب أو قتال أو هجاء
لسانى صارم ، لا عيب فيه ،   وبحرى لا تكدره الدلاء !
فإن أبى ووالده وعرضى   لعرض محمد منكم وقاء

وهو ترتيب ظاهر الاختلال .

(2) الأغانى : ٤ / ١٦٤ . والمغول : سيف دقيق له حد ماض (عن هامش المحقق) .

(3) الشعر والشعراء : ١ / ٣٠٥ وروثة الأنف : طرفه من مقدمه ، وهى الأرنبة (عن هامش المحقق) .

وفى الشطر الثانى شبه حسان شاعريته بالبحر فى ثرائه واتساعه ، وأن نـــزح المـاء لا يغيض منه ، فشاعريته معطاءة دائما ومملوءة أبدا بروائع المعانى وأبكارها وفرائدهـا ، كـالبحر ترفده الروافد ، فلا ينضب معينه ، ثم حذف الشاعر المشبه وهو " شاعريته " واستعار لها البحـر على سبيل التخييل والادعاء ، فكأننا لسنا أمام شاعرية تشبه البحر ، وإنما أمام بحر على الحقيقة .

ثم أخبر حسان عن هذا البحر بما (يثبت له العمق والسعة عن طريق الكناية ، وذلـك بقوله " لا تكدره الدلاء " ؛ لأن الدلاء لا تعجز عن إثارة الكدر فى مجتمع الماء إلا إذا كان بعيد الغور واسع المضطرب) [1] .

وبهذا يصور حسان شاعريته فى صورة خصبه ثرية ، صورة بحر ممتلئ بالماء الذى هـو أساس الحياة وجوهرها ، وكذا الشاعرية الصادقة منبع لكل معانى الخـير والجمـال ، ومنشـأ لجواهر تغذى النفوس وتمتع الألباب .

وفى الاستعارة أيضا إشارة إلى أن الشاعر لا يتكلف الشعر ؛ لأن الشعر لا يشق عليه ، فكأنه ينـــزح من بحر ، فما عليه إلا أن يلقى بالدلو ويغوص فى أعماق هذه النفـس الشـاعرة ليستخرج منها الجواهر والدرر فى يسر وسهولة .

وفى التعبير بـ " لا تكدره الدلاء " دلالة على أن معانى الشاعر بكر على الرغم مـن كثرة الأخذ منها ، ولذا فإنه كلما استقى شرب ماء صافيا ، ولم يشرب ماء كدرا ، كدره كثرة تكراره ونزحه ، والعرب تفتخر بأنها تشرب صفو الماء ويشرب غيرها ما بقى من الكدر والطين ، قال عمرو بن كلثوم :

وَنَشْرَبُ إِنْ وَرَدْنَا المَاءَ صَفْواً ، وَيَشْرَبُ غَيرُنَا كَدَرًا وَطِينًا .

(1) دراسات أدبية د / عبد المنعم يوسف : ص ١٢٣ . ويرى الدكتور عبد الحليم حفنى أن الشـاعر " يريد أن الهجاء لا ينال منه كالبحر : الدلاء لا تؤثر فيه مهما اغترفت منه " [الشعراء المخضرمون : ص ٢٤٤] .

فهرس المصادر والمراجع

- أساس البلاغة للزمخشرى ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- الأعلام للزركلى ط. دار العلم للملايين ط. خامسة ١٩٨٠ .
- أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجانى ت / هـ . ريتر نشر مكتبة المتنبى .
- الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ت عبد السلام هارون ط دار الكتب .
- أمالى المرتضى ت محمد أبو الفضل إبراهيم - ط عيسى الحلبى ط أولى ١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .
- البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى ط دار الفكر ١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م .
- بحوث قرآنية ولغوية للشيخ عبد الرحمن تاج أعدها أبو بكر عبد الرازق ط المكتب الثقافى ط أولى ١٩٩٠ م .
- البداية والنهاية لابن كثير نشر دار الغد العربى ط أولى ١٤١١ هـ / ١٩٩٠ م .
- البرهان فى علوم القرآن للزركشى ت محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار التراث
- بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدى ط مكتبة الآداب .
- البلاغة القرآنية فى تفسير الزمخشرى د/ محمد ابو موسى ط ثانية ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م نشر مكتبة وهبة .
- تاج العروس للزبيدى – المطبعة الخيرية بمصر ١٣٠٦ هـ .
- تاريخ الأدب العربى لبروكلمان ط دار المعارف ط خامسة .
- تاريخ الأدب العربى لحنا الفاخورى المطبعة البوليسية ط ثامنة .
- الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى – ط دار الحديث .
- التصوير البيانى د / محمد أبو موسى . نشر مكتبة وهبة ط ثالثة ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .
- تفسير القرطبى نشر دار الريان القاهرة .
- تلخيص البيان فى مجازات القرآن للشريف الرضى ت د/على مقلد ط منشورات دار الحياة ١٩٨٦ م
- تنزيل الآيات على الشواهد من الأبيات لمحب الدين أفندى مطبوع بآخر الكشاف للزمخشرى ط الحلبى .
- تهذيب تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر ط دار المسيرة ط ثانية ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م .
- جمهرة اللغة لابن دريد ط دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ط أولى ١٣٤٥ هـ .
- الجنى الدانى فى حروف المعانى للمرادى ت د / فخر الدين قباوة و محمد نديم فاضل ط منشورات دار الآفاق الجديدة ط ثانية ١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م .

- حسان بن ثابت د / محمد طاهر درويش ط دار المعارف ط ثالثة .
- الحماسة البصرية ت د/ عادل سليمان ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .
- خزانة الأدب لعبد القادر البغدادى ت عبد السلام هارون نشر مكتبة الخانجى .
- خصائص التراكيب د / محمد أبو موسى نشر مكتبة وهبة ط ثالثة .
- دراسات أدبية د / عبد المنعم يوسف ط ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م .
- دراسات فى علم البديع د أحمد محمد على مطبعة الأمانة ط أولى ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م .
- دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجانى ت / محمود شاكر نشر مكتبة الخانجى .
- دلالات التراكيب د محمد أبو موسى نشر مكتبة وهبة ط ثانية ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧ م .
- ديوان أبى تمام بشرح التبريزى ت محمد عبده عزام ط دار المعارف ط رابعة .
- ديوان امرئ القيس بشرح السندوبى ط . المكتبة الثقافية ط سابعة ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م .
- ديوان حسان بن ثابت ت د / سيد حنفى حسنين ط دار المعارف .

ديوان حسان بن ثابت ت / عبد أ . مهنا ط دار الكتب العلمية ط أولى ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م

ديوان حسان بدون تحقيق نشر دار ابن خلدون بدون تاريخ .

ديوان حسان بن ثابت بشرح الشيخ عبد الرحمن البرقوقى ط . دار الكتاب العربى .

- ديوان الحماسة بشرح المرزوقى ت أحمد أمين وعبد السلام هارون ط دار الجيل ط أولى ١٤١١ هـ ٩٩١ م .
- ديوان حميد بن ثور الهلالى صنعة عبد العزيز الميمنى نسخة مصورة عن دار الكتب ١٣٧١ هـ ١٩٥١ م
- ديوان زهير بن أبى سلمة بشرح أبى العباس ثعلب ت د / فخر الدين قباوة ط دار الآفاق الجديدة ط أولى ١٤٠٢ هـ ١٩٨٢ م .
- ديوان عمر بن أبى ربيعة بشرح الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد مطبعة المدنى ط ثالثة ١٣٨٤ هـ ١٩٦٥ م .
- ديوان المعانى لأبى هلال العسكرى نشر مكتبة القدس ١٣٥٢ هـ .
- رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ت د / بنت الشاطئ ط . دار المعارف ط . سابعة .
- الروض الأنف للإمام السهيلى فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام ط دار المعرفة ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .
- روضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن القيم ط دار الفكر العربى .
- زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم راجعه/ طه عبد الرءوف سعد ط مصطفى الحلبى ١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠م .

الاستيعاب فى أسماء الأصحاب لابن عبد البر مطبوع بهامش الإصابة لابن حجر ط دار المعرفة بيروت .

- سنن أبى داود ط . دار الحديث بالقاهرة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م .

- السيرة النبوية لابن هشام مع الروض الأنف ط دار المعرفة ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨ م .
- شرح أبيات مغنى اللبيب لعبد القادر البغدادى ت / عبد العزيز رباح وأحمد يوسف الدقاق ط دار المأمون للتراث ط أولى ١٣٩٨ هـ / ١٩٨٠ م .
- شرح بانت سعاد لابن هشام ط مصطفى الحلبى .
- الشعراء المخضرمون د / عبد الحليم حفنى ط . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ م .
- الشعر والشعراء لابن قتيبه ت / أحمد شاكر ط دار المعارف .
- صحيح البخارى مع فتح البارى لابن حجر ت / طه عبد الرءوف سعد ط دار الغد العربى .
- صحيح مسلم بشرح النووى نشر دار الريان ط أولى ١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م . ونسخة أخرى ت / محمد فؤاد عبد الباقى ط دار إحياء التراث العربى ط ثانية ١٩٧٢م .
- طيف الخيال للشريف المرتضى ت محمد سيد كيلانى ط . مصطفى الحلبى ط . أولى ١٣٧٤ هـ/١٩٥٥ م .
- العقد الفريد لابن عبد ربه ط . دار إحياء التراث العربى ط . ثانية ١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م .
- العمدة لابن رشيق ت / محمد محيى الدين عبد الحميد ط دار الجيل ط خامسة ١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م .
- غرائب التنبيهات على عجائب التشبيهات لابن ظافر الأزدى ت د / محمد زغلول سلام و د / مصطفى الصاوى الجوينى ط دار المعارف .
- فقه اللغة وسر العربية للثعالبى ت / مصطفى السقا وآخرين ط مصطفى الحلبى ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م .
- الفهرست لابن النديم ت / محمد أحمد أحمد ط المكتبة التوفيقية .
- القاموس المحيط للفيروزآبادى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب للبطليوسى ت / مصطفى السقا و د / حامد عبد المجيد ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣ م .
- الكامل للمبرد ت / محمد أبو الفضل إبراهيم نشر دار النهضة مصر .
- الكتاب لسيبويه ت / عبد السلام هارون ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ط ثانية ١٩٧٩ م .
- الكشاف للزمخشرى ط مصطفى الحلبى ١٤٩٢ هـ ١٩٧٢ م .
- لسان العرب لابن منظور ط دار المعارف .
- مجمع الأمثال للميدانى ت / محمد أبو الفضل إبراهيم ط عيسى الحلبى .
- مختارات شعراء العرب لابن الشجرى ت د / نعمان محمد طه دار التوفيقية ط أولى ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .

- مسند الإمام أحمد بن حنبل ط دار صادر بيروت .
- المعارف لابن قتيبة الدينورى ت د / ثروت عكاشة ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ط سادسة ١٩٩٢ م .
- معجم الأدباء لياقوت الحموى ط دار الفكر ط ثالثة ١٤٠٠ هـ ١٩٨٠ م .
- معجم البلدان لياقوت الحموى ط دار الكتاب العربى .
- مفاتيح الغيب للرازى نشر دار الغد العربى .
- المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ط دار المعرفة بيروت ط أولى ١٤١٨ هـ ١٩٩٨ م .
- مقاييس اللغة لابن فارس ت عبد السلام هارون ط مصطفى الحلبى ط ثانية ١٣٩٠ هـ ١٩٧٠ م .
- من أسرار حروف الجر فى الذكر الحكيم د / محمد الأمين الخضرى نشر مكتبة وهبة ط أولى ١٤٠٩ هـ ١٩٨٩ م .
- الموازنة بين شعر أبى تمام والبحترى للآمدى ت / السيد أحمد صقر ط رابعة دار المعارف .
- الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال لابن المنير بحاشية الكشاف .
- نظرات فى البيان د / عبد الرحمن نجم الدين الكردى مطبعة السعادة ط ثالثة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م .
- نمط صعب ونمط مخيف أ / محمود شاكر مطبعة المدنى ط أولى ١٤١٦ هـ ١٩٩٦ م .
- الوسيلة الأدبية للشيخ حسين المرصفى ت د / عبد العزيز الدسوقى ط الهيئة المصرية العامة للكتاب .

فهرس الموضوعات

مقدمة .... ص ٣٧٥ - ٣٧٧

حسان بن ثابت .... ص ٣٧٨ - ٣٧٩

بين يدى القصيدة .... ص ٣٨٠ - ٣٨٣

القصيدة .... ص ٣٨٣ - ٣٨٤

القسم الأول (ص ٢٨٥ - ٢٩٢)

افتتاح وصف الأطلال بلفظ " عفت " وما فيه من إثارة معانى الفقد والضياع / ٣٨٥ - الفرق بين منهج حسان ومنهج امرئ القيس فى عد الأماكن التى أصابها العفاء / ٣٨٦ - تكرار حسان هذه الكلمة وكثرة تذكيره النفس بها لاستنطاق النفس بالغناء / ٣٨٧ - لابد للتكرار من إضافة معانى جديدة / ٣٨٧ - سر إفراد " منزلها " / ٣٨٧ - التعبير بالمصدر " خلاء " دون اسم الفاعل / ٣٨٧ - سر اختياره وصف " الحسحاس " من بين أوصاف ملوك الغساسنة / ٣٨٨ - الإخبار عن الجمع بالمفرد فى قوله " قفر " / ٣٨٨ - براعة حسان فى التعبير بـ " الروامس " / ٣٨٩ - موازنة بين أبيات تشترك فى هذا المعنى / ٣٨٩ ، ٣٩٠ - إسناد الفعل إلى سببه المؤثر / ٣٩٠ - قوله " وكانت لا يزال بها أنيس ... البيت " تصوير للجانبين النفسى والمادى للحضارات / ٣٩١ - عقد المعانى فى هذا المطلع على أسلوب المقابلة / ٣٩٢ - إفراد النعم وجمع الشاء / ٣٩٢- سر التعبير بالفعلين المتقابلين فى قوله "وكانت لا يزال بها أنيس ... " /٣٩٣ .

القسم الثانى . (ص ٢٩٤ - ٤٢٠)

المناسبة بينه وبين القسم الأول / ٣٩٤ - جذر المعنى وفروعه فى هذا القسم ٣٩٤ - أسلوب الاقتضاب فى استهلاله / ٣٩٥ - وقفة مع تعليل الدكتور شوقى ضيف للاقتضاب فى الشعر العربى / ٣٩٥ - سر الإشارة فى قوله " فدع هذا " / ٣٩٦ - اجتماع الواو مع " لكن " / ٣٩٦ - الاستدراك طريق لوصل المعانى وليس لاقتضابها / ٣٩٧ - معنى الاستفهام فى " ما لطيف " والفرق بين رواية " ما " و " من " / ٣٩٧ - مفهوم الطيف وسر تنكيره / ٣٩٨ - الطيف " هو الكلمة التى قام عليها هذا القسم / ٣٩٨ - الإسناد المجازى فى " يؤرقنى " / ٣٩٩ - سر تقييد هذا الفعل بالظرف " إذا ذهب العشاء " / ٣٩٩ - من المعانى التى يمدح بها الطيف / ٣٩٩ - الفرق بين قيد حسان " إذا ذهب العشاء " و قيد الطائى " من آخر الليل " / ٤٠٠ - وصف الطائى للطيف بليغ فى أبيات جياد ومعالم الحسن فيه كثيرة / ٤٠١ ، ٤٠٢ - فى بيت الطائى

احتيال لاقتناص الطيف وفى بيت حسان استغاثة منه / ٤٠٢ – تقديم وصف الطيف على وصف صاحبته / ٤٠٢ – الفرق بين قوله " طيف لشعثاء " وطيف شعثاء / ٤٠٣ – تعريف بشعثاء واختلاف المصادر فى ذلك / ٤٠٣ ، ٤٠٤ – اختياره الفعل المضعف " تيم " دون مخففه " تام " / ٤٠٤ – تشبيه الحب بالداء الذى لا شفاء منه / ٤٠٤ – بلاغة الالتفات من التكلم إلى الغيبة فى البيتين / ٤٠٥ – قوله " لشعثاء " ليس جوابا للاستفهام كما ذكر أحد الدارسين / ٤٠٥ – براعة الانتقال من وصف صاحبته إلى وصف ريقها / ٤٠٦ – " الخبيئة " من أسماء الخمر لم تذكره كثير من المصادر / ٤٠٦ ، ٤٠٧ – الفرق بين تسميتها خبيئة وسبيئة وأيهما أحق بالمعنى / ٤٠٧ – السر فى مزج الخمر بالعسل والماء / ٤٠٧ – سر التعبير بـ " يكون " الموهم للزيادة فى البيت / ٤٠٨ – حذف المشبه بعد " كأن " فى قوله " كأن خبيئة ... " ومناقشة رأى الإمام السهيلى فى هذا / ٤٠٨ – نظرة فى شواهد هذا الحذف / ٤٠٩ – السهيلى يحكم على بيت حسان " على أنيابها ... " بأنه موضوع لا يشبه شعر حسان ولا لفظه ومناقشة هذا الحكم من حيث الرواية ومن حيث المعنى / ٤٠٨ ، ٤١٢ – الدكتور / عبد الحليم حفنى يتشبث بحكم السهيلى ويعلل له بتعليل مرفوض / ٤١١ – أبو العلاء المعرى ينفرد بزيادة بيت لم يروه سواه ، وزيادته مقبوله لموافقتها منهج الشاعر فى بناء قصيدته / ٤١١ – البيتان ليسا من التشبيه الضمنى : وسهو الشيخ عبد المتعال الصعيدى فى جعل التشبيه المذكور الأداة ضمنيا / ٤١٢ – قوله " أو طعم غض ... " تشبيه للريق ولكن فى طور جديد / ٤١٢ – من براعة حسان اشتراطه فى المشبه به شرطين / ٤١٢ – تصوير المرأة بالشجرة والنخلة مما شاع فى شعرهم / ٤١٢ – تقديم الصفة على الموصوف فى قوله " غض من التفاح " / ٤١٣ – هذه الصفة فى المشبه تكشف عن كلف النفوس بكل ما هو غض أنف لم تغيره يد / ٤١٣ – لماذا اختار طعم التفاح دون غيره / ٤١٤ – التضعيف فى " هصره " ومناسبته للمعنى / ٤١٤ – تفضيل رواية " اجتناء " على رواية " الجناء " لما فيها من استحكام يلائم الفعل السابق / ٤١٤ – ضرورة الوقوف على المشبه لا على القافية عند أنشاد هذه الأبيات / ٤١٥ – دلالة القيد بالظرف فى قوله " إذا ما الليل قلت كواكبه " / ٤١٥ – يلاحظ أن حسان لم يتوسع فى غزله هنا / ٤١٥ – جعل حسان تشبيه الريق بالخمر قنطرة يعبر منها إلى أبياته السائرة فى وصف الخمر / ٤١٥ – سر زيادة " ما " بعد " إذا " الشرطية / ٤١٦ – دلالة التعبير بجمع الجمع فى " الأشربات " / ٤١٦ – لطيفة فى تعبيره بـ " ذكرن " / ٤١٦ – تنكير " يوما " / ٤١٦ – تسمية الخمر بالراح وبيتان لابن الرومى جمع فيهما معانيها

/ ٤١٦ – مخالفة الدارسين فى تفسير الراح فى بيت حسان / ٤١٦ – تقديم الصفة على الموصوف فى " طيب الراح " / ٤١٧ – إفادة القصر بتعريف المسند فى قوله " فهن ... الفداء " / ٤١٧ – الكناية عن صفه فى قوله " نوليها الملامة ... البيت " / ٤١٧ – سر التعبير بـ " إن " و " إذا " فى البيت / ٤١٧ ، ٤١٨ – ملائمة التعبير بالمغث واللحاء لحال السكران البات / ٤١٨ – أسلوب المقابلة فى البيت / ٤١٨ – سر التعبير بـ " الملامة " بدل اللوم / ٤١٨ – قوله " ونشربها فتتركنا ملوكا ... " : تفسير للبيت السابق / ٤١٨ – البيت يصور عزة وشجاعة تصطنعهما الخمر فى شاربها / ٤١٨ – البيت تصوير جيد لطبائع المخمورين / ٤١٨ ، ٤١٩ – سر حذف الوجه والأداة فى هذا التشبيه / ٤١٩ – كيف أذهب الشاعر عن هذا التشبيه رتابة الإلف ؟ / ٤١٩ – من جمال اللغة تكرار الحروف فى الكلمة لتكرار معناها كما فى " نمنه وهدهد " / ٤١٩ – " اللقاء " كناية عن الحرب / ٤٢٠ – عاب بعض الأدباء البيت بقصوره فى الفخر ورد الألوسى عليه / ٤٢٠ .

القسم الثالث (٤٢١ - ٤٦٠)

تحرير القول فى وضع المقدمة الجاهلية فى بداية القصيدة الإسلامية / ٤٢١ – أقدم من قال ذلك راويان أديبان من علماء القرن الثالث ثم راجت المقولة بعدهما / ٤٢١ – اتخذها بعض المعاصرين دليلا على عبث الرواة بالشعر / ٤٢٢ – الباعث الذى دفع العلماء إلى هذه المقولة / ٤٢٣ – رأى أبى العلاء المعرى فى تغنى حسان بالخمر بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم / ٤٢٣ – سنة الشعراء فى الترنم بأنغامهم والبناء عليها تؤكد ما ذهب إليه العالمان الأديبان فى القرن الثالث وتمحو العبث فى عن رواة الشعر / ٤٢٤ – وحدة الجو النفسى فى القصيدة / ٤٢٤ – إحكام حسان المناسبة بين المقدمة الجاهلية والغرض الإسلامى / ٤٢٥ – لما غابت هذه الوشائج النفسية والمناسبات رميت القصيدة بالتفكك واتهم الرواة بالعبث وبمخازى أخرى / ٤٢٦ – انطلق حسان فى هذا القسم من وصف الخيل وجعلها رمزا لقوة المسلمين – عرض عام لحركة المعنى فى هذا القسم / ٤٢٦ ، ٤٢٧ – الإثارة فى الافتتاحية بالدعاء على الخيل / ٤٢٧ – منزلة الخيل عند العرب / ٤٢٨ – بلاغة هذا الدعاء / ٤٢٨ – التعبير بـ " عدمنا " أقوى من " فقدنا " / ٤٢٩ – " الخيل " فيها معنى الزهو والافتخار / ٤٢٩ – دلالة " إن " الشرطية على الشك / ٤٢٩ – لطيفة فى تسليط النفى على رؤية الخيل تثير النقع لا على إثارة النقع نفسه / ٤٢٩ – إثارة النقع كناية عن شدة الحرب / ٤٢٩ – " الموعد " كما يكون اسم زمان يكون

اسم مكان / ٤٣٠ – تحقق بشارة حسان بدخول رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح من " كداء " / ٤٣٠ – فى تحديد المكان استخفاف بالمشركين وتعجيز لهم / ٤٣٠ – رواية أخرى للإمام مسلم وابن عساكر / ٤٣٠ – إحالة من السنوسى على كلام مفقود من شرح النووى لصحيح مسلم / ٤٣١ – عود الضمير على غير مذكور / ٤٣١ – قوله " يبارين الأسنة ... البيت " احتراس مولود من رحم البيت السابق / ٤٣١ – عقد حسان مسابقة غريبة بين الخيل والرماح / ٤٣٢ – وجه آخر فى فقه هذا البيت يشبه الخيل فى حدتها وضمورها واعتدال قوامها بالرماح / ٤٣٢ – التعبير بالمصغيات وما فيه من دلالة على جودة هذه الخيل / ٤٣٣ – سر التعبير بالأكتاف دون الظهور / ٤٣٤ – بلاغة الاستعارة المكنية فى وصف الرماح بالظمأ إلى دماء المشركين / ٤٣٤ – تآزر الصور البيانية فى هذا البيت يبرز احتشاد الشاعر لوصف خيل المسلمين / ٤٣٥– قوله " تظل جيادنا متمطرات ... البيت " خلص فيه الشاعر من وصف الخيل حال المعركة إلى وصفها حال النصر ودخول مكة / ٤٣٥ – بلاغة التعبير بـ " تظل " / ٤٣٦ – والتعبير بالأفعال المضارعة فى وصف الخيل / ٤٣٦ – من براعة حسان اختياره لفظ " جياد " / ٤٣٦ – قوله " متمطرات " تشبيه للخيل فى سرعتها وقوتها بالمطر وما فى ذلك من معان / ٤٣٦ – قوله " تلطمهن بالخمر النساء " كناية عن تمام النصر / ٤٣٧ – إيثار " اللطم " مناسب لحال النساء / ٤٣٧ – جعل التلطيم بالخمر فيه دلالة على ذهول النساء وسرعة مفاجأتهن بدخول خيل المسلمين / ٤٣٧ – تحقق بشارة حسان وتبسم الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك / ٤٣٧ – الغرض من تلطيم نساء مكة خيل المسلمين بالخمر رغبتهن فى دفعها وردها لترجع ومناقشة رأى الإمام النووى وابن منظور فى أن نساء مكة إنما فعلن ذلك بالخيل تكريما لها لعزتها وكرامتها عندهن / ٤٣٧ ، ٤٣٨– الأبيات الثلاثة من أروع ما قالته العرب فى وصف الخيل فى المعركة / ٤٣٨ – التفات حسان إلى المقام الذى أنشأ فيه القصيدة وافتتاحه الحديث عنه بقوله " فإما تعرضوا عنا اعتمرنا ... البيت " / ٤٣٨ – تأثر حسان بلغة القرآن الكريم / ٤٣٩ – حذف " إما " المكررة استغناء عنها بـ " إن " الشرطية و " لا " النافية / ٤٤٠ – تقديم " اعتمرنا " على " كان الفتح وانكشف الغطاء " / ٤٤١ – سر التعبير بـ " كان " التامة / ٤٤١ – المراد بالفتح فى البيت دخول مكة لأداء العمرة وليس " فتح مكة " / ٤٤١ – السر فى تسمية هذا الاعتمار فتحا / ٤٤٢ – تسميته فتحا فى القرآن الكريم وكلام نفيس لابن القيم فى ذلك / ٤٤٢ – وجه آخر فى المراد بالفتح فى البيت / ٤٤٣ – استعارة انكشاف الغطاء لتحقق رؤيا الرسول صلى الله عليه

وسلم بدخول المسجد الحرام / ٤٤٣ - قوله " وإلا فاصبروا لجلاد يوم ... البيت " فيه إيجاز بحذف فعل الشرط / ٤٤٤ - التعبير عن الانتظار بالصبر / ٤٤٤ - وعن الحرب بالجلاد / ٤٤٤ - تنكير " يوم " / ٤٤٤ - قوله " يعز الله فيه من يشاء " من الكلام المنصف وحديث عن بلاغة هذا الأسلوب / ٤٤٥ - ثقة حسان بأن الله يعز المسلمين لاجتماع أسباب النصر وتحققها فيهم سواء كانت أسبابا وقوى روحية أم مادية وتفصيله القوى الروحية فى ثلاثة أبيات والقوى المادية فى ثلاثة أخرى / ٤٤٦ - اختلاف الروايات فى ترتيب هذه الأبيات الستة من أصعب شئ وأشقه على الباحث / ٤٤٦ - تفضيل رواية ابن هشام على رواية الديوان وغيرها وأدلة ذلك التفضيل / ٤٤٧ .

أولا : القوى الروحية : افتتاح حسان لها بسيدنا جبريل ، عليه السلام / ٤٤٨ - قوله " وجبريل رسول الله فينا ... البيت " صياغته من بديع الصياغة ورائعها / ٤٤٨ - سر التعبير بـ " فينا " بدل " معنا " / ٤٤٩ - وصف جبريل ، عليه السلام ، بروح القدس / ٤٤٩ - تنكير " كفاء " / ٤٤٩ - قوله " وقال الله قد أرسلت عبدا ... البيت " تغيير نظم الكلام بإجرائه على طريق الحكاية والقصة / ٤٥٠ - بروز عناصر التوكيد فى هذا البيت / ٤٥٠ - بناء هذا البيت من النمط العالى / ٤٥٠ - تنكير " عبدا " / ٤٥٠ - الاحتراس بـ " يقول الحق " / ٤٥٠ - فى تعريف الحق دلالة على الكمال / ٤٥٠ - لطيفة فى تقييد الفعل بـ " إن نفع البلاء " / ٤٥٠ - نفع البلاء استعارة لشدة الخطب واستحكامه / ٤٥١ - قوله " شهدت به وقومى صدقوه ... البيت " يصور دعامة مهمة من دعائم النصر وهى قناعة المقاتل بالقضية التى يدافع عنها ويفديها بروحه / ٤٥١ - ويصور فى أسلوب المقابلة موقف المسلمين من الرسول صلى الله عليه وسلم وموقف المشركين منه / ٤٥٢ - السر فى تقديم شهادته على تصديق قومه / ٤٥٢ - السر فى حذف مفعولى " نجيب ونشاء " / ٤٥٢ - ترجيح رواية نسخة مخطوطة من مخطوطات الديوان لم تذكرها سائر الروايات / ٤٥٢ ، ٤٥٣ - توهين رواية " ما نحب وما نشاء من حيث المعنى / ٤٥٣ .

ثانيا : القوى المادية للنصر : قوله " وقال الله قد يسرت جندا ... البيت " وصله بما قبله بأسلوب الحكاية / ٤٥٣ - بين التعبير بـ " عبد " فى القوى الروحية و " جند " فى القوى المادية / ٤٥٣ - من ظلال التعبير بـ " يسرت " وما فيه من دلالة على أن الله تعالى جند الأنصار لخدمة هذا الدين / ٤٥٣ - رجال الأنصار أشجع الناس / ٤٥٤ - سر الفصل فى قوله " هم

الأنصار " / ٤٥٤- المراد بالأنصار / ٤٥٤ - قوله " عرضتها اللقاء " وصف مجمل يدل على كثرة تعرضهم للقتال وتمرسهم على فنونه / ٤٥٤ - قوله " لنا فى كل يوم من معد ... البيت " تفصيل لهذا الإجمال / ٤٥٥ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم / ٤٥٥ - تعريف بـ " معد بن عدنان " ولم آثر ذكره على " قريش " / ٤٥٥ - تقديم القتال على السباب والهجاء / ٤٥٦ - سر الجمع بين القتال والهجاء / ٤٥٦ - الدكتور / عبد الحليم حفنى يستدل بهذا البيت والذى قبله على عصبية حسان القبلية ضد قريش ، والرد عليه فى ذلك / ٤٥٦ - قوله " فنحكم بالقوافى من هجانا ... البيت " يرتبط بما قبله ارتباط النشر باللف / ٤٥٧ - نظرة فى بلاغة هذا الأسلوب / ٤٥٧ - للقرآن الكريم فى هذا الأسلوب تصرف باهر فى حاجة إلى دراسة جادة / ٤٥٧ - فى البيت دلالة على أن النهج الغالب فى حرب المسلمين سواء كانت بالكلمة أم بالسيف أنها دفاعية لا هجومية / ٤٥٧- الاستعارة المكنية فى قوله " فنحكم بالقوافى ..." وما فيها من جمال / ٤٥٨ - قوله " ونضرب حين تختلط الدماء " كناية عن اشتداد الحرب واشتعال ضرامها / ٤٥٩ - تفنن الشعراء فى الكناية عن شدة الحرب / ٤٥٩ - نظرة فى هذا التفنن تفصح عن درجات شدة الحرب فى كل كناية / ٤٥٩ - حذف مفعول " نضرب " / ٤٦٠ - من براعة حسان جمعه السكون إلى الغاية والحركة إلى الغاية فى بيت واحد / ٤٦٠ .

القسم الرابع . (ص ٤٦١ - ٤٩٦)

المقصد الأصلى فى هذا القسم وتفرعه من القسم السابق / ٤٦١ - الاختلاف فى عدد أبياته وترتيبها فى الروايات / ٤٦٢ - نظرات فى روايتها فى الديوان المحقق من حيث ترتيب أبياتها وتسلسل معانيها ، ومن حيث النقص والزيادة فى عدد الأبيات / ٤٦٢ - رأى فى اختلاف رواية الديوان ورواية السهيلى فى الأبيات التى زادها أبو عمرو الشيبانى فى القصيدة / ٤٦٤ - زيادة الشيبانى لها رحم تمس بها إلى هذا القسم من القصيدة / ٤٦٥ - الاعتماد على التلفيق بين رواية الديوان ورواية ابن هشام / ٤٦٥ - بيت فى رواية السهيلى لم أطمئن إليه لمخالفته منهج الشاعر ولكنه مع ذلك فسر سهواً وقع فيه الأستاذ العقاد / ٤٦٥ - روايات أخرى هى مجرد اختيارات لأبيات من القصيدة وليس من همها ضبط الرواية / ٤٦٦ - افتتاح أبيات هذا القسم بروح قوية ممتلئة بالغضب فى قوله : " ألا أبلغ أبا سفيان ... البيت " / ٤٦٧ - السر فى عدم تحديد مخاطب بفعل الأمر فى قوله " أبلغ " / ٤٦٧ - ظلال المعانى فى التعبير بـ " مغلغلة " / ٤٦٧ - الاستعارة التمثيلية فى قوله " برح الخفاء " / ٤٦٨ - تحليل رواية " فأنت مجوف نخب هواء " واجتماع ثلاثة

تشبيهات للجبان فيها / ٤٦٩ – قوله " بأن سيوفنا تركتك عبدا ... البيت " خبر أريد به التعبير بالمذلة والفرار يوم بدر / ٤٧٠ – جمع " سيوفنا " / ٤٧٠ – إسناد الفعل " تركت " إلى ضمير السيوف / ٤٧٠ – تنكير " عبدا " / ٤٧٠ – تعريف بـ " عبد الدار " وسر اختيارهم فى هذا البيت / ٤٧٠ – الصنعة البديعية فى البيت / ٤٧١ – قوله " هجوت محمدا فأجبت عنه ... البيت " تفرعه مما قبله / ٤٧١ – رد حسان على هجاء أبى سفيان رد هادئ رزين بلا إفحاش ولا إقذاع / ٤٧١ – سر التعبير بصريح اسمه صلى الله عليه وسلم دون صفته / ٤٧٢ – دلالة الواو على الترتيب فى رواية " وأجبت عنه " / ٤٧٢ – قوله " وعند الله فى ذاك الجزاء " تعريض بأبى سفيان / ٤٧٢ – القصر بتقديم الظرف / ٤٧٣ – سر التعبير بالظرف " عند " دون حرف الجر " من " / ٤٧٣ – من بلاغة استخدام اسم الإشارة للمفرد مع أن المشار إليه مثنى فى قوله " وعند الله فى ذاك الجزاء " وفى آية البقرة " لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك " / ٤٧٣ – من أدبه صلى الله عليه وسلم الجم سكوته عن ذكر جزاء أبى سفيان / ٤٧٥ – بصيرة فى استخدام " فى " بمعنى " على " فى قوله " وعند الله فى ذاك الجزاء " / ٤٧٥ – معنى الاستفهام فى قوله " أتهجوه ولست له بكفء ؟ " / ٤٧٦ – بلاغة التقييد بالحال فى قوله " ولست له بكفء ؟ " / ٤٧٦ – الفرق بين هذا القيد وقيد امرئ القيس فى بيته المشهور : " أيقتلنى والمشرفى مضاجعى ... " / ٤٧٦ – دلالة الباء فى " بكفء " / ٤٧٧ – قوله " فشركما لخيركما الفداء " فى ظاهر اللفظ شناعة دفعها سيبويه / ٤٧٧ – الجملة من الكلام المنصف / ٤٧٧ – أسماء هذا المصطلح عند مدرسة المتأخرين / ٤٧٧– قوله " هجوت مباركا برا حنيفا ... البيت " بيان لفضله صلى الله عليه وسلم بأنه هو الخير كله / ٤٧٨ – وحدة المنهج الذى بنى عليه الشاعر قصيدته / ٤٧٩ – سر الفصل بين الصفات فى البيت / ٤٧٩ – الصفات الخمس جمعت له صلى الله عليه وسلم ما وصف به الأنبياء فى القرآن الكريم على الوجه الأتم الأكمل / ٤٧٩ – البيت استفهام بغير أداة / ٤٨١ – نظرة فى حذف أداة الاستفهام / ٤٨١ – قوله " أمن يهجو رسول الله منكم ... البيت " " ثالث أبيات الاستفهام / ٤٨٢ – فيه تعريض بخسران الهاجى وفوز المادح / ٤٨٢ – بناء البيت على فنون بديعة من الحذف منها الحذف المقابلى ويسميه بعضهم الاحتباك وهو فى القرآن كثير/ ٤٨٢– ومنها حذف الموصول وبقاء صلته وبصيرة لطيفة فى سر هذا الحذف هنا وفى قوله تعالى " وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم " قوله / ٤٨٣ – فإن أبى ووالده و عرضى ... البيت " جواب الاستفهام الثالث / ٤٨٥ – مظاهر عناية حسان بهذا الجواب / ٤٨٥ – الخلاف فى تفسير العرض

فى هذا البيت / ٤٨٥ – حسان يشبه أباه وجده ونفسه بالدروع الواقية التى تقى رسول الله صلى الله عليه وسلم / ٤٨٦ – فساد القول بتقدير مضاف محذوف فى البيت / ٤٨٦ – " وقاء " نكرة فى حكم المعرفة / ٤٨٦ – سر تقديم الجار والمجرور " منكم " على " وقاء " / ٤٨٧ – البيت يمثل صدق العاطفة فى أسمى صورها / ٤٨٧ – الأبيات التى زادها الشيبانى تفصيل لما أجمله الشاعر فى قوله " ونضرب حين تختلط الدماء " / ٤٨٧ – رواية السهيلى لزيادة الشيبانى أحق من رواية الديوان لها لأمور ثلاثة / ٤٩١ – سر الإشارة بـ " أولئك " / ٤٩٢ – والتعبير بـ " معشر " دون " فرقة " / ٤٩٢ – الفرق بين رواية " ألبوا علينا " ورواية " نصروا علينا " / ٤٩٣ – الصورة البيانية فى قوله " ففى أظفارنا منهم دماء " استعارة مكنية بنيت عليها كناية عن صفة / ٤٩٣ – قوله " لسانى صارم ... البيت " هو النغمة الأخيرة فى القصيدة / ٤٩٤ – المكان اللائق بهذا البيت فى القصيدة ولماذا أخره حسان إلى الخاتمة / ٤٩٤ – فخر الشاعر بلسانه وشاعريته / ٤٩٥ – تشبيه اللسان بالسيف / ٤٩٥ – الاحتراس بجملة " لا عيب فيه " / ٤٩٥ – تشبيه الشاعرية بالبحر وما فيه من معان / ٤٩٦ – الكناية عن عمق هذا البحر وسعته بقوله " لا تكدره الدلاء " / ٤٩٦ .

فهرس المراجع .... ص ٤٩٧

فهرس الموضوعات .... ص ٥٠١